روايـــــــة..

خِـــضْـــر...

"ابن مداح النبي"

لـــ : محمد البشير

خضر
ابن مداح النبى
محمد البشير
دار فصلة للنشر و التوزيع

خضر ..ابن مداح النبى
محمد البشير
تدقيق لغوي : د/محمود عوض الله
تصميم الغلاف : عبير محمد
:رقم ايداع ٢٠١٧/٢٦١٨
ترقيم دولي: 978-977-6594-11-1

دار فصلة للنشر و التوزيع
العزيزيه - منيا القمح - مصر
٠٠٢٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١
fasla.pub@gmail.com
www.fasla.org

مدير عام : عمر الحضري - مدير النشر : محمود محي الدين

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه

الطبعه الأولي يناير ٢٠١٧

جميع حقوق النشر محفوظه لدار فصلة للنشر و التوزيع
إن أي تصوير أو اعادة طباعه أو نشر بشكل ورقي أو الكتروني
أو ترجمته أو تسجيله صوتيا بدون إذن كتابي مسبق من الدار
يعرض صاحبه للمسائله القانونيه

إهداء ..

إلى .. أبي و أمي

علّني أكون ولداً صالحاً باراً بوالديه ..

قالوا قديماً :

لا تخف إن قلت

واسكت .. لا تقل .. إن خفت

وانا أقول :

الخوف قواد .. فحاذر أن تخاف

قل ما تريد .. لمن تريد .. كما تريد .. متى تريد

لـ : نجيب سرور ..

مقدمة

في زمن تشابهت فيه الأيام و اللحظات و الاحداث .. كعصرنا و كالعصور السابقة تجري به المشاهد في وقع رتيب ممل ، و مكان ابتعد عن أنظار العالمين جميعا .. و ما طالته إلا يد الغزو البريطاني ذو الاسطول الأقوى و الأشرس في ذاك الزمان .

نهر عذب كريم يجود بأنواع الخيرات كافة .. يحيط بأطرافها من كل اتجاه عدا طريق بائس متواضع يصل بينها و بين اليابسة ، و أرض خصبة عطّاءة مفعمة بالعديد من الحيوات ، و موقع جغرافي متميز كان مطمعاً للغزاة على مر العصور .

تلك المملكة الضخمة .. رغم إمتداد أراضيها شرقاً و غرباً و اتساعها لتأوى بيوتاً متعددة و مساحات واسعة من مراعٍ و أفلاج و بعض القنوات المائية الصغيرة الواصلة بين النهر و تلك الاراضي إلا أن اسمها كان كافياً للتعبير عن بؤسها و شقاء أهلها .

"حارة العطشانين" . هكذا سميت و هكذا عهدها الناس و أطلقوا عليها بعدما حُرّمت عليهم مياه نهرهم العذب الواسع إلا بمقابل . فافتقر الناس و جفّت الافلاج و القنوات و بدا القحط ظاهراً على أبدان المواشي و الخيول و اختتم الأمر بتصحر جزء ليس بالهين من الارض بسبب العطش الشديد .

و ما كان ذلك إلا بالهين اليسير ، فمع توالي الملوك و الولاة على المملكة -أو الحارة إذا تكلمنا بشيء من الواقع- زادت مآسيها و مصائبها .
فالكل اتخذ من الانجليز صناً فولاذياً يعجز ألف فأسٍ أن يكسره .
ولإرضئهم .. أذاقوا اهل الحارة من العذاب و الشقاء ألوانا ، و استنوا من القوانين و الفرمانات أظلمها ، و اتخذوا من فرض الضرائب منهجاً و من نهب الاموال بغير الحق دستورا .
كان أول من تسلم مقاليد حكم المملكة بعد أن أصبحت رقعة و جزء لا يتجزء من تلك المملكة التي لا تغيب عنها الشمس و تابعة لها هو عابد باشا الوالي . فسار على هذا المنهج خطوة بخطوة .. و سار ابنه مختار باشا الوالي على نفس الطريق من بعده فسرق هو الآخر و نهب و ظلم حتى فاق بالظلم و الطغيان أباه .
و لحكمة ارادها الله لم يتواجد الظلم في أرض إلا و وجد من يناهضه ويدعو لمقاومة ذلك الظلم حتى تتزن الأمور و تتساوى كفتي الميزان ، فلا شر بدون خير يقاومه ، ولا نار بغير ماء يطفئها ، ولا مارد بغير ملاك يأسره و يقذفه بمنجانيق الشهب المحرقة .
و لعل أبرز من أوكلت إليه تلك المهمة و أُسند إليه هذا الدور في زمان و عهد مختار باشا الوالي هو الشيخ نور الدين مداح النبي و عاونه في ذلك الشيخ عثمان رفيقه و خليله إمام مسجد الحارة الأكبر .

و شهد الجميع للشيخ نور الدين أنه من أخيار أهل الحارة و أتقاهم و أشدهم كرهاً و حساسية للظلم على الاطلاق .

ولازمه لقب الشيخ بسبب مهنته ، فكان نور الدين يعمل مداحاً للنبي . فما إن يحمل ربابته ويبدأ بغناء أفضل الأشعار في مدح النبي الكريم محمد و أفصحها حتى يتهافت اليه جموع الناس من كل حدب ينسلون . فرجال و شيوخ ينصتون في خشوع ، ونساء و أطفال يهللون ويصفقون .. بل ويبكون أحياناً عندما يصل الشيخ إلى حالة الخشوع المعهودة ، فيمتزج صوته العذب المليح وقت إذٍ بنغمات الربابة العذبة وينطق فمه بكل إحساس و صدق و تذوق للكلمات الرقيقة التي تبعث المحبة في نفوس السامعين فيهتفون بكل حماسة بعد أن يفرغ الشيخ من أغنيته بـ " الله يفتح عليك يا شيخ " ، وما يلبثوا فيطالبونه بالمزيد و المزيد ثم المزيد .

و لا يغادر الشيخ جلسته إلا وقد امتلأ كيسه من نفوس العاشقين لرسول الله وقد يصل احياناً أن يتبرع أحدهم ويتكفل بعشاء الشيخ اكراماً و تشريفاً له ..

و كان الشيخ الجليل ينتهز فرصة إجتماع الناس حوله وإنصاتهم بكل حواسهم له حتى يخلع رداء المداح و ينقلب الى ذلك الشخص الثائر على ظلم الوالي . فيشكو للناس و يشكوهم لرب الناس . يترحم على زمن ما قبل الاحتلال و التبعية .. زمان غير الزمان و حياة غير الحياة ، و ما يختم حديثه قط إلا داعياً لثورة عارمة ضد الوالي و الانجليز من بعده .

لكن باءت محاولاته جميعاً بالفشل المحبط المخزي . وكان نادراً ما يلقى استجابة من أناس استوطن الذل نفوسهم وسيطر على أفكارهم ، فكان لا يلقى من وراء خطاباته و هتافاته تلك سوى تحذيرات إعتادها و ملّها من أهل الحارة . و غالباً كان يلحق بتلك التحذيرات بعض ضربات سياط طائشة قاسية من حرس الوالي التي تنال من ظهره فتحرم النوم على جفنه لأيام و ليال .

و انقسم أهل الحارة لفريقين متضادين في الموقف مختلفان في الرأي واشترك كلاهما في نفس المصير .
أولى القسمان كان من وافق الوالي على ظلمه و خضع له راضياً بالفتات و جسداً خالياً من أثر "الكورباج" اللئيم . و ثانيهم كان من علا صوته بالاعتراض على ما رأى و لا زال –إلا يومنا هذا- يراه من ظلم ، و رفض دفع الضرائب المفروضه بغير وجه حق و امتنع عن المثول إلى تلك القوانين الظالمة . و كان لهم شعار وقت إذٍ أن إذا كان الوالي و فتواته الأوباش و حراسهم المختالين المساطيل هم من يمثلون القانون في تلك الحارة ، فمن الافضل و الأشرف أن نكون نحن الخارجين على القانون .
لكن كورباج "عبدون" كورباج عادل يعشق الحق حد الإدمان . فما كان ليفرق بين مؤيد و معارض ، بين ابيض و اسود ، بين خاضع و ثائر فالكل في نظر "عبدون" .. يستحق العقاب .. وتلك هي المساواة .. !

عبدون هو اليد الثالثه لمختار باشا الوالي وعينه اليقظة التي لا تنام .
هو خادمه المطيع الذي أطاع أباه عابد باشا الوالي من قبل و أعانه على إخضاع أهل الحارة لسلطة و نفوذ القانون دائماً .

****

قالوا قديماً –ولا زالوا يرددون- إذا صلح الراعي صلحت الرعية . و أنا لا زلت أتسائل .. أصدقوا في مقولتهم ؟ هل من صلاح الراعي تصلح الرعية ؟ أم العكس !
أم أن ذلك كله محض أقوال عابرة لا تسمن ولا تغني من جوع !
أانت –أيها القاريء- ممن يستمتع بالاستماع إلى غناء العصفور الصغير ذو الألوان الزاهية متأرجحاً في قفصه الذهبي ..
أم أنك من المطالبين بحريته و إطلاق سراحه .؟
أم أنك من ذاك الصنف الثالث -وهو الأغلب في عصرنا- لا تهتم إلا بتخيل مذاق لحم العصفور أشهي هو أم كباقي ألوان الطيور !
لك ما تريد .. و لك الحكم .. في من هو ظالم ، و من هو أظلم !

الكاتب : محمد البشير
بتاريخ : ٢٦ / ٧ / ٢٠١٥

١

في ليلة دافئة من ليالي أغسطس الحارة صباحاً و مساءا . حينما سقط الحجاب عن القمر فكشّف عن نوره وأضاء الليلة الظلماء .
على الأريكة الخشبية البسيطة في منزل طيني يتوارى عن مرأى ومسمع أهل حارة العطشانين .. جلست زرقا تتلو بعض آيات القرآن الكريم وما التقطت أذنها من تمتمة زوجها الشيخ نور الدين بأذكار الصباح و المساء ثم أعدت لنفسها كوباً ساخناً من الشاي و صعدت الى سطح دارها لتنتهز وجود تلك النسمة الهاربة على حين غفلة من الطقس لتعطي بعض الانتعاش في نفوس ملت من الشمس و حرها الكالح .

"زرقا" هو الاسم الذي أطلقه عليها أبواها ذوي العيون البنية بعدما رأوا عيناها زرقاء صافيه كنهر واسع عميق ممتد مجهول المنبع و المصب .
و طالما كانت سبباً في تعاسة أبويها ، خاصة بعدما زرع أهل قريتها الشك في صدر أبيها عن نسبها ضاربين بقوانين مندل للوراثة عرض الحائط و ذاك أمر طبيعي في ظل مجتمع جاهل بنى سدوداً بينه و بين العلم .
طعن أهل القرية في شرف عائلتها فهجروا القرية عن كره نفس و إجبار تاركين ورائهم سمعة لا تليق .

انتقلت مع ابيها و امها إلى حارة العطشانين ، و كانت في سن الصبى وقت ان تولى زمام أمور الحارة و تربع فوق عرشها مختار باشا الوالي فعاشوا ذلاً بعد عز ومراراً بعد رخاء و ظلماً بعد عدل ، فكانت أولى مصائبها في الحارة .. مصرع أبيها على يد حرس الوالي الذين نصبوا أنفسهم سفراء الله في الارض .

و جرت بها أعوام و دهور آلف الله فيها بين قلبها وقلب الشيخ نور الدين ابن البيت المجاور لهم ذو السمعه الحسنه و السلوك القويم و الصوت المليح العذب ، فكان لها زوجاً طيباً و أباً حنوناً و صديق حسن المعشر و موضع سر عميق .. و ما مر عام على ذلك الزواج حتى نضجت ثمرته الأولى و الوحيده .. خضر

****

كانت سماء تلك الليلة مضيئة بالقمر والنجوم من حوله في استعراض منير و كانت شوارع الحارة ساكنة لا تنبض بالحركة إلا لقطٍ عابث أو كلب ضل الطريق . فالليلة هي ليلة الجمعه -وما أدراكم ما الجمعة في حارة العطشانين- حيث يتجمع أهل القرية جميعاً حول ربابة الشيخ نور الدين في ساحة مسجد الحارة ليستمعوا الى مدحه المتواصل للنبي الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) .

فما ان يبدأ منشداً على أنغام ربابته :

جل من انشأك يمناً و سنا جئت بالآيات و البشرى لنا

و ملأت الكون صفواً و هنا فزهى حسناً و ظلاً و جنا ..

حتى يهلل الأطفال و يصفقون ويحوقل الرجال و يكبرون وترى النساء وقد اغرورقت عيناهن بالدموع من طيب الكلام وعذوبة الالحان و خشوع الصوت .

وما كادت زرقا تهنأ بتلك النسمه و كوب الشاي الدافئ حتى أتاها صوت بكاء صبيها ذو الخمس سنوات "خضر" ، فهرعت إليه وكانت قد تركته بالدار نائماً قبل أن تصعد الى أعلى . ضمته لصدرها بحنان ومسحت بكفيها دموعه ثم سألته بعتاب تجلت فيه المحبة و وضحت :

- ما سر البكاء عزيزي ؟

أجاب الصبي باكياً

- ابي ..

- ما به أباك !

- رأيته يحتضن ربابته في خوف .. و تماثيل عديدة مخيفة تحيط به من كل مكان .. والسماء ممتلئة بالغربان السود

سألته زرقا بملامح خضعت للفزع ونبرة سيطر عليها الخوف الشديد :

- اهدأ عزيزي و أخبرني برويّة .. ما الذي حدث ؟ ماذا رأيت ؟

فأجابها الطفل بحروف ضاعت معالمها و تاهت في خضّم البكاء :

- رأيته .. يخفي وجهه بيده ، و كان هناك ثعبان ضخم يزحف نحوه ..

سكت خضر لوهلة من رعب تملكه ثم استطرد قائلا :

- انقض الثعبان على مؤخرة رأس أبي فأسقطه أرضاً .. و الغربان تصيح و ترفرف بأجنحتها السوداء سريعاً و أبي ..

علقت الكلمات في حلق الصبي فلم يستطع أن يكمل و أجهش في البكاء فاحتضنته زرقا بحنان لتطمأنه ثم قالت في لطف و مرح :

- لا تخف على أبيك .. إن له رب يحميه و يحبه .. ما كان ذلك إلا حلم من الشيطان الرجيم ليخيفك ..

ثم سألته بدلال أمومي مرح :

- ماذا كان يقول أبيك إذا أراد أن يتغلب على الشيطان !

فقال الفتى بعدما هدأت أوصاله :

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

فابتسمت زرقا و قالت :

- أحسنت يا شيخي الصغير .. و لكن أخبرني . أرأيت من قبل رجلٌ يبكي ؟

أجابها خضر وهو يمحو اثار البكاء عن عينيه غير مكترث لعتابها :

- أين أبي ؟

فجاوبته و هي تمسح دموعه و تعدل من ثيابه :

- انصت ..

- ماذا ؟

- إنه صوت ربابته .. قم لنصعد سوياً إلى السطح كي نستمع له

همّ الفتى بالنهوض و قال :

- أتمنى أن أكون يوماً كأبي ..

هكذا ردد الصبي في حماس كشف عن تعلقه الشديد بأبيه ، فحملته زرقا و أجلسته فوق الاريكة الخشبيه ثم غابت عن عينيه لحظات معدودة ، وعادت تحمل في يدها كوزاً ممتلء بالماء و منشفه وضعتها فوق كتفها ، ثم بدأت برقة وحنان تغسل وجه صبيها بالماء وما إن انتهت حتى حملته وصعدت به الى سطح دارها حيث كانت تجلس من قبل .

جلست وابنها في هدوء شديد محاولين استراق كل نغمه تصدر عن أوتار ربابة الشيخ نور الدين . و بعد لحظات ليست بالقليلة انقطع صوت النغمات عن أذنهما فأدركت زرقا أن الشيخ قد خلع عباءة المداح و ارتدى وشاح الثائر الذي طالما زرع بداخلها هاجساً و شعوراً بأن عاقبة أمر تلك الخطب الثائرة والجمل الخارجة عن النص خسراناً مبيناً .. فلطالما حذرت زوجها من الخوض في أمور الوالي و تصرفاته ولكن

هيهات لأن ينصت لها يوماً ويتخلى عن ما تربى عليه من مباديء و قيم .. و أين يذهب من نفسه التي تنفر من الظلم وتأبى الخضوع له .

بدأت زرقا تعد لنفسها كوباً آخر من الشاي ،ولمعت عيناها الزرقاوتان ببريق النار الموقدة فاستفاقت في ذاكرتها أحداث تلك الليلة عندما أتاها زوجها حاملاً فوق ظهره من كرم السياط ما أسال الدم ببعضه و نشر اللون الازرق بالباقي كسرطان كافر لا يعرف الرحمة .

تلك الليلة التي بكى زوجها من الالم وبكت هي من بكاءه وتألمه ثم أخذت تعاتبه عتاب المحبين المشفقين :

- يا نور .. لقد أخبرتك مراراً بأنهم لن يتركوك تقلب آراء العامة و الدهماء من الناس عليهم ، و تطالبهم جهاراً بالإمتناع عن تقديم الضرائب المفروضة و العدول عن الامتثال للقوانين .. و لكنك لا تستمع لي أبداً .. و انظر ماذا جنيت !

سكتت قليلا تنتظر رده المعتاد ولكن خاب ظنها ولم يجب في تلك المرة و اكتفى بالنظر إليها بعيون لامعة .

استطردت في لومها بنبرة أكثر حكمة لتقول :

- اعلم أنك تكره الظلم .. لا أحد يحب الظلم ، و لكن ما من عاقل يحارب الظلم وحده . انت تخطب في أناس بات الذل عضواً من أعضاء جسدها .. أناس اعتادت على الإهانة و معاملة الكلاب .

أنت تماماً كالذي يضرب ميتاً بكل قسوة كي ما يفيق ، و هو موقن بأنه لن يفيق . لو كان لأولئك الناس كرامة حقاً .. ما انتظروا خطاباتك الثورية يا زوجي العزيز !

عندها ذرفت عيني الشيخ دموعاً تحمل همّ السماء و الأرض ، فأيقنت زرقا عندئذٍ أنه قد اكتفى من كلامها .

دنت إليه ومسحت دموعه بيديها الدافئة الحانية ، ثم طبعت قبلة حارة على جبينه تحمل من الدفء و العطف ما إن اعطي لأهل الارض لأغرقهم ، ثم مال الشيخ برأسه على كتفها فلحقته بعناق نسي من وراءه سبب الدموع التي ابتل منها ثوبه ، ونام على كتفها الذي أدمنه كطفل عنيد يرفض الفطام...

يقال : من يستطيع أن يعانق من احب لا يحق له ان يتحدث عن سوء الحظ..

أفاقت زرقا من شرودها على صوت تحطم كوب الشاي الذي سقط من بين يديها سهوا وقد أحست بغصة داخل صدرها و أفكار مرعبة سيطرت على عقلها بأن مكروهاً قد وقع لزوجها و بدأت تفاصيل الكابوس الذي رآه الفتى الصغير تراودها ، فأخذت تستعيذ بالله من تلك الهواجس و الظنون التي راودتها وابنها في الوقت ذاته .

سمعت زرقا دوي قرع شديد كاد ان يكسر باب الدار فهرعت تجاهه و دقات قلبها أشبه بطبولٍ جاهلية تنذر بوقوع حرب البسوس مرة اخرى

. و كان الطارق هو الفتى اليافع "عليوة" صبي قهوة مرشدي .. وهي القهوة الأقرب للمسجد من بين مقاهي الحارة ، وهو شاب نحيف وطويل .. خمري اللون قد انتشر النمش على وجهه وله شعر مجعد خشن أقرب إلى صوف الخراف من شعر البشر .

قال عليوة وهو يلهث محاولا التقاط انفاسه :

- ست زرقا .. مولانا الشيخ نور ..

هنا فقط .. انخلع قلب زرقا من ضلوعها و فاضت عيناها بقطرات دموع ممهدة لطوفان ثانٍ ليس له سفينة .

قالت زرقا في هلع شديد و هي تبحث عن مكان نعلها لترتديه :

- تكلم بحق الله .. ماذا به ؟

واحتدت نبرتها وصرخت قائلة ..

- أجبني قد انخلع فؤادي من مكمنه ..

فقال الفتى و قد التقط بعض الأنفاس :

- عم الشيخ بعد ما غنى اليوم و ككل مرة بدأ يخطب في أهل الحارة بثورته المعهودة و حماسه الزائد . لكن لسوء طالعه كان بعضاً من الحضور جواسيساً لعبدون –لعنة الله عليه- .. فأخبروه بما يقول الشيخ . و ما لبث قليلاً إلا وأتى عبدون بنفسه للشيخ ليضربه بالسوط . و همّ الشيخ بالدفاع عن نفسه لكن عبدون و حراسه تكاثروا عليه و ضربوه بنبابيتهم و سياطهم و ..

لم يكمل عليوة كلماته التي هبطت على رأس زرقا كما هبطت حجارة سجيل على رأس جيش أبرهة الحبشي .. فهرعت زرقا في وقتها تجري ناحية المسجد لتغيث زوجها الذي خذله أهل الحارة التعساء التماثيل أو لتموت معه إن لزم الامر.

تركت كل شيء خلفها و جرت .. هرولت .. ركضت بكل ما أوتيت من طاقة . لم تر عيناها غير زوجها فلم تبال بالطرقات المكتظة بروث المواشي أو بالشوارع المتداخلة . قدماها كانتا تهرولان لا إرادياً بسرعة لم ولن تقو عليها مرة اخرى .. فؤادها كاد أن يقفز من صدرها ليرى حبيبه ..

تركت كل شيء .. تركت وراءها الدنيا وما عليها وجرت ..

تركت بيتها و أبوابه مفتوحة على مصراعيها ولم تبال بسرقته ..

تركت صغيرها ، و لم تبال بأين هو ؟! ..

لم تلحظ حتى أنه هو الآخر يهرول خلفها بحثاً عن ابيه ..

لم تبال حتى لشعرها العاري و ثوبها المغري المخصص لعيون زوجها فقط.

مئات الآلاف من الأفكار تضرب رأسها حتى كاد أن ينفجر ، ولكنها لم تبال لتلك الافكار وتلك الخيالات ..

فقط ظلت تجري ..

وما ان وصلت لساحه مسجد الحارة حتى هالها ما رأت من بشاعة و موقف لم تكن تتخيل أن ترى به زوجها و رفيق دربها به يوما ما .

تلك المرة لم تجرِ ... تصلبت قدماها وتخشبت فلم تقو على الحراك ..

اغرورقت عيناها بدموع لم تستطع أن تنتظر اكثر ..
لأول مرة تتمنى لو كانت عمياء ..
ما كان منظر الشيخ نور الدين وهو ملقًى على الارض يتلفظ آخر أنفاسه و الدماء تسح من رأسه فتصنع بركة حمراء سريعة النمو بالهين .
لم تنساق زرقا وراء عناد قدميها فتحاملت حتى ذهبت لزوجها الملقى على الارض . اخترقت صفوف التعساء من أهل الحارة و الجبارين من الحرس ولم تبال حتى لعبدون نفسه ، ثم جلست بجانب زوجها و حملت رأسه بين احضانها و حاولت إيقاف ينبوع الدم المتفجر من مؤخرة رأسه بكفيها ولكن هيهات ..
سمعته يلهث ، يصرخ بصوت لم تسعفه الحبال الصوتيه على اخراجه . أحست بثقل الكلمات الخارجة من فمه فدنت منه مقتربة و دموعها تسبقها منتهكة حرمة الموقف .
اخذ الشيخ يلقن زرقا وصيته الاخيره فقال :
" علميه -أي خضر- و ربيه كي يصبح رجلاً يقول الحق .. ألا يخاف يكون كما الطيور .. ويرفرف بأجنحته لأعلى
تحرم عليكم ارض الظلم حاكمها .. كل ارض الله بلادك
اهربوا .. ولا تعودوا إلا بعد أن يموت مختار "
ثم احال نظره تجاه الصبي و أمسك يده بعنف و قال بصوت أوشك أن ينقطع :

- الصليب .. احذر من الصليب

و ما أكمل الشيخ نور الدين كلمته الأخيره لابنه حتى غابت عيناه في غياهب الظلام و هربت روحه تفر من هذا البدن الذي طالما اشتكى من السياط و لطمات عبدون و الحرس إلى خالقها .. أطلق الشيخ العنان لروحه تهرب و تفر من هذا العالم الدنيء .

"مات الشيخ نور الدين..."

تلك كانت هتافات اهل الحارة المتمسكنين التعساء خائبي الرجاء .

لم تتوقع زرقا أن تخذلها عيناها في تلك اللحظة ولا تبكي . أظهرت جموداً وتجلدا لم تعهده من قبل . لقد تعلمت من الشيخ الكثير وأبداً لم تر منه يئساً أو هلعاً في المصائب .. فلطالما كان صابراً محتسباً لا يشكو همه لغير الله ..

بدأت النساء في العويل و الندب و بدأ صوت الرجال في الارتفاع بنبرة الاحتجاج على مصرع الشيخ و ما فيه من ظلم . و لكن ما ان سمعوا صوت عبدون يصرخ بهم ان اصمتوا حتى لاذ من لاذ منهم بالفرار وتحجر أكثرهم كأنه صنم ينتظر الفأس التي تكسره و تفتته ، و باءوا بالصمت .

بدت على وجه عبدون ابتسامه ساخره و نبح بصوت الظافرين المختالين بأنفسهم موجهاً كلامه لزرقا الرابضه بجوار الشيخ في هدوء تضمه وتضم ابنها قائلاً :

- أفيقي إليّ و استمعي جيداً لأني لا أكرر كلامي مطلقاً .. صباح الغد إذا وُجد لك و لابنك أثر في المملكة سأتعجل لحاقكم بذلك السفيه بنفسي .

هبت زرقا من رقدتها و قالت بصوت باك و خاضع :

- و زوجي المقتول .. من يغسّله و يكفّنه ؟ و جنازته ..

فعاد عبدون ينبح مرة اخرى مقاطعا كلامها :

- لقد تكفّل مختار باشا الوالي -أطال الله عمره- بكل ما يلزم الجنازة من مصاريف و تكلفة . بدءاً من الكفن و ختاماً بالشيخ الذي سيقرأ القرآن .

ثم موجهاً كلامه لأهل الحارة :

- فكما تعلمون جميعاً .. إن له قلب رحيم طيب . يحب مساعدة الناس كافة . حتى من تطاول عليه كهذا الكلب السفيه .

فجأة وبدون أي مقدمات .. أصابت طوبة عابثة رأس عبدون الدموي ذو اللغاديد الضخمة و سرى هاتف من الصبي الصغير يقول لعبدون :

- لا تسب الشيخ أيها الضخم البذيء ..

فتسائل عبدون مندهشاً و يده على رأسه :

- من أنت أيها الفتى الضعيف ؟ و كيف تحدثني بأسلوب كهذا ؟!

قالها عبدون ناسياً أن محدثه طفل بالخامسه من عمره .

فأجابه خضر بلهجة المتفاخر المعتز بنفسه وبأصله :

- انا خضر.. ابن مداح النبي

٣

بعد مرور ٢٠ عام ..

- خير يا دكتور .. ماذا أصاب والدي ؟
- الحق أقول لك يا رؤوف باشا .. مولانا والي البلاد ليس بخير و أعتقد أن أيامه لن تدوم طويلاً ..
- أرجوك يا دكتور .. إفعل أي شيء لعلاجه .. نسافر به للخارج إذا سمح الامر بذلك .
- للاسف .. في الخارج كما في الداخل . لقد فتك السم بجسده و أهلكه تماماً .
- يا لأبي المسكين!
- اسف سيدي .. ولكن ما باليد حيلة
- انا متفهم يا دكتور .. إنها إرادة الله قبل كل شيء
- ونعم بالله
- أرجو أن يظل سر المرض مكتوماً و ألا يعلم به كائناً من كان

- اووه .. بالطبع رؤوف باشا
- انا ممتن لك يا دكتور
- العفو رؤوف باشا .. استأذنك بالانصراف
- بالطبع .. تفضل

دار هذا الحوار بين رؤوف باشا الوالي أو "الكونت" كما يطلق عليه اصدقاءه و بين الطبيب الذي اشرف على حالة والده مختار باشا الوالي الصحيه .

كما هي العادة و كما هي سنة الكون المحفوظة من عهد آدم إلى ان يرث الله الارض .. لا يرحل الظالم إلا و قد شرب من كأس أفعاله المظلمة الظالمة ليكون عبرة لمن يعتبر .

و كان نصيب مختار و قدره أن شرب فنجان قهوة مطعم بجرعة كافية من سم بطيء المفعول فتك بجسده و نحله حتى غدا جلداً مترهلاً على أعظم خاوية .. فتك به السم كما يفتك الضرغام بالغزلان .

****

كان لمختار الوالي زوجتان .. أولهم هي جولنار هانم الوالي ابنة عمه التي تزوجها عن كره نفس و اجبار ، وهي امرأة سليطة اللسان حادة الطباع

مغرورة كالطاووس يتباهى بألوان ريشه الزاهية ، لها كلمة واجبة السمع و الطاعة في عائلة الوالي كلها .. فهي الابنة الوحيدة لعبد الرحيم باشا الوالي شقيق عابد باشا الوالي الاصغر و كبير عائلة الوالي من بعده .
تزوجها و أثمر زواجهما ذلك عن ابنه البكر .. رؤوف .
كانت الحياة بين ثلاثتهم جهنمٌ متجسدة في قصر ضخم مزدان بألوان الترف و الرفاهية كلها . كان قاسي القلب جاف الطباع مع زوجته التي أجبر عليها و اعتبر زواجه جريمة اغتصاب مشروعة . و نال الابن نصيباً وافراً من الجفاء تمثل في السباب و التطاول بالايد و السياط في بعض الاحيان ، فعاش طفولة قاسية و مراهقة صعبة حتى غدا رجلاً كثير السقطات متعدد الاوجه و الشخصيات . فتارة منعزلاً وشديد الإنطواء على نفسه ، و تارة أخرى إجتماعياً تجمعه العديد من العلاقات مع شخصيات متعددة مختلفة .

أما زوجة مختار الثانية .. فهي دعاء عبد العليم . أمرأة من أسرة متوسطة الحال . تعرف عليها مختار أثناء سفره خارج الحارة و أحبها حباً جمّا و افتتن بها .. تزوج منها سراً و انجب منها ابنته المدللة فريدة .
و لما ان علمت جولنار هانم بشأن هذا الزواج السري و لما كان لكلمتها من صدى مسموع في أرجاء العائلة كلها .. قضى عبد الرحيم باشا مختار باشا أن يطلق دعاء زوجته الثانية .. وقد كان .

أما فريدة .. فقد تربت مع أمها بعيداً عن أعين عائلة الوالي . لا يربطها بهم إلا مبلغاً يصلها و أمها كل شهر بالكاد يكفي لتغطية احتياجاتهم و متطلباتهم .

****

- ماذا قال الدكتور ؟
- لم يبق من عمره سوى بضعة أيام .. وربما ساعات
- مبروووك ..
- علام ؟
- أصبحت الوالي بشكل رسمي
- أما كان من طريقة أخرى لموته غير ذلك السم !
- يا لطيبة قلبك . أترأف لحاله بعدما نالنا من قسوته طوال تلك السنوات الماضية .. لقد كرهت حياتي .
- لكنه أبي أولاً و أخيراً .
- و زوجي ، وابن عمي ايضاً . لا لم أنس ، ولكنه نسي .. فليشرب من نفس الكأس إذاً ..

****

- إلعبوا بعيداً يا أولاد .. ألا لعنة الله على أصواتكم المزعجة

صدر ذلك الصوت المتذمر المحتفظ بنعومته عن زرقا رغم بلوغها السنة الخامسة و الاربعين من عمرها .
لم تتغير كثيراً رغم تلك الشعيرات البيضاء المتطفلة على شعرها الغجري الاسمر . عيناها الزرقاوتان مازالتا تنفثان السحر في قلوب المحيطين بها .. ما زالت في أوج جمالها و يفاعتها . لم تستطع الترهلات إبرام اتفاقيات التعاون مع جسدها فلا زالت تحتفظ برشاقتها المعهودة وقوامها الممشوق الى الان . أحمق هو من قال أن جمال المرأة يبرد بعد الاربعين .
ولكن ما جدّ عليها أن قد حرّمت على جسدها الزواج بعد الشيخ نور الدين ، فوهبت حياتها وشبابها لصبيها خضر طوال تلك السنوات العشرون . فكانت له اماً و اختاً و كان لها ابناً و زوجاً و أباً ودنيا اخرى غير دنيانا التي نعيش فيها ..

عادت زرقا بعد تلك الصرخة المتذمرة تستأنف حديثها المكتظ بالنميمة مع "الست ام سامية" جارتها و ناقلة الاخبار اليها و عليها في الوقت ذاته .
و الست ام سامية امرأة سمراء البشرة سيطرت الدهون عليها فتراكم حول خصرها دائرة من الدهن أوشك قطرها ان يكمل المتر . هي امرأة شمطاء

سليطة اللسان لا يسلم من بذاءته إلا ذو حظ عظيم ، تدّعي قراءة الكف و الفنجان ، فلطالما دعتها زرقا لبيتها حتى تقرأ لها فنجانها و تقص عليها من خيالها و خيال المحيطين بها ثم تردد بثقة :

- انظري .. والله ما قلت إلا ما أرى في الفنجان أمامي .

فتبحلق زرقا بعينيها في البن العالق بقاع الفنجان و تجيب ببلاهة مدعية تصديق المرآة :

- نعم .. صدقت ورب الناس

- و لكن ما الذي حدث بعدما أصاب خضر رأس هذا العبدون ؟

ألقت ام سامية ذلك السؤال على زرقا فاستيقظت بعد غفلة تلك الاحداث في ذاكرتها ..

تذكرت .. تذكرت قبضتها الحديدية التي أطبقت بها على فم الصبي حتى لا يلحق بأبيه الملقى على الارض امامه . جذبت صبيها بشدة و أطلقت لقدمها العنان فهربت بعيداً حيث لا تدري إلى أين المضي .. !

نباح الكلاب و عوى الذئاب يملأ الليل رعباً ، و ذلك الصريخ المزعج كنحيب الأموات الصادر عن صرصور الحقل القذر .. ألا لعنة الله على الصراصير كافة .

لم تكن قد انتعلت حذائها فنالت من قدميها الحجارة حتى نزفت يسراها و اكتظت يمناها بالشروخ و الكدمات .

كان الالم غير محتمل ولكن لا وقت لديها للراحة ، فتحاملت و صدرت عنها عرجة خفيفة لا يقطعها سوا تعثرها من حجارة لاخرى .

لم تتوقف قدماها و صبيها عن الحركة حتى استفاق الصباح من غفلته ولاح ضوء الشمس في الأفق البعيد ليمحو ظلمة الليل الكئيب الثقيل .

و اطمأنت أنها قد ابتعدت عن تلك الحارة البائسة .

توقفت لتلطقت انفاسها .. نظرت الى الناس من حولها يتحركون كل في عالمه الخاص . كالنمل في الكثرة و سرعة الحركة و المجيء و الذهاب و كل في فلك يسبحون . و ما نالها منهم سوى نظرات استغراب من نساء يتسائلون أنّى لها أن تخرج الى الشارع بتلك الثياب العارية ، و بعض نظرات كادت أن تخترق صدرها الفاتن البارز من ثيابها ألقاها الرجال بأعينهم و أشياء اخرى ..

لكنها لم تهتم ولم تلق بالاً لأحد ..

جلست على الارض المليئة بمزيج التراب و الروث و أسندت ظهرها الى حائط خارجي مهمل لمسجدٍ خالٍ من الزوار ، و احتضنت صبيها و أحاطته بذراعيها وهي لا تدري إن كانت تحميه أم تحتمي به !

سافرت زرقا بذهنها لعالم اخر .. عالم موازٍ خالٍ من الظلم و البطش و العدوان . ما احقر هذه الدنيا و ما أسخفها .. بل ما احقر المتشبثين بها و المستظلين بفرعها الهزيل الاصفر . ليتهم يدركون أن آدم ما وطئها إلا عقاباً و إذلالاً .

أفاقت زرقا من شرودها على صوت كشف عن عمر صاحبه فإذا بها عجوز قد تخطت السبعين من عمرها تجلس على مقربة منهم بالاتجاه الاخر من الطريق تستدعي الصبي و تناديه . نظر الصبي الى عيني امه ينتظر إذناً منها فأومئت برأسها أن اذهب اليها ، وظلت ترمقهما من مجلسها خوفا على صبيها من العجوز . لم يمض الكثير من الوقت و لم يطل الحديث بين الصبي و المرأة الغريبة حتى قامت اليهم زرقا لترى ما بال تلك المرأة وما شأنها بالصبي .

عجوز تخطت السبعين من عمرها أو يزيد .. لها عين بيضاء لا يعرف ان كانت ترى بها ام لا . تحمل بين يديها قفة مغطاة بخرقة بالية لم تكشف عما بداخل تلك القفه . لها ضفيرة فضية متدلية الى ركبتيها و تحمل وشماً في أسفل ذقنها دلّ على اصولها البدوية .

سألت زرقا العجوز و هي تحيط صبيها بذراعيها من الخلف :

- من أنت ؟

فأجابت العجوز بصوت متحشرج :

- انتِ أمه ؟
- نعم
- اسمعيني يا ابنتي .. كلمتان لا ثالث لهما . أمسكي بيد صبيك جيداً و اهربي .. اهربي لأبعد مكان . إلا أن تختفي عن أعينه .
- من ؟

- الظالم .. من ظلمك و ابنك ، و ظلم زوجك قبلكما .

نظرت زرقا الى ابنها في غضب وصرخت تعاتبه :

- ألم أحذرك من التحدث إلى الغرباء .

قالتها ناسة أنها هي من سمحت له بالذهاب للعجوز . جذبته من يده بعنف وهمّت بالرحيل لكن العجوز قبضت على يد الصبي و نظرت اليه بعينها المحتفظة بسوادها و كأنما تتأمله بوجه تقلبت ملامحه بين الإشفاق و الحزن و الخوف ، ثم قالت :

- عيني عليك يا ولدي .. ستعيش غريباً وتموت غريبا . ابتعد عن الناس و أعينهم الفضولية الواسعة .. لك في البراح خلوة و طبيعتك تتوحش الحياة مع البشر . احذر أن تسلك درب ابيك فتكون عاقبة أمرك مثله . لم يُسق يا ولدي إلا من احنى ظهره .. فاحذر ان تخضع لأحد بالقول أو بالفعل . إبتعد و اهجر الناس في وقت حاجتهم قبل أن يهجروك انت في وقت حاجتك . واحذر من الصليب... الصليب يا ولدي .

لم تنتظر زرقا لسماع المزيد فجذبت صبيها و رحلت مسرعة و هي تنظر في حيرة من أمر تلك العجوز .. من أدراها بما جرى لزوجها !

أنكر الصبي تلك الاتهامات الموجهة اليه و أقسم و هو يكاد يبكي أنه لم يحدثها عن ما جرى للشيخ وأنه لم يتفوه بكلمة ولم يخض في الحديث عن ذلك .. و لم تعهد زرقا على صبيها الكذب ابداً .

إذن من أدرى تلك العجوز البدوية بنهاية الشيخ المتعسة ؟ ولماذا أمرت صبيها بالابتعاد عن الناس ؟ وما سر ذلك الصليب الذي سبق و حذر الشيخ ابنه في آخر لحظات عمره منه ؟!

اصطدمت زرقا اثناء سيرها بامرأةٍ تقاربها في العمر أخرجتها من شرودها و بعثرت تلك الاسئلة في ذهنها .

اعتذرت زرقا للمرأة و دنت الى الارض تلملم ما سقط من تلك المراة من أثر الاصطدام ثم حين نظرت اليها قرأت على وجهها علامات الحيرة و الاستغراب وما لبثت تلك المرأة أن قالت :

- انت زرقا !

فخفضت زرقا رأسها تجاه الارض خوفاً أن تشي بها المرأة لدى عبدون أو أحد جنوده . فاستطردت قائلة :

- ألا تذكرينني ؟؟

أجابت زرقا في ذهول وحيرة بعدما خطفت نظرة إليها بترقب شديد :

- اعذريني لم ألحظ شيئاً .. من أنتِ ؟
- انا فاطمة .. فاطمة ابنة خالتك رتيبه . الا تذكرينني . أقسم أني تذكرتك من تلكما العينان الزرقاوتان الجميلتان .

اطمأن قلب زرقا و تنفست الصعداء .. ولسان حالها ينطق :

- و أخيراً هناك من آمن له في هذا العالم ..

اصطحبت فاطمة زرقا و خضر إلى منزلها في ترحيب حار و كأن الله قد أرسلها لهم لنجدتهم من الكرب و الحزن و إعانتهم على مصيبتهم .
جلست زرقا على أريكة المنزل و أجلست خضر بجوارها بعد أن قامت باحتواء الصبي و طوقت ذراعها حول ظهره في إصرار منها على عدم فقدانه . وكأنها لم تعد تأمن لأحد . وكأن العالم كله يتربص بها وصبيها فما عادت تجد من يحميها .

منزل كبير و واسع بطابقين على العكس من منازل حارة العطشانين التي اكتفت بطابق أرضي فقط .. جدرانه طينية و أرضه امتلأت بحصير بلدي له من الالوان الكثير ، له سلم طيني غير آمن يصل بين الطابقين

ثوان قليلة وعادت فاطمة تحمل في يدها شيئا من ملابسها ثم نظرت الى زرقا و قالت :

- أختاه .. خذي تلك الملابس و اغتسلي و تأقلمي مع جو المكان ، و لنا بعد ذلك جلسة تخبريني فيها بما حدث . و أنّى للشيخ نور الدين أن يتركك و صبيك على تلك الحالة المرثية ؟

جذبت زرقا الملابس من يد فاطمة وقد اغرورقت عيناها بالدموع بعد أن سمعت اسم حبيبها الشيخ نور الدين و ما حدث له من خاتمة مؤسفة تمر احداثها أمام عينيها ببطء رتيب .

****

- يا الله .. ألا زالت الأرض تأوي تلك الطائفة من الناس ! أعانك الله يا أختي و صبّرك .. ألف رحمة على الشيخ نور الدين .

كان هذا تعليق فاطمة بعدما سمعت من زرقا كيف قُتل الشيخ و كيف طُردت و خضر من الحارة ثم تسائلت زرقا بفضول يخلو من الحماس و بوجه فقد بشاشته و ابتسامته النضرة عن تلك العجوز الجالسه امام المسجد فقالت فاطمة :

- إنها إمرأة مجنونة يقال لها زليخة .. أشهر من قرأ الكف و الفنجان وأصدق من أخبر بالطالع في حارتنا . و تدرجت من التنجيم إلى السحر درجة تلو الاخرى و العياذ بالله .. و على ما يبدو أنه فقدت السيطرة على تلك المخلوقات -بسم الله الرحمن الرحيم- فتلاعبوا بها كما يتلاعب الصبيان بالكرة غدا حالها كما رأيتِ . دعك من ترهات تلك العجوز ذات العقل الخرب .. عن أي

صليب تهذي ، لقد ولّى عهد الصلبان و انتهى .. ما رأيك بمساعدتي في إعداد الطعام قبل مجيء سي رشاد ؟؟

تسائلت زرقا بفضول :

- متى يجيء ؟
- يخرج كل يوم بعد صلاة الظهر إلى عطارته ، فيمكث فيها حتى ينادي المغرب بالصلاة . فيصلي ويجيء ليتناول غداءه ثم يعود مجدداً للعطارة و لا يرجع إلى في جوف الليل و كل يوم على ذلك الحال ..

قامت زرقا بهمة مصطنعة و ذهن شارد مع فاطمة و رأسها مكتظ بالتساؤلات و الأفكار . فتارة تفكر بـ"زليخة المجنونة" و تارة بالصليب الغامض و السر المخفي وراءه ، و تارة تتذكر زوجها و تارة اخرى تفكر في خضر و مصيره المجهول المعتم .

مر الوقت بسرعه و إذا بصوت الاذان يملأ اصداء الحارة داعياً الناس أن هلموا الى صلاة المغرب .

وما انقضى وقت الصلاة إلا و رشاد العطار يدخل الدار كعادته في هذا التوقيت كل يوم . ارتسمت على وجهه علامات التعجب عندما رأى امرأته مع المرأة الغريبة والصبي الصغير فقام بإلقاء التحية بابتسامة صفراء كاذبة و اشار الى امرأته بطرف عينيه لتلحق به للطابق العلوي .

- يا مثبت العقل في الراس .. و هل أقوى على مصاريفكِ كي أصرف على تلك الغريبة بصبيها !
- يا سي رشاد فقط يومان .. يومان تهدأ فيهما أوصالها و تستعيد عقلها وتفكيرها لتدبر حالها بعد ذلك .. إنها وحيدة وما لها غيري من يأويها و صبيها .
- لها الله ..
- و نحن أسبابه
- لن أتحمل عواقب قدرها الأحمق

فأومأت إليه بدلال و تعمدت أن تلامسه بجسدها لإغواءه كطفل صغير وقالت و هي تتلاعب بخصلات شعر صدره النافرة من جلبابه :

- و هل ستكسر بخاطري ؟

أشاح الرجل السمين ذو الشوارب الضخمة بناظره بعيداً عن فتحة صدرها التي أوقدت لهيبه المنطفيء و قال بنبرة طفولية :

- لقد وعدتني بليلة عاصفة نقضيها سويا في الفراش .. و أنا أعمل طوال الإسبوع على وصفة جبارة من الاعشاب لتريني نفر من ملوك الجان . و في آخر الأمر أجد تلكما المصيبتان في انتظاري !

صدرت عنها ضحكة خليعة و هي تنظر إلي عيني الرجل و هما تلمعان كالأطفال ثم قالت و هي تلتصق به اكثر و تنطق بالكلمات ببطء و تلذذ اكثر :

- إذاً أسرع بحل تلك المشكلة ..

ثم و هي تتحسس صدرها بإغراء أمامه :

- لتنعم بالليلة العاصفة ..

فقال و هو يبتلع لعابه و عيناه ترقبان حركاتها :

- ليلة واحدة !

ضحكت بخلاعة للمرة الثانية ثم قالت و هي تتلاعب بحاجبيها :

- ليلة و شهر و سنة .. و عمراً كاملاً

تهللت أسارير الرجل و نطق الدم في وجنتيه ، ثم اعتدل في جلسته و قال متأملاً :

- حل .. و أي حل هذا الذي يصلح لتلك المشكلة !

- تصرف يا رجل

- لقد هربا من مختار الوالي بجلالة قدره . أوتدرين شيئاً .. ذاك الأحمق الزنديق المسمى سميح الديب ما يلبث أن ينقلب فرخاً صغيراً بجوار مختار الوالي . إن له سلطان عظيم و يد كأذرع الأخطبوط تمتد في كل مكان . و لا استبعد أن تكون له أعين في حارتنا تلك هي الأخرى فما ذلك عليه ببعيد .

- رحماك يا الله

سكتت فاطمة لوهلة ثم استطردت في حماس :

- ألست صديقاً لشيخ الجامع ؟

- بلى ..
- إذاً إذهب إليه في صلاة العشاء و خذ منه من أموال المسجد المتروكة للمحتاجين .. و نزيد بعضاً من مالنا و نعطي كل المال لزرقا فتدبر حالها بنفسها و نكسب بها ثواباً ، و كفى الله بالمؤمنين قتالا ..
- فكرة طيبة .. لكنك قلتِ أن ليس لها مأوى سواكي .. إذاً فأين ستمضي بتلك الأموال ؟
- لقد دار عقلي من شدة التفكير

فقال الرجل مداعباً زوجته :

- أأتزوج منها فأكون لها سنداً و عوناً .. و نكسب ثواباً أيضاً

فحدجته المرأة بنظرة ثاقبه ، و قالت و هي توشك أن تنقض عليه لتفتك به :

- رشاااااد ..
- هدئي من روعك فأنا أمزح ..
- ..
- إذاً اسمعي ..
- قل

- إن لي بعض من أقربائي بحارة الروض .. يمتلكون بيتاً صغيراً أرادوا التخلص منه و بيعه لضائقة مالية حلت بهم . ما رأيك أن نساعدها في تأجيره و لتشتريه بنفسها بعد ذلك !
- لكن حارة الروض بعيدة جداً
- عز الطلب
- كيف ؟
- لأنها أبعد ما يكون عن حارة العطشانين و أعين مختار و حراسه فتكون في مأمن هناك ..
- عين العقل .

وهكذا .. انتقلت زرقا و خضر من حارة العطشانين الى حارة الروض لتكون مخبأً آمنا لها وصبيها من عيون الوالي وحراسه .

كان البيت الجديد خشبياً ذو طابق ارضي فقط ، يحوي بداخله سلم ملتف بشكل حلزوني يصل الى السطح ، لا يختلف كثيراً عن بيت حارة العطشانين إذ هو الاخر يقع في إحدى طرفي القرية بالقرب من مجرى النهر ..كل ما جدّ في الأمر أن تغير اسم الحارة وسكانها و ان ليس لهذا البيت رب يحميه ..

انقلب وضع زرقا في حياتها الجديدة فبعد ان كانت سيدة القصر المدللة أصبحت هي من تسعى بحثاً عن الرزق في كل مكان .. فأوقات تعمل

مع الفلاحين في الاراضي و أوقات تصطاد الاسماك من النهر و أوقات تستغل موهبتها في حياكة الملابس بعد ان كانت تصنع الملابس لحبيبها المداح فقط ..

و ما إن شبّ خضر و بلغ الثانية عشر من عمره حتى أصبح هو رب البيت و مصدر رزقه الجديد فعمل صياداً و مزارعاً و نجاراً و راعياً و نخاساً و دلالاً و حداداً حتى اخشوشنت يداه في سن نعومتها .. ثم عمل بالسقاية و اتخذها مهنة له حتى بلغ عامه الخامس و العشرون .

****

افاقت زرقا من دوامة الذكريات تلك على صوت ام سامية تلملم عباءتها اللف وهي تستأذن قائلة :

- ارحل انا الآن يا اختِ زرقا .. فأنا أسمع صوت خضر قادم ولا بد أنه متعب يريد الراحة .

تهلل وجه زرقا فرحاً بعودة ابنها خضر ثم أومئت برأسها لأم ساميه في إشارة لها بالرحيل . توجهت كلتا المرأتان ناحيه الباب وما إن فتحت زرقا الباب وهي تودع ام ساميه إذا بخضر واقف على العتبة أمامهم يهمّ بالطرق

.. فاحمر وجه ام ساميه من وجودها امام خضر -وهي تعلم انه يبغضها- ثم لفلفت عباءتها حول خصرها و انطلقت من فورها .

دخل ذلك الشاب النحيف في الجلباب الواسع المتسخ ذو اللحية السمراء المائلة للون البني و الوجه الشاحب من التعب و الارهاق من شدة العمل وهو يمسح العرق المتدلي من جبينه ، ثم جلس على الاريكة و قد اعتلت علامات الضجر وجهه و خاطب امه في لوم و عتاب قائلاً :

- ألم أنهك عن الجلوس مع تلك المرأة مراراً يا أماه !

ناولته قلة بها بعض من الماء البارد الممزوج بالماورد ليهون عليه حر الشمس و حموتها الكالحة ثم ثالت مبتسمة :

- لا تؤاخذني يا بني فقد أتت على حين غفلة و لاطبع لن أطردها

فقال و هو ينظر إليها بعتاب مرح خفيف مدلل :

- طيب يا ست زرقا .. و لكن إن أتت مجدداً لا تدخليها
- و ماذا أقول لها ..
- قولي لها خضر في الدار و سترحل من فورها
- اني اتسائل عن سر هذا البغض و الكره ..
- ليس كرهاً لا سمح الله .. و لكن تأفف من تصرفات عجزنا سوياً عن إقناعها بالعدول عنها دون جدوى

فقال زرقا وهي تضحك :

- معك حق .. إناه امرأة سليطة اللسان ، و ما سلم من لسانها نفر في تلك الحارة .
- و كذلك الحال معك .. فكما تحكِ لكِ تحكِ عليك . إني متعجب جداً .. أنّى لزرقا زوجة الشيخ نور الدين مداح النبي بجلالة قدره أن تحادث نمامة .. رحمك الله يا شيخنا

فقال زرقا و هي تبتسم ابتسامة نابعة من القلب :

- رحمه الله . طالما أقسمت بالغالي فلن تبرح تلك المرأة عتبة الدار بعد اليوم .

فنظر إليها خضر و قال و هو يتصنع دلالاً :

- هو فقط الغالي .. أليس كذلك ؟

فابتسمت زرقا و قالت :

- غالٍ من صلب غالٍ ..

ابتسم خضر و ارتمى في حضن امه يعانقها بعد يوم عمل شاق فطوقته بذراعيها دون أن تكترث للعرق المتصبب من كل تفصيلة فيه .. لطالما عشق خضر هذا الكتف الدافيء كما عشقه ابوه من قبله ، وكما يقال .. لكم في العناق حياة ..

قامت زرقا لتعد لصبيها طعاماً يقيم صلبه و بنانه ، فكم يلقى خضر من التعب و الارهاق من وراء مهنة السقا تلك.

و السقا هي مهنة لا تقل أهمية عن الزراعة و الحراسة في و غيرها بل تكاد تكون على قدر اكبر من الاهمية في ذاك الزمان .. و ذلك في ظل انعدام وجود شبكات لضخ المياه بالمنازل فكان السقا هو المصدر الوحيد للمياه بمنازل الحارة .

و هو رجل يحمل على ظهره و كتفه قربة مصنوعة من جلد الماعز المشدود لها فوهة وحيدة تسد بالخشب . يوضع داخل تلك القربة الماء و البعض من السقائين يقوم باضافة الماورد او النعناع و غير ذلك .

يقوم السقا بحمل القربة ثم يسعى في الحارة جيئة و رواحا بحثاً عن مريدي المياه و طالبوها . ويقوم السقا بتوزيع حصة محددة من قبل الوالي من المياه على كل بيت في الحارة مجاناً بشكل يومي ، فمن زادت حاجته عن القدر المحدد فلا طريق أمامه سوى الشراء . و لأن السقا مهنة ضرورية في العصور السابقه فإنها كانت تحت رعاية و امارة الوالي بشكل مباشر في كل حارة ، و غير مسموح لأي شخص بأن يمتهن السقاية . فهناك تراخيص يحصل عليها قبل مباشرة العمل و معايير يجب توافرها بالسقا كأن يقوى على السير طوال اليوم حاملاً القربة في كافة الأوقات و كافة الظروف . كما أن السقا كان يستخدم المياه أيضاً في إطفاء الحرائق ، و لذلك فعليه أن يكون مترقباً و مستعداً اذا ما تم استدعائه في اي وقت من اليوم .

و من مميزات تلك المهنة ما يحصل عليه السقا من كرم الناس بجانب الراتب الشهري الثابت من قبل بيت مال الوالي . فتارة يعطى بقشيشاً و تارة كسوة .. و شهر رمضان هو نعم المواسم لدى السقائين ، فمقابل الماء ينفح كل بيت من موائده الشهية الدسمة نفحة للسقائين يطيب بها خاطرهم و تسعد بها أنفسهم .

كان خضر مساعداً لعم عطية السقا .. فكلاهما يحمل قربة خلف ظهره و يدوران سويا في ضواحي و جوانب حارة الروض ، و كان من أثر تلك المهنة على خضر أن عرفه أهل الحارة جميعاً صغاراً و كبارا .

و لطالما أحبوه دون غيره من السقائين وهم كثير و ذلك لسماحة اخلاقه و وجهه البشوش الطفولي و صمته المعتاد الغامض .

مرت به السنوات بإيقاع رتيب ممل وقد نزعت منه أهم صفات الانسانية فكان لا يأنس للناس و لا يحبذ الإختلاط بهم . فخضر هو ذلك الشخص الصامت لا تعلم لصمته سبب ، وإن تكلم كشّفت كلماته عن عقل فطن و قلب منير صافٍ لا يشوبه شائبه ولا يعكر صفوه شيء و بالكاد تستنتج ذلك من صوته الطفولي الحنون .

يتجنب الحديث مع الناس و الاختلاط بهم رهبة منهم ، فلطالما اعتاد الجلوس على ضفة النهر في وقت فراغه و أحيانا يطلق العنان لقدمه الى حيث شاءت و هو خلفها هائم في ملكوت آخر .

عشق الموالد و أدمن الاستماع إلى المداحين ، فلا يقو أحد مهما بلغ من سلطان على منع خضر من الاستماع للمداحين و حضور حلقات الذكر في المساجد الكبرى و الموالد أياً كان صاحب المولد .. و لصوت الربابة في نفسه أثر لا تبلغه الف بوظا مسكرة ، فالربابة تذكره أابيه الشيخ و جلساته الغنائية في مدح رسول الله .

غدا خضر إنطوائي بعض الشيء منذ ذلك اليوم الذي كان يلعب فيه مع صبيان حارة الروض في مياه النهر وهو في سن السابعة من عمره ، فيسبحون و يمرحون و يتسابقون أيهم يصل الى بعد أعمق و أيهم يمكث لأطول وقت تحت الماء كنوع من تحديات طفولية مرحة . و خضر كغيره من الصبيان يشترك معهم و يلعب و يتحدى فهو ذو نفس عزيزه كأبيه تعشق التحدي و ترفض الاستسلام و الهزيمة .
استجمع الفتى بفمه نفساً عميقاً ثم ألقى بجسده لتبتلعه المياه الى حيث لا يدري..
خرج الصبيان جميعهم من المياه .. و تبقى خضر .. أعلنوا خضر الفائز في المسابقه ، لكنه لا زال في اعماق النهر لم يصعد ليحتفل بنصره .
هنا لعبت الوساوس في صدور الصبية ، فهاجوا و عاثوا يصرخون في ضجر و فزع شديدين .. "خضر غرق .. خضر غرق" .

و ما لبثوا قليلاً حتى هرع كل من سمع النداء من اهل الحارة الى النهر بحثاً عن الصبي الغريق .. و لم يمض من الوقت الكثير حتى خرج أحدهم و هو يحمل خضر على يديه فاقداً للوعي و قد فاتته لحظة الانتصار فلم يشعر بنشوة الفوز و لذته .. ولم يشعر كذلك بهلع زرقا و انخلاع فؤادها من مكمنه خوفاً عليه و هي متجمدة في مكانها ترقب الموقف من الشاطيء كمن يترقب قدوم الموت .

أفاق الفتى الشجاع و استفرغ كمية لا بئس بها من الماء مما ابتلعه اثناء رحلته مع الغرق . سألته زرقا بعد أن تنفست الصعداء عما حدث له فكان جواب خضر لا يخطر على قلب بشر ..

****

خضر ..

"ذلك اليوم ..

أحسست بتلك اليد الخفية تقبض على عنقي .. تسحبني .. تجرجرني الى أعماق النهر . لم أستطع أن أقاومها فلا حول لي بها ولا قوة ، ثم فجأة بدأ كل شيء يختفي في الظلام .. ما عدت أسمع ضحكات الصبيان و صياحهم ، وما عدت أرى فقاقيع المياه تنجذب لوجهي بخطوات بائسة لتنفجر في استسلام .. فجأة ساد الظلام و فقط .. اختفى كل شيء .

بدءت أشعر وقتها ببعض البرودة تحتويني من رأسي حتى قدميّ ، و لمع في الأفق البعيد ضوء خافت ما لبث نوره أن ازداد شيئاً فشيئاً . حقاً لا أعلم من منا يقترب للاخر . لم أكن أشعر بحواسي .. اختفت المياه تماماً .

إحتد النور في الأفق و أزعجني فأغمضت عينيّ لأستجمع نظري ، ثم فتحتهما رويداً رويداً لأجد نفسي في أرض خضراء واسعه تمتد حتى ينتهي البصر . تمتلأ بالبراعم و الشجيرات الصغيرة . نظرت عن يميني فإذا في نهاية مرمى البصر جبال تحجب قرص الشمس خلفها لتترك شفقاً اختلط به اللونين الاحمر و البرتقالي مع زرقة السماء ، ثم التفت عن يساري فإذا بقطيع كبير يحوي عشرات من الأرانب البيضاء الأليفه تجري و تلهو في أمان .. في عالم يبدو أن الانسان لم يطأه بعد ..
اجتاحت أنفي رائحة مألوفة لطالما عشقتها حد الادمان ، و يد حانية تمسك بي من كتفي .. فإذا به أبي .. الشيخ نور الدين مداح النبي .
يرتدي جلباباً بيضاء اللون تميل للزرقة واسعة حريرية الملمس ، و عمة ملتفة حول رأسه من الإستبرق الاخضر الداكن كلون ورقات الشجر في موسم الربيع ، و كان يحمل في يده اليسرى ربابته التي لطالما امتزجت نغماتها بصوته لتعطي مزيجاً صوفياً خالصاً يطوف بروح المستمع الى عوالم أخرى بعيداً عن زحام الحياة و ضيقها .

تسمرت مكاني عاجزاً عن النطق أو الإتيان باي حركة من وقع الصدمة أو من شدة الفرح .
آلاف الاسئلة تدور برأسي ولم أنطق بأي منها . فقط .. أمسكت بيده بلطف وقبلتها . وضعتها على فمي وأنفي لانعم باستنشاق ذلك العطر الأبوي الفريد الذي لطالما تمنيت استنشاق رحيقه في كل يوم .. و في كل لحظة ..
ثم ما ان هممت بأن أعانقه حتى قبضت على عنقي تلك اليد الخفية مرة أخرى .. في تلك المرة حاولت أن أقاوم ولكن لم أستطع . حاولت أن أصرخ ولم تسعفني أحبالي الصوتية التعسة . جل ما قدرت عليه هو أن مددت يدي لأبي .. لكنه أبى أن يلتقطها !
بدأت تلك اليد الخفية تسحبني بعيداً عن أبي و هو واقف يرقبني و يبتسم ، ثم أشاح بنظره نحو اللاشيء ثم بدأ بالعزف على اوتار الربابة التي كانت في يسراه و بدأ في المديح كما كان ينشد وهو في عالمنا .

يا طراز الكون اني عاشق مستهام

مغرم و المدح فني يا بدر التمام

بدأ صوته ينخفض تدريجياً كلما ازداد البعد بيني وبينه مع ازدياد سحب تلك اليد الملعونة لي ، ثم إذا بأبي يتوقف عن المديح فجأة و يلقي بالربابة على الارض ، ثم نظر لي بحدة و اخشنّ صوته و هو يهتف لي بقوة :

الصليب ... احذر من الصليب يا ولدي .

حاولت أن اسأله عن سر ذلك الصليب و لكن ..

اختفى أبي و اختفت البراعم و الشجيرات و الارانب اللطاف و قرص الشمس الخجول المتوارى خلف الجبال ، و عادت الظلمة مرة اخرى و عادت تلك البرودة تحتويني من جديد .

أحسست بفقاقيع المياه تصطدم بوجهي و يد لم تكن خفية تحيط بي و تخرجني من النهر .

كيف ذهبت الى أبي .. لا أدري ، و كيف عدت .. أيضاً لا أدري !

حقيقة لم أبالي لتلك الاسئلة .. فمرحباً بلقاء أبي بأي طريقة كانت و أي عالم كان .

سلام لأولئك لذين أعشق رائحتهم .. سلام للذين تآلفت قلوبنا برباط المحبة المقدس .. سلام لك يا من هجرت الكون ولم يهجر عطرك أنفي، وسلام لتلك الارض المخضرّة بالسلام و الطمأنينة ، وسلام لأرضنا .. التي خلقت من أجل السلام .. علها ترى يوماً سلام ."

****

رواية كتلك التي رواها خضر لزرقا و رفاقه الصبيان فيما بعد كانت كفيلة بأن تصيبه بوابل من السخرية و اتهامات عدة بالجنون و أخرى بالمس أو السحر ، وإن كان الجنون حقيقة هو العقل بعينه في بعض الاحيان..

أصبح خضر بعدها حديث الساعة في الحارة و محطّ أنظار و همسات الجميع ، فشعر بالنفور من الناس و لجأ إلى النهر خليلاً صامتاً و مستمعاً آمناً . فيجلس على الشاطيء الأخضر ذو البراعم و الزهور و يستلقي على ظهره متوسداً كفيه و شاخصاً ببصره نحو المجهول .. يتغنى بأناشيد قد تغنى بها أبيه من قبل . حتى إذا اندمج في الغناء و سيطرت عليه عاطفة الحنين إلى أبيه تجرد من ثيابه و ألقى بثقله في النهر في محاولات بائسه لموعد جديد و لقاء ولو لدقائق ..

لم يكن له في هذا العالم غير زرقا .. لم تكن أمه وحسب بل كانت له عالم آخر و مأوى آمن و حصن منيع يلجأ اليه إذا اشتدت عليه رياح الحياة العابثة و همومها الطاحنة المتثاقلة يوماً بعد يوم .

القى بجبال همومه و مشاعره في قلب أمه فاحتوته على عكس العالم أجمع.

كان وحيداً .. غريباً في بلاد الله . حتى أن قلبه لم يذق الحب يوماً ..

ملعونة هي الدنيا ..

و ملعون كل من تعلق فؤاده بها .. و ما كانت لعنتها إلا الحب .

٣

- هيّا لتتناول الطعام يا خضر ..

نادته زرقا و هي تضع أطباق الطعام الدسمة على الطبلية المستديرة في وسط الغرفه . كان خضر وقتها يشرب من القلة الفخارية الموضوعه على جانب النافذة .

جلس خضر مع أمه يتناولان الطعام سوياً ، ثم بادرت زرقا بالكلام فقالت :

- ما رأيك في حنان ؟
- من حنان ؟
- تلك الفتاة اليافعة التي تسكن بجوار بيت الغفير
- اهاا .. تذكرتها .. ما بالها ؟
- أرأيت كيف شبّت جميلة و ناضجة .. و صالحة للزواج من ابن الحلال الذي يرعاها و يسعدها .

قال خضر مازحاً :

- نعم نعم .. سوف أدعو الله لها

فقالت زرقا و قد انقلبت ملامحها للتعجب :

- يا بني إنها تحبك .. ألم تلحظ ذلك مطلقاً

فأجاب و هم يلتهم الطعام :

- الحق تريدين ؟

فأومأت برأسها :

- بالطبع ..

فقال ضاحكاً :

- لا .. لم ألحظ شيء

نالته ضربة مازحة منها على كتفه و هي تضحك و استغرقا في الضحك للحظات قطعها خضر بسؤاله :

- متى نعود إلى الحارة ؟

تغيرت ملامح زرقا و زالت ابتسامتها و أوقفت اللقمة المتجهة لفمها ثم تسائلت مدّعية جهلاً زائفاً :

- عن أي حارة تتحدث !

- العطشانين .. حارة العطشانين .. حارتنا

فقالت في محاولة منها لتغيير مجرى الحوار و مضمونه :

- أنا أدعو الله أن تكون حنان من نصيبك في المستقبل . فأنت إن تتزوج تستقر و هي فتاة مهذبة و ..

فقاطعها خضر قائلاً :

- أماه .. لا تهربي من الموضوع . متى نرجع لديارنا ؟

فقالت بنبرة خاضعه و ملامح خاشية :

- لماذا تريد أن تعود لتلك الأرض المتعسة .. لقد أخرجنا الله منها سالمين .. و لإن عدنا فإنّا ظالمون .
- إنها موطني . و موطن أبي من قبلي . أريد أن أعاشر من عاشروه
- تقصد من خانوه ..
- لا تظلمي الناس يا أمي ، فلكلٍ عذره .
- و ما أعذارهم ؟
- خاافوا على أعمارهم و أولادهم كما خفتِ أنتِ عليّ و هربتي بي ..
- أليس بمزحة أنك انت من تتكلم عن الناس !
- الحق أحق أن يقال يا أمي ..
- يا ولدي لقد أوصاني أبيك أن نبتعد..

فقال مقاطعاً إياها :

- إلى أن يموت مختار .. وقد مات

ارتسمت على وجهها علامات الدهشة الممزوج ببعض البشاشة :

- حقاً ؟!
- الحق أقول لك .. لقد مات منذ بضعة أيام .
- و من يحكم الآن ؟
- ابنه رؤوف باشا الوالي
- أرأيت .. غصن آخر من تلك الشجرة الملعونة .
- لكنّ الناس في الحارة يقولون أنه على العكس من أبيه و جده ..

- و كيف عرفت !
- اتذكرين الشيخ عثمان ؟
- بالطبع . رفيق أبيك و خليله . شيخ صالح و صادق القول و الفعل كاره للظلم و الظالمين .. ما به ؟
- تصادف وجوده اليوم بالمسجد لإلقاء درس علم كعادته . تقابلنا و تحادثنا سوياً عن الحارة و أوضاعها .
- و بعد ذلك ..
- اتفقت و إياه على استئجار بيت في الحارة بشكل مؤقت إلى أن يغنينا الله من فضله و نبتاع واحداً .

تضجرت زرقا و تأففت ثم قالت :

- هكذا .. دون علمي او أخذ رأيي !

فقال الفتى مدللاً إياها :

- و هل من المعقول أن تعدل زرقا الزوجة المخلصة عن الامتثال لوصية زوجها الشيخ نور الدين !

فقالت له بيئس :

- أرجوك يا خضر .. إني خائفة

فقال مطمئناً إياها :

- لا تخافي يا أمي .. فلو اجتمعت الأمة على أن يضروني بشيء

فأكملت زرقا معه بيئس :

- لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ..
- رفعت الأقلام و جفت الصحف . كما قال النبي الكريم
- صلى الله عليه و سلم .. طيب . إفعل ما يطيب لك

و هكذا اتخذ خضر قراراً بالعودة الى حارة العطشانين بعد غياب دام لعشرين عاام . لا يعلم مصيره أو ما سيواجهه هنالك .
حتى هو نفسه لا يعلم سبباً لتلك الرغبة الملحة بالعودة للحارة .
نعم قد مات مختار الوالي ، لكن اهل الحارة لم يموتوا بعد . من كان مصرع أبيه على مرأى و مسمع منهم لم يموتوا بعد ..
أيضمر نية الثأر منهم لخذلانهم لأبيه و امتناعهم عن تقديم يد العون له في وقت كان في أمس الحاجة لتلك اليد ؟ أم أنه أراد أن يعلم أكثر عن أبيه و شخصيته و حياته التي لا يتذكر منها سوى ليلة واحدة فقط ؟ ليلة مشئومة ملعونة لم يقو الزمن على محوها من ذاكرته و لن يفعل ..

إنه فقط عاشقاً لأبيه حد الجنون ، فلطالما ارتدى جلبابه و عمّته و تناول الربابة ثم هام بالالحان و الاشعار في عالم اعتاد ابيه على زيارته حتى ما لبث أن مكث فيه الى قيام الساعه ..

****

في نفس اليوم .. في حارة العطشانين

أقيمت مراسم العزاء بحارة العطشانين لتوديع الظالم الى داره الآخره ، و اتى الخائفون و المنافقون و المنتهزون من كل فج عميق لتأدية واجب العزاء لأسرة الوالي و ليشهدوا منافع لهم .

كان أبرز الحاضرين هو اللورد كارل المتعهد الانجليزي و المسؤول عن اختيار منصب والي الحارة ، فهو من زكّى مختار الوالي للقيام بمهام والي الحارة بعد عابد باشا و كان من أشد الناس قرابة صداقة له .. قامت بدعوته للعزاء جولنار هانم لضمان تزكيته لرؤوف الوالي ليكون ايضاً والياً للحارة خلفاً لأبيه .

حضر العزاء كثيرون من أصدقاء مختار الوالي ليس فقط لتقديم العزاء و لكن للحصول على صداقة الوالي الجديد رؤوف باشا الوالي ، كما حضره أيضاً اهل الحارة جميعهم و قد بدت على وجوههم آثار حزن زائف عجز عن إخفاء حفلات الافراح المقامة بصدورهم فرحاً على هلاك الطاغية ذو الناب اليابس و المخلب الطويل . لم تخل صدورهم أيضاً من ريب بشأن الوالي الجديد .. أصالح هو على عكس أبيه و جده من قبله أم منهجه كمنهجهم و مسيرته كسيرتهم !

تفاجأ الحضور أجمعهم بمقدم فريدة الوالي لحضور مراسم العزاء .. و هو ما أشعل نيران الغضب بصدر جولنار هانم خصوصاً بعدما علمت أن من دعاها و جلبها هو رؤوف الوالي شخصياً .

- ما الذي أتى بتلك الحمقاء إلى هنا !
- أنا ..
- أنفذ الناس حتى تدعو ابنة دعاء !
- أماه . إنها أختي من قبل و من بعد .. و ما لها من أحد سوانا . أنسيتي أن دعاء قد ماتت منذ أكثر من عامين !

فقالت و هي تطحن أسنانها من الغيظ :

- يا لطيبة قلبك الساذج .
- كما أنها ليست بمدعوة كالآخرين . فالمتوفي والدها اولاً و اخيراً

حدجته المرأة بنظرة حادة فقال ملاطفاً إياها :

- لا ذنب للأبناء في ما اقترفه الأباء يا أمي

لم تكمل جولنار هانم ذلك الحوار الدائر بينها و بين الوالي الجديد همساً فغادرت بعد أن استشاطت غضباً من حضور فريدة و تصرفات رؤوف الحمقاء الساذجة و المخيبة لآمالها .

كان حضور فريدة الوالي ملفتاً للأنظار من حولها على نحو كبير ، فدارت كل العيون تتطلع إليها من بعيد ، و تكلمت الألسن في همس شديد على مقمدها المفاجيء الغامض ، و تغير مجرى الحديث بالتدريج عن فريدة إلى الكونت الذي زرع في نفوس أهل الحارة الطمأنينة بأنه عادل يحب الحق و ناصره خصوصاً بعد استضافته لأخته من أبيه التي لم يعلم أهل الحارة شيء عنها إلا من أخبار تسربت من داخل قصر الوالي بالحارة عن طريق جواسيس من الخدم .

تلك الحسناء الممشوقة القوام ذات الثلاث و عشرون عاماً .. بيضاء كأنها البدر في فستانها الاسود و شعرها السائح الكستنائي المتوارى على استحياء خلف قبعة سوداء ذات شبكة خفيفة تدلت على وجهها فلم تزدها إلا جمالاً و ضياءاً . و عيناها المنيرتان التي مزجت بين اللونين البني و الأخضر فهي كغابتا نخيل و أشجار صفصاف و زان كعينا أمها الفاتنة . و ساقيها المرسومتان بحرفية بالغة تحت خصر متناسق ممشوق . كانت لوحة فنية بديعة ما رآها ملحد إلا و آمن .. وأقسم بأغلظ الأيمان أن للكون رب جميل يعشق الجمال و صوره في فريدة بأحسن تصوير .

بدت عليها آثار البكاء و الحزن فأيقظت مجرى الدماء في خديها فزاد من حسنها و جمالها .. كانت ساحرة بكل ما تعنيه الكلمة من معني . تمشي

كغزال يتبختر في مشيه و قلوب العاشقين تتساقط و تذوب صبابة و اشتياقا ، فلطالما سحرت و ملكت قلوب الكثيرين و لكن لم يستطع احد ان يأسر فؤادها أو يلفت نظرها أبداً .

استقبلها رؤوف الوالي أمام بوابة القصر و هي تدنو من عربة مذهبة يجرها زوج من خيول عربية أصيلة قد بعث بها الكونت لنقلها إلى الحارة لحضور العزاء بنفسها .

تأملها و تأمل حسن طلتها قليلاً ، ثم دنا إليها منحنياً و التقط يدها في ترحيب مهذب و قبلها ثم قال :

- اهلاً اهلاً فريدة هانم .

ابتسمت فريدة ابتسامه لم تكتمل من حزنها المفرط على أبيها ثم ردت التحية و الدموع تتساقط من عينيها :

- Merci...

- كنت أود اللقاء في ظروف غير تلك ..

- ...

وجّه الكونت كلامه الى أحد الخدم :

- إحمل عنها الحقائب و ضعها بغرفتها .

ثم تناول يد أخته و قام بتوصيلها الى القاعة المخصصه للسيدات في حفل العزاء .

لم تكن فريدة تعلم كثيراً عن طبيعة أبيها . حقيقة لم تكن تعلم عنه شيء إلا انه والي على مملكة كبيرة واسعه تسمى حارة العطشانين . حتى أنها كانت تجهل سبب ذلك الاسم الغريب ، فكيف تسمى المملكة باسم حارة عطشانين و النهر يحيط بها من جميع الجهات !

كانت امها تتلاشى الخوض في الحديث عن أبيها و عائلته . أنشأتها على حب الناس و الخير و كراهية الظلم و الظلمة لكنها لم تخبرها عن عائلة أبيها ابداً . كانت ترى أنه من الافضل أن تنشأ ابنتها وهي تحب أبيها و أخيها فذلك خير من أن تعلم ما قاموا به من مظالم في حق أهل تلك الحارة و في حق دعاء ايضاً . فنشأت فريدة طيبة القلب ساذجة حسنة الظن بالناس .. لا تضمر شراً لأحد ولا تكره أحداً كائناً من كان حتى جولنار هانم .

****

بعد اسبوع ..

تأهب خضر و زرقا للعودة الى الحارة القديمة بعد غياب دام عشرون عام و لقد علم أهل الحارة بمقدمهم بعدما أشاع الشيخ عتمان في أرجاء حارة العطشانين مقدم زرقا و خضر الصبي الذي شب رجلاً مشابهاً

لأبيه . و أحيا قصة الشيخ نور الدين المداح مع مختار الوالي و عادت تلك القصة تتردد في أفواه النساء مرة اخرى بعد أن اختفت في طي النسيان ..

عاد خضر إلى الحارة مع زرقا و رافقهما الشيخ عثمان في عربة متواضعة يجرها حصان هزيل و خلفهم عربة أخرى يجرها حمارين لنقل أثاثهم من حارة الروض الى حارة العطشانين ، و ما إن بلغوا مشارف الحارة و مطلعها إلا و تهاتفت جموع الناس عليهم يستقبلونهم بحفاوة و محبة ليس لها مثيل و كانت زرقا ترد لهم التحية بالقول الطيب و ابتسامة مهذبة تعلو شفتيها الدموية الصغيرة .

و تفاجأ أهل الحارة بالفتى اليافع النحيل ذو اللحية الخفيفة بعدما علموا أنه خضر .. ذلك الصبي الشجاع الذي ألقى بالحجارة فانفلقت منها رأس عبدون دون مخافة أو مهابة كما خافوا هم و نكسوا رؤوسهم في وحل العار و المذلة . ذلك الصبي الشجاع غدا شاباً في الخامسة و العشرين من عمره له من ملامح أبيه الكثير و من صفاته و أخلاقه الأكثر . بشعره الاسود المائل نوعاً ما إلى البني و عيناه البنية كعيني أبيه و جسده متوسط الطول النحيف بعض الشيء من شدة العمل و التعب .

لم يسمح اهل الحارة لزرقا و خضر بحمل أي قطعة من أثاثهم للبيت الجديد ، فحملوا عنهم أثاثهم و قاموا بترتيبه في البيت بخفة و نشاط و

تعاون لم يعهده أهل الحارة من قبل ، و ما لبثوا لوهلة إلا و هم منتهون من أمر البيت و اصبح البيت مؤهلاً للعيش فيه .

تعجبت زرقا كثيراً من ذلك الاستقبال الحافل و تلك الروح المحبة و النفوس الطيبة في اهل الحارة .. ما الذي دفعم الى ذلك ؟
أكانت تظلمهم حقاً بظنها أنهم قد تخلوا عنها و زوجها من قبل ؟ أم أنهم فعلوا ما فعلوا لإرضاء نفسها و رغبة في نسيان ما بدر منهم من قبل ؟
أياً كان ما وراء ذلك .. فلقد تعلمت من زوجها حسن الظن بالآخرين فالنوايا في القلوب ولا يطلع على القلوب سوى خالقها .
بدت الحارة مختلفة عما سبق .. بدت أكبر من ذي قبل و أجمل من ذي قبل و بدت منظمة أكثر و أكثر ، ففي مقدمة الحارة تصطف المراعي و الاراضي المزروعه عن اليمين و الشمال يتوسطها الطريق الوحيد المؤدي لخارج الحارة ثم بعد المراعي تأتي المساكن و البيوت عن اليمين و الشمال ايضاً بترتيب مريح لم يخل من بعض العشوائية في الأطراف البعيدة .. ما عادت كل البيوت كما عهدتها زرقا من قبل ، فقليل فقط احتفظ بالهيئة القديمة من بيوت طينية ذات طابق واحد . الكثير من البيوت مصنوع من الحجر الرملي الكبير و تلك البيوت أصبحت بطابقين أو أكثر ، ففي الطابق الارضي لا بد أن يكون به دكاناً واحداً على الاقل .. إما ان

يستنفع به صاحب البيت أو يقوم بتأجيره لآخر فيشغله كبقالة أو عطارة أو غير ذلك ..

وما يميز تلك البيوت ما بها من نوافذ ذات مشربية أضفت عليها طابعاً خاصاً و ذوقاً رفيعاً ، وفي وسط البيوت و المساكن هناك متسع و مساحة شاسعة شغلها سوق الحارة و المسجد الكبير و أحاط بها مقاهي الحارة المعبقة برائحة الجوزة و الحشيش و البوظة يتوسط تلك المساحة الشاسعة

كما يتوسط الحارة كلها أيضاً مبنى حجري طولي كالمنارة او المأذنة .. معلق في أعلاه جرس ضخم يتدلى منه حبل يصل إلى الارض . لا يصدح و يجلجل إلا وقت إصدار فرمانات الوالي و التي نادراً ما كانت عادلة ، ثم يأتي بعد كل ذلك قصر الوالي في نهاية الحارة بمساحة اكثر من ثلث الحارة كلها و منظر بديع الجمال يطل عليه القصر .. ففي القصر حديقة واسعه ممتدة يحيطها سور كبير يتوارى خلفه النهر بلونه الازرق المحمر في وقت غروب الشمس في لوحة بديعة رسمها الخالق فأبدع حين رسم .

كان البيت الجديد بيتاً حجرياً ولكنه في أقصى الحارة من الناحية الشرقية بالقرب من شاطيء النهر كعادة خضر ..

أسدل الليل ستاره على الحارة فأوقدت مصابيح الانارة النارية بالشوارع وقت صلاة العشاء .. انتهت الصلاة بالمسجد ثم ما لبث أن خلا من المصلين ما عدا خضر و الشيخ عثمان . تعجب خضر من ذلك ثم طرح سؤاله على الشيخ عثمان :

- أين ولّى الناس مدبرين !
- قد انطلقوا قاصدين الحفل
- أي حفل ؟
- حفل أقامه الوالي الجديد رؤوف باشا أو الكونت كما يحلو له النداء
- بأي مناسبة أقيم !
- على شرف المنصب الجديد العقبة لنا .. فدعا أهل الحارة كلهم يشاركوه الفرح كما شاركوه الحزن . يأكلون و يشربون . و بالطبع سيلقي خطاباً للناس .. ما رأيك ؟
- بماذا !
- قم بنا لنذهب نحن الآخرين .

قام خضر مع الرجل العجوز ذو اللحية البيضاء الطويلة يجوبان أرجاء الحارة .. حتى توقفوا عند بوابة القصر و هالهم فخامة الموائد المعدة المكتظة بأصناف الطعام و ألوانه المتنوعه الشهية . و لكن ما هالهم حقاً هو منظر أهل الحارة حول تلك الموائد يأكلون بشهية مفتوحه و يفترسون الطعام كمن لم يذق طعاماً منذ ولد ..

إمتنع خضر عن الاكل على تلك الموائد و نفر منها كما كره الشيخ أيضاً ان يشارك في تلك الجريمة ، فاقترح الشيخ أن يكملا المسير حتى يفرغ الناس من طعامهم و يبدأ رؤوف باشا الوالي خطبته و حديثه للناس .

ذهبا الى السوق في وسط الحارة و ذهل خضر من منظر المنارة الطويلة ثم سأل الشيخ عنها فأجابه :

- إنها المأساة الأكبر . هنا حيث يلبس الباطلُ الحق .
- احكِ لي تفصيلاً يا شيخي
- هنا . حيث يخرج القرار من فيه الوالي معبقاً برائحة الظلم النتنة الفواحة من كل مكان . يتلونه على مسامعنا بعد أن ألبسوه ثياب القانون و الشرعية ذات السمع و الطاعة . بنيت حجراً حجراً و بداخل كل حجر .. مظلمة
- يا الله !
- أوتدري ..
- ماذا ؟
- كان أبيك أول المنددين بتلك المنارة

تسائل بشغف :

- ماذا تعرف عن أبي يا شيخ عثمان ؟
- كان حياً يا بني . حياً في زمن الأموات و التماثيل و الجمود .

ابتسم خضر بعزة و قد برقت عيناه و زحفت منهما دموع هاربة عهد بريقها كلما استمع إلى حديثٍ عن أبيه .

كان السوق خالياً إلا من بعض الناس الذين أبوا الذهاب لتلك الحفلة المقامة بقصر الوالي و هم قليل . أثناء سيرهما معاً إذا بعيني خضر تقعا على امرأة حسناء تتستر بعباءتها اللف السوداء وهي تمر بجواره فإذا بخضر يتذكر صوت أبيه وهو يغني :

قل للمليحة بالخمار الاسود

ماذا فعلتي بناسك متعبد..؟

ما عهد خضر على نفسه ان نظر الى امرأة من قبل و أصابه ما أصابه الان . أحس بأصابعها الدقيقة البيضاء تلعب على أوتار قلبه ، و رنة خلخالها المدلل تنشد من أناشيد الانوثة و الجمال ما تطيب له النفوس و ترق ، و عطرها المثير الدافيء الذي أنساه نفسه و اسمه و ذلك العجوز الذي ظل ينظر اليه بتعجب و ضحكة بلهاء خجل منها خضر واستفاق من شروده على اثرها .

عاد خضر و الشيخ الى قصر الوالي للاستماع الى خطبته التي تلخصت في بعض الوعود الممضوغة من كثرة الحديث بها ..كأن العدل هو المنهج

الذي سيمشي عليه و المساواة هي الاساس الذي تقوم عليه المملكة و أن الخير قادم و كثير . بدا على اهل الحارة مظاهر الارتياح و الطمأنينة بعدما استمعوا لكلمات الوالي الجديد ، ثم إذا بأحد اهل الحارة يثب واقفاً من مجلسه و ينادي الكونت بصوت خاضع :

- يا رؤوف باشا .. نحن بحاجة لحكيم بيطري . إن المواشي إذا مرضت تموت لسوء الرعاية و قلة الخبرة .

ابتسم الباشا ابتسامة هادئة راقية ، ثم توجه بكلامه الى مساعده حاتم :

- دوّن ما قال الرجل .

فأومأ حاتم برأسه مشيراً بالسمع و الطاعه . ثم علا صوت لامرأة :

- الماء يا رؤوف باشا .. ما عاد لي طاقة على دفع تكاليفه لريّ الأرض و زرعها . لقد أوشكت الارض على البوار .

فأجابها الكونت مبتسماً تملأ الحماسة كلماته :

- من اليوم فالماء ماءكم . و الحارة حارة المرتويين

على ضجيج من التهليل و التصفيق و معالم الفرح على الحضور و جاوبته العجوز بوابل من الدعوات بالستر و الصحة . و أومأ الكونت برأسه لحاتم مساعده ليؤكد عليه تسطير ما قاله بعدما لاحظ تردد عليه .

استغل الشيخ عثمان تلك الفرصة فارتفع صوته منادياً الوالي قائلاً :

- يا رؤوف باشا .. ابني عاطل و يريد عمل

فأجاب الكونت :

- له ذلك

ثم إلى اهل الحارة عموهم :

- إن مكتبي بالقصر هنا متاح للجميع . فمن كانت له مظلمة و من كان له طلب فلا يتردد بالمجيء ابداً .

علا ضجيج الناس مرة اخرى بالصياح و التهليل و التصفيق ، ثم انتهز باقي اهل الحارة تلك الفرصة النادرة التي لم تحدث من قبل في تاريخ الحارة فهتف كل منهم بما أراد و ما يحتاج . فمنهم من طلب معونة من بيت المال و منهم من أراد وظيفة كما طلبها الشيخ عثمان لخضر الذي تفاجأ بما فعله الشيخ و عجز عن التعبير له عن شكره و امتنانه .

هكذا .. دون مقدمات و بين عشية وضحاها عاد خضر إلى ملاعب صباه و موطنه و موطن أبيه من قبله و قد وجد بيتاً و فرصة للعمل .

لكن ما لم يكن بالحسبان أن قد وجد فيها إحساساً غريباً لأول مرة . احساساً سيطر على كامل حواسه و أسر قلبه و عقله و شل تفكيره و أعجزه عن نسيان تلك العيون اللامعة المضيئة المتوارية خلف خمار اسود قد زادها نوراً على نور.

٤

فريدة ..

"لم أعتد أن أضمر في جوفي شراً تجاه أحد أبداً .. هكذا علمتني أمي و أخبرتني بأن الطيبين يحبهم الله .

كانت جميلة .. يافعة .. كالشمس بين الكواكب تنيرهم بضيائها و حسنها . لكم اشتقت لها و إلى حديثها الفلسفي الدائم عن هذا الفلك الدائري العجيب . لطالما قابلت من مواقف و أحداث متعبة غيرتها و أكسبتها تلك الخبرة و الفلسفة المتجلية في كل حرف تنطقه .. علمتني أن أحزم مشاعري و ألقي بها داخل صندوق ثم ألقيه بجب فارغ و عميق . علمتني علماً نافعاً و منهجاً أعيش به و أسلوباً قد انتقته بنفسها و اختبرته و تأكدت من نفعه ..

علمتني اللامبالاة ...

علمتني الجمود ..

أوصتني بأن اكون صنماً يابساً صلباً كصنم إبراهيم الاكبر .

علمتني أن المشاعر أسهم .. و ما أكثر الرماة . أن الفؤاد كالكرة و ما أمهر الناس و تفننهم في التلاعب .

لقد اعتدت على نظرات الناس الشهوانية تجاهي .. اعتدت أن أراهم يلتهمونني بأعينهم و خيالاتهم و ما عدت آبه او اكترث .

اعلم اني جميلة .. اني طاغية الجمال و أن فضل جمالي بين النساء كالطاووس بين سائر الطيور . أعجبني جسدي البضّ المضيء المتوهج .. أعجبتني تلك العيون الواسعة الحزينة ..

لكن ..

بالرغم من انوثتي الطاغية و تلك الفلسفة التي اكتسبتها عن امي و ذلك القلب الساذج الطيب .. إلا اني كباقي الفتيات في سني ابحث عن ذلك الذي يأسر قلبي و عقلي و كل شيء .

ابحث عن ذلك الذي يحبني بقلبه لا باعضائه التناسلية .

اوشكت ان اعلن كفري بوجود ذلك السراب ، و ذلك الطيف الذي لا زلت أبحث عنه ."

****

خضر..

" عدت الى البيت الجديد في تلك الليلة .. بعدما أصبحت على موعد مع الكونت للحصول على وظيفة جديدة .

تناولت بعض الطعام مع أمي بسرعة ، ثم صعدت لغرفتي بالطابق الثاني في بيتنا الجديد بالحارة لأحصل على قسط من راحة قد نساها جسدي خلال اليومين الماضيين . نزعت ملابسي و أبقيت حول خصري و وسطي

إزاراً يسترهما أثناء نومي ، ثم ارتميت على السرير بكل ما أوتيت من قوة و إصرار على النوم .
بدأت أسئلة تنطرح في ذهني و تتلاعب برغبتي الملحّة في النوم و تنغص عليّ رقادي .
لماذا أتيت إلى تلك الحارة مجدداً ؟ هل سأكون نفراً من أنفارها الذين يحيون فقط للتكاثر ؟ أمر على الأناس المنشغلون بصيد أو رعي أو أياً كان ما يعملون فأتسائل .. علام نعمر ذلك الكون ؟ أيستحق التعمير حقاً ؟ وهل نستحق نحن الحياة ؟ أسيكون مصيري هنا جالساً على عتبات الديار كهؤلاء العجائز منتظراً قدوم رسول الموت ؟ ماذا سيحدث لو قتل هاملت عمّه أثناء الصلاة ؟ و لماذا جنّت أوفيليا و ماتت ؟!
كفى عبثاً فالوقت ليس بوقت تلك الترهات ..
بدأ الظلام يسود أرجاء الغرفة ، و بدأت جفوني تتثاقل رويداً رويداً ، و بدأت أطرق أبواب النعاس بكل إلحاح و إصرار و لكن ..
شعرت بها مجدداً ..
نعم .. إنها تلك اليد الخفية تقبض على عنقي مرة ثانية بعدما هجرتني طوال كل تلك الاعوام الماضية . جاهدت مراراً و مراراً لأحصل على لقاء جديد مع أبي دون جدوى .. فعلت ما بوسعي ولم أجدها تمتد إلي أبداً .
ألقيت بنفسي في النهر مرة تلو الاخرى و باءت كل المحاولات بالفشل حتى أخيرا و بعد كل تلك السنوات .. جاءتني . إمتدت و قبضت على

عنقي . لم تكن تخنقني .. كلا .. بل تسحبني رغماً عني .. تجرجرني من ظلام نحو أظلم ، وبرودة تملكت من جسدي حتى ما كدت أشعر بأطرافي .

ظلام دامس غطيس لا فرق فيه بين قوي وضعيف أو بين غني و فقير .. ففي الظلام كلنا سواسية . ثم لاح في الأفق البعيد بصيص ضوء يشتد لمعانه أكثر فأكثر .. و لا زلت أجهل من منا يقترب للاخر !

اشتد النور حتى كدت أفقد بصري فأغمضت عينيّ حرصاً عليها ، ثم بعد مضي القليل من اللحظات بدأت أفتحهما رويداً رويداً .

إنه ذلك الكوكب مجدداً .. تلك الأرض الواسعة المعشبة المسورة بالجبال في الأفق البعيد و التي يتوارى خلفها قرص الشمس خجلاً . تلك الارانب اللطيفة البيضاء .. كم اشتقت إليكم و كم اشتقت الى لقاء أبي مرة اخرى .

كان كل شيء كما هو . لم يتغير كأني حضرته البارحة .

لم أشعر بنفسي و أنا أتحرك على الارض . لا أعلم أكنت أسير أم أطير .. كنت أتحرك بقوة الدفع .

تابعت المضي الغريب نحو المجهول و أنا أتلفت يميناً و يساراً لعلّي أرى أبي في أي مكان ولكن دون جدوى ، ثم إذا بمرآة ضخمة في أعلى مرتفع في مرمى البصر ما شعرت بنفسي إلا و أنا أصعده دون مقاومة . لحظات و أصبحت رابضاً أمام المرآة الضخمة ذات الارتفاع المهول و الاطارات الذهبية المرصعة بالماس يتوسطها من الاعلى حجر كريم ضخم أزرق اللون.

نظرت إلى المرآة لعلي أرى كيف أبدو و ما هي هيئتي في ذلك العالم الموازي المجهول و على غير المتوقع .. لم أجد نفسي داخل المرآة !

كنت أرى انعكاسات الجبال و البراعم و الشجيرات و الارانب حتى الشمس .. كان لكل منهم انعكاس عدا انعكاسي .. لم أره !

مددت يدي لتلك المرآة حتى اتأكد من أنها حقيقة و ليست خدعة . وجدت يداً تمتد نحوي في المرآة كغريق لمح يد تمتد إليه من خلال الموج . خرجت تلك اليد من المرآة تصافحني .. فمددت يدي مسالماً لا أتوقع غدراً منها ولكنها خدعتني .. و جذبتني لداخل تلك المرآة بعنف .

مضت لحظات و أنا أسقط داخل تلك المرآة كأني أهبط في جوف جب عميق مظلم ليس له قاع .. و أخيراً و صلت إلى قاعه اليابسة . لم تكن من تراب أو طين ولكن .. كانت من بلاط أو لعله رخام و كان بارد و كنت أنا حافي القدمين . وقفت لأصلب طولي و التقط أنفاسي من جراء تلك السقطة المريبة فإذا بي داخل ثياب أعرفها حق المعرفة و أعشقها حد الادمان . كنت أرتدي تلك الثياب البيضاء الفضفاضة و على رأسي وضعت كلّة بنية .

(الكلّة : قبعة بنية طويلة يرتديها الدراويش أثناء طقوس المولوية)

ألحان الناي حولي تعلو و تجوب أرجاء جسدي تمتلكه و تسيطر على كافة حواسه . ما عاد بوسعي سوى أن أمد ذراعيّ و أهيم بروحي عائماً مع الالحان و الكلمات الرقيقة تاركاً خلفي ذلك العالم البغيض بأناسه المفسدون . أضيأت الانوار فجأة فإذا بي في سمعخانة و كثير من الدراويش معي نصطف جميعاً في حلقة دائرية كل منا يرتدي نفس الثياب . في وسط الحلقة كان هناك رجلاً هو قائد حلقة الذكر يرتل آيات القرآن الكريم "فاعلم انه لا اله الا الله .." و كان الدراويش من حولي يرددونها خلفه . بدأت الحضرة بأدعية يرنمها الشيخ القائد ، ثم بدأ بالاستغاثة منشداً "يا فتاح يا عليم .. المدد يا رسول الله" .

و نحن من حوله نستدير في حلقات دائرية ارتفعت من جراءها ثيابنا و انفردت لتكون على شكل ناقوس لا يتلامس اي منها مع الاخر ، ثم بتنا نردد في ايمان و خشوع :

" المدد المدد يا الله .. مدد مدد يا رسول الله"

و ارتفع نوح الناي و ضربات الدفوف بإيقاعها الصوفي و صوت الشيخ القائد الذي لم أستطع أن أرى وجهه بعد .. لما ابتهل و انشد مخلصاً :

" يقولون عبد جنّ من بعد صيحة ..
و ما بي من جنون يا خليليّ باديا
إلا أني غريب ملقى على الثرى ..

أرعى نجوم الليل سهران باكيا
عدمت النوم و الصبر و الهنا ..
و فارقت إلفاً كان مني مدانيا
أرى الحب داءاً قد تمكن بالحشى ..
و ليس سواك لي طبيباً مداويا "

و نحن نردد خلفه بسرعه تزداد مع سرعة دورانا .. " الله الله الله الله يا الله " .

شعرت بروحي تفر هاربة من بين اللحم و الجلد و العظم .. تأنف من ذلك الجسد المادي اللعين و تبغضه و تذوب اشتياقاً الى جسدها النوري الملائكي .
تملكتني نشوة صوفية و أنا أدور و أذكر و الالحان و الاناشيد تغنى من حولي و الدفوف تدق معلنة للروح أن قد حان وقت الفرار الى الله .. كنت كمن ينام في الماء مرخياً جسده باكمله مستسلماً للموج يحمله الى حيث شاء . كمن استطاع أن يخترق لحمه و عظمه و جلده و سبح في ملكوت الكون . كنت كجسد أثيري في إسقاط نجمي . أحسست بتلك الاجنحة في ظهري ترفرف استعداداً للطيران و التحليق في سماء النور و الايمان .

لمحت لجزء من الثانية ملامح وجه الشيخ القائد المنشد .. صعقت لرؤيته و ذهلت لما رأيته .. إنه أبي !

توقفت عن الدوران و الانشاد و كسرت حلقه الذكر ، و ما إن حاولت أن أركض نحوه حتى إلتفت إليّ الجميع و عيونهم تلفظ الشرار لفظاً . يقتربون مني كالنائمون و على جباههم آحاد الضجر ، ثم أتى صوت أبي من بين ظهرانيهم قائلاً و هو ينظر إلي :

إسعى يا طير .. إسعى

أرض الإله واااسعة

شوف الطيور و اختار

بدل الحبيب .. تسعة !

ثم ابتسم و قال للدراويش من حولة :

- هلمّوا .. أثابكم الله

ثم و فجأةً ساد الظلام المكان .

أفقت من غفلتي تلك و وجدت نفسي نائماً متوسداً يمناي و محتضناً ساقيّ و جسدي به طوفان من العرق و أطرافي ترتعد بقوة و أنا عاجز عن استيعاب ما حدث .

أكان حلما .. ربما

أكان اسقاطاً .. ربما

أكان ضرب من الجنون .. ربما "

****

لم يستطع خضر أن ينام بعدما رأى ما رأى و هو لا يدري ما سر تلك الاحلام الغريبة . استيقظت الشمس من رقادها أخيراً و كشفت عن أحداث يوم جديد بدأه خضر بأن اغتسل جيداً ، ثم ارتدى عباءته البيضاء الناصعة و عمة سوداء نظيفة ثم تعطر بالزعفران و تأهب للقاء الوالي الجديد وفي قلبه رهبة من تلك المقابلة .

نزل من بيته قاصداً قصر الوالي و بخلده دارت العديد من السيناريوهات الوهمية لما قد يحدث في تلك المقابلة و كيف ستنقضي و إلاما ستفضي.

وصل خضر الى القصر فاستقبله الخدم على الباب بابتسامة مصطنعة لم يبتلعها خضر و لم ترق له . اصطحبه أحد الخدم إلى داخل القصر الفاخر المزين بالتماثيل الملائكية البديعة و التحف الفنية العديدة و اللوحات المزدانة بها الجدران الدالة على احتواء القصر لعاشق للفن ذو ذوق رفيع لا يستهان به . جلس خضر في غرفة الاستقبال ينتظر الإذن لمقابله رؤوف باشا ، ثم بعد لحظات قليلة جاءته إحدى العاملات بالقصر بثياب راقية مهذبة و تصفيفة شعر هادئة تناديه : "الكونت يطلب مقدمك .." و لم تكن لتقل له أن الكونت في انتظاره .. فالكونت لا ينتظر أحد .

للكونت شخصية ذات أبعاد و جوانب متضادة و متناقضة .. فهو متواضع مع أهل الحارة كما رأى خضر بنفسه لكنه أيضاً ذو كبرياء شديد و جبروتٍ عال .

ترجّل خضر من مجلسه و استعد لمقابلة ذلك ال"كونت" .. حاول أن يرسم على وجهه ابتسامة ولكن أعصاب وجهه القلقة خانته فلم يبتسم حين دخل عليه و لكن بدا متوتراً شديد القلق .

- اهلاً يا خضر .. تفضل

بدا على وجه خضر علامات التعجب و الحيرة فسأله :

- انت تعرفني ؟

فأجاب بافتخار و زهو و على وجهه ابتسامة هادئة :

- أنا رب المملكة .. أفهل يغفل الرب يوماً !

فأجاب خضر ناظراً إليه :

- حاشاه ..

ابتسم الكونت ثم عرض سيجاراً كوبياً على خضر لكنه امتنع عن أخذها معتذراً و قد بدأ الهدوء يعود إليه مع كل لحظة تمر و كل كلمة تخرج من فم الكونت .

- اسف .. فأنا لا أدخن

- و السبب !

- لأنها مضرة

تبسّم ثم قال :

- أعلم هذا .. و لكنها تغني عن بعض الناس .. الأكثر ضرراً

أشعل الكونت لنفسه سيجاراً ثم سحب منها نفساً عميقاً أطلق دخانه في الهواء كأنه يطرده ، ثم تأمل دخان السيجار المشتعل في يده و نيران حشائشه و تبغه المحترق ، ثم قال لخضر :

- أتخاف الظلام !

فطن خضر أن الوالي يتسائل متفلسفاً في محاولة لنيل إعجابه فقال متفلسفاً هو الآخر :

- و ما الظلام ؟

- ذاك السواد الذي يحل بالقلب محل الفرح ، فتنقلب أتراحاً و كئابة . و تلك الأفكار الغريبة و الوساوس و الهواجس المتعبة و الكوابيس المكدرة لصفو الراحة و الغرف المظلمة و غير ذلك .

قال خضر متثاقلاً في نطق الأحرف :

- الأفكار ..

تأمل الكونت و ترقب خضر الذي استأنف قائلاً :

- الظلام الحق هو ظلام العقل لا غيره .

- كيف ..

- الظلام هو مسمى آخر للجهل و جمود الفكر و ثبات الأفكار على معتقد واحد دون التفكر في صحته أو اعتلاله .

أبدى الكونت إعجابه بكلمات خضر و استشعر فيه انه حقاً مختلف عن باقي اهل الحارة جميعاً فطالبه بالمتابعة ليقول :

- هو سام كلدغات العقارب و الأفاعي . غير أن أذاهما في الجسد و أذى الظلام يصيب الفكر و التي بدورها تنعكس على تصرفات و سلوك النفس .. إن له تأثير تماماً كالسحر
- و علاجه ..
- النور .
- تقصد المعرفة ..
- أصبت .. فإن من المعرفة ما يداوي العقل من الظلام و يضفي عليه من مرونة في الفكر و تقبل الآراء . و لهذا كان أول ما أمر الله به رسوله الكريم أنـ " إقرأ "

صفق الكونت بيديه لوهلة ، ثم نظر لخضر ملياً و قال :

- أنا أعرفك يا خضر ..

و قبل أن يجيب الفتى استطرد الكونت قائلاً :

- و أعرف ما يدور بذهنك الآن . فاطمئن

تلعثم خضر في الكلام و بدت عليه ربكة عجز عن كتمانها :

- لا أفهم ما تقصد ..

- قد مات والدك و والدي .. و مات الماضي بعدهم .

مطّ الفتى على شفتيه و نظر للأرض لإخفاء الاحمرار الذي انتشر في وجهه فجأة و عيناه اللامعتان من بريق الدموع .

- أعترف أني معجب بشخصك ..

ابتسم الفتى و هو ينظر إلى الكونت الذي قال :

- كثيرون هم من جلسوا مكانك و كثيرون سيجلسون . لكنّ أحداً لم أكن لأتكلم معه كما تكلمت معك اليوم .

- شرف لي سيدي ..

- أنت مختلف عن أهل تلك الحارة يا خضر ..

مرة لحظة من الصمت الذي قطعه الكونت :

- حسناً أخبرني عن عملك قبل المجيء إلى الحارة .

- كنت سقاءاً لحارة الروض

- جيد .. فلتذهب إذاً إلى عطوة بدار السقاية و هو سيتكفل بكل شيء من ناحيتك .

ثم قال باسماً :

- و لكن احذر من لسانه

ضحك الفتى و ضحك معه الكونت ، ثم تصافحا سوياً ليختم الكونت الحديث بقوله لخضر :

- تذكر .. مات الماضي مع من ماتوا ..

اومأ خضر برأسه مجيباً بالسمع و الطاعه و تمتم بكلمات شكر لم يأبه لها الكونت ثم استأذنه و انصرف .

عاد خضر لبيته و كانت زرقا قد استيقظت من غفلتها مع ضجيج الناس و صياح الديوك و زحم الحياة في الحارة الجديدة مع بزوغ نهار يوم جديد. لم يعتد خضر أن يخفي شيئا على زرقا . فهي خزانة أسراره و بئره العميق الكتوم و عقله الناصح المفكر المتأن .
سرد لها ما دار في لقاءه مع الكونت لكنه أسرّ في نفسه الحلم العجيب هذه المرة و لم يبده لها . لم يعتد أن يخفي عنها أي سر أو يكتم أمامها شعور يحتويه .. ولكنه أبى هذه المرة أن يفصح عن حلمه و مغامرته في العالم الموازي مع الارانب البيضاء و المرآة الماسية .

صعد خضر لغرفته و القى بملابسه مع ما اختلط بها من مشاعر مختلفة و متقلبة ، ثم ارتمى على سريره عاريا من الثياب و المشاعر كافة و ما لبث أن طرق بيده أبواب النعاس و غط في نوم عميق ..

ألا أيتها الروح المقيدة المحبوسة داخل صندوق مظلم كئيب من اللحم و العظم ..

انطلقي .. تحرري من تلك الأصفاد و اهربي . حلقي في سماء الحرية و الهوى مع اليمام و العصافير ، و استظلي بأشجار الصفصاف و الزان من لفحات الشمس المحرقة الملهبة للجلد ..

و اغتسلي بالحليب و المسك و تعطري بالزعفران و رائحة الليمون ، و تمشطي بمشط من العاج و الأبنوس و انتعلي حذاءاً زجاجياً كحذاء سندريلا الروايات و الخيال ..

و ارتدي ثوباً من الاستبرق الاخضر ، و تزيني بعقد من المرمر و اللؤلؤ و الاحجار الكريمة و تتوجي بتاج من الذهب و الفضة .

مدي جناحيك البيضاء و حلقي عالياً بعيداً .. انطلقي و أطلقي العنان لها دون مقاومة .. فلطالما قاسيت و عانيت في ذاك السجن البشري ..

٥

كان اليوم غائماً .. تكاثرت السحب فيه حول الشمس حتى اختفى سطوعها . كانت الحياة تجري كما هي في فلكها المعهود لا يوقفها طقس عكر أو مناخ متقلب .

استيقظ خضر من نومه و أذان الظهر يعلو و يرتفع . توضأ وضوءه للصلاة و ارتدى جلبابه ثم اتجه إلى مسجد الحارة للصلاة .

قضيت الصلاة سريعاً و انتشر كثير من الناس في الارض كل يسعى لقوت يومه و رزقه ، فالمزارع في حقله و الصياد في نهره و الحداد و النجار كل في ورشته . لم يتبق في المسجد إلا خضر و الشيخ عثمان و بعض من غلمان الحارة الماكثون لتعلم القراءة و الكتابة و حفظ آيات القرآن تحت تهديد خيزرانة الشيخ عثمان و صوته الجهور .

خرج خضر من المسجد و قد حدد وجهته إلى عم عطوة أو كما يطلق علية في الحارة بـ "أبو شامة" و ذلك لوجود شامة كبيرة من الشعر تحت عينه اليمنى جعلت من مظهره مظهر كريه منفر ، و كان مما زاد من نفور الناس عنه لسانه البذيء و سهراته الدائمة الشبه يوميه في حانات و خمارات الحارة مع فتواتها الاربعه .

وصل خضر الى دار كبيرة كتب عليها بالرقعة "دار السقاية بالحارة" و كان هذا هو المكان الذي يخرج منه السقائين صباح كل يوم و على ظهورهم قرب المياه يسعون لتوزيعها على أهل الحارة . كل دار له حصة يومية مجانية من الماء يوزعها عليهم السقائين بالترتيب . و من زادت حاجته عن القدر المحدد يشتري ما يحتاجه بالمال . و في اخر اليوم يجمع المال كله الى خزانة دار السقاية و المشرف عليها عم عطوة شخصياً . كما أن حاتم الفتوة -أو كبير فتوات الحارة بمعنى أصح- هو من يجمع أموال

الخزانة كل شهر مع القتاوات التي تفرض على باقي طوائف الحارة لتسليمها لبيت المال و المشرف عليها الكونت شخصياً ..

أذيع في الحارة مرات عدة أن أبو شامة يختلس من أموال دار السقاية بالمناصفة مع الفتوة حاتم دون علم الكونت بذلك و لكن لا أحد في الحارة يجرؤ على التفوه بذلك صراحة في العلن .

حاتم هو كبير الفتوات في الحارة وهو المسؤول أو من المفترض أن يكون مسؤولاً عن الامن في ارجاء الحارة ، فكما يوزع السقائون على الحارة كل سقا بناحية من اختصاصه كذلك الفتوات ايضاً .. ففي كل ناحية من نواحي الحارة فتوة هو الموكل و المفوض بأن يحكم قبضته و سيطرته عليها و يجمع منها القتاوة كل شهر .

قسمت الحارة لاربع نواحي .. شرقاً و غرباً و شمالاً و جنوباً

كان فتوة شرق الحارة هو حنتيره و فتوة غرب الحارة هو بندق و في الجنوب كان هناك ليل . أما شمال الحارة فهي موطن قصر الوالي و الذي يشرف على حمايته حاتم كبير الفتوات شخصياً .

ليل و بندق و حنتيرة .. عصابة من السفهاء المفسدين في الارض . ينهبون و يسرقون في وضح النهار . يأكلون و يشربون و يسكرون و يدخنون في مقاهي الحارة مجاناً . يصيحون ليلاً و نهاراً بأصواتهم الجهورة المحشرجة بأبذء الألفاظ و أدنئها و يفتكون بمن يعلو صوته بكلمة اعتراض واحده . كل منهم له نبوته الخاص يهوي به على رأس أي شخص باسم

القانون و السلطة التي يمتلكونها .. فهم رجال الامن بالحارة اولاً و اخيراً و يعملون تحت امارة حاتم كبيرهم و زعيمهم ايضاً .

وصل خضر الى دار السقاية بالحارة حيث يجلس أبو شامه و معه حاتم الفتوة في مدخلها يشربان الشاي و يدخنان الجوزة . ينفثان دخانها ملحقواً ببعض السعال القوي الذي يحمرّ من جراءه وجوههم ذات الطرق و المسالك المتعددة و التقاطعات الناتجة عن مغامرات قديمة .
ألقى السلام و انتظر منهم الرد فلم يجده ، فشرع في الكلام قاصداً أبو شامة و في قرارة نفسه تكمن دعوات لحوحة بأن ينتهى ذلك الموقف على خير .

- انا خضر السقا الجديد .. أرسلني الكونت إليك و قال إنك ستهتم بكل شيء .

تفحص حاتم خضر بعينيه من أعلى لأسفل في نظرة استحقار تشع من عينيه شديدتا الجحوظ ثم توجه بكلامه إلى أبو شامة ساخراً :

- منذ متى و النساء يعملون بالسقاية !

تضاحك الرجل مجاملة لصديقه الفظ و قد احتقن وجه خضر و تسارعت نبضات قلبه ، ثم قال في هدوء جاهد و عانى حتى يصل إليه :

- منذ أن وكلوا بالحماية ..

ما كان الرد ليخطر على قلب حاتم الذي هبّ من مجلسه بعد أن أحكم قبضته على نبوته و سحب شخرة سريعة تبعتها بصقة دسمة كادت تصل لخضر ثم قال :

- بماذا نطقت ؟

لم ينطق خضر بكلمة . وقف ثابتاً كالصنم لم ينطق .

- انت جديد هنا .. فأنا لم أرى تلك الملامح التعسة من قبل .

قام أبو شامة من مرقده فزعاً و توجه بكلامه لحاتم مهدءاً له :

- العفو يا سيد المعلمين .. ما جهلك إلا من لم يعرفك .

ثم قال ملاطفاً إياه :

- أستأذنك لأرى ما شأنه ..

ثم أمسك بخضر من ذراعه بعنف و سحبه لخارج دار السقاية و انطلقا سويا يتمشيا . قال ابو شامه لخضر لائماً :

- ما اتعسك . ألم تجد من تشاكسه غير حاتم !

لم ينطق خضر بكلمه و اكتفى بالصمت الممل و الذي دفع ابو شامة لكسره قائلاً :

- لا تحسبن حاتم حليماً هكذا طوال الوقت . ما منعه عنك سوى توصية الكونت عليك و لكن هذا لن يمنعه بأن يتربص لك فاحترس.

تعجب خضر من الكلام و لكنه استغرق في صمته الرهيب و برأسه تدور مشاجرات و صارعات يضرب فيها حاتم بكل ما أوتي من قوة .

- اسمع بني .. إذا أردت العيش هنا .. في تلك الحارة التعسة . ردد خلفي بإيمان و صدق :

" انا لا ارى .. لا اسمع .. لا اتكلم "

كرّر الرجل جملته تلك حتى تضجر منه خضر ، ثم توقف عن الكلام لبرهة ليبصق بلغماً استوطن أنفه لمدة من الزمن ثم تابع قائلاً :

- هنا فقط يحيى من هو ميت .

فقال خضر متأففاً :

- آسف . ضعني في خانة شذوذ القاعدة من فضلك .
- للأسف .. تلك هي القاعدة الوحيدة الخالية من الشذوذ و الاستثناء .
- أنتم من صنعتم من الحارة غابة ..
- و على حيوانات الغابة الخضوع لأسودها ..
- حيوانات . أرأيت .. لقد أصبت التعبير.

قالها خضر و على وجهه ارتسمت تعبيرات الأسى و الأسف و عدم الرضى فقال الرجل بعدما نفد صبره :

- قد اعذر من انذر ..

ثم التقط بعض الانفاس بعد نوبة سعال قوية تبعها قائلاً :

- المهم .. ستبدأ بالعمل من الغد . يعاونك في ذلك عم شحاته . ستعمل من بزوغ الشمس إلى أذان العصر ..

استمع خضر لكلامه ثم هم بالانصراف فلحقه أبو شامه قائلاً :

- خضر .. ردد و لا تكن أحمقاً

" أنا لا أرى .. ولا أسمع .. ولا أتكلم "

أومأ خضر برأسه منعاً لكلام آخر سيعجز بكل تأكيد على ابتلاعه . انصرف في عجالة من أمره و هو يلعن من داخله ذلك الصنف من البشر و ذاك القدر الذي سمح لهم بالتكاثر .. يلعن القدر الذي جمعه مع حاتم في موقف واحد . يتمنى لو كان له جسد مفتولة عضلاته ليفتك بذلك المتسلط البغيض سليط اللسان .

لم يدرِ إلى أين يمضي و أين تحمله قدماه .. تابع المضي و الحركة و ذهنه شارد في عالم اخر . و ما استفاق إلا و هو أمام مسجد الحارة و صوت تلاميذ الشيخ عثمان يرتلون "قل هو الله احد" بنغمة الكتّاب التقليدية المتوارثة عبر الاجيال يتجلى عالياً لخارج جدران المسجد .

خلع نعله و دخل المسجد قاصداً الشيخ . كان الشيخ يحمل في يمناه مصحفاً و في يسراه خيزرانة عتيقة مشدودة و دقيقة لتكون عقاباً رادعاً و سبباً رئيسياً في رهبة التلاميذ من الشيخ .

جلس خضر بجوار أحد أعمدة المسجد الضخمة و أسند ظهره إليه و هو يرقب الشيخ و التلاميذ من حوله ، ثم ما لبث قليلاً حتى أذن الشيخ للتلاميذ بالانصراف الى بيوتهم .

خرج الرجلان من المسجد يتجولان في شوارع الحارة دون وجهة معينة حتى اقترح الشيخ على خضر بأن يذهبا إلى قهوة عليوة .. اكبر قهوة في الحارة .

مر الرجلان بالسوق في طريقهما واثناء سيرهما حدث ما تمناه خضر و انتظر تكراره . إذ مرت بجواره المليحة كحيلة الرموش ذات العباءة اللف السوداء و الخلخال الغنّاء في كعبيها . تمشي كغزال يتبختر زاهياً برشاقته و جماله و يتساقط من خلفه العاشقون . كان الجديد في هذه المرة أن ألقت الحسناء بطرف عينها نظرة إلى خضر خلسة و هو واقف يبحلق ببلاهة لها تعلو فمه ابتسامة نقية و قد نسي أمر الشيخ الذي أخذ يضحك بعفوية على هيئته تلك .

ابتسمت المرأة ابتسامة خرجت كسهم أصاب فؤاد المتيم بها و بحسنها و دلالها ثم اختفت و كأن الحارة ابتلعتها بين بيوتها و أناسها . ظل خضر ثابت بمكانه كصنم يابس لم تصدر عنه أي حركة و لا زالت تعلوه ابتسامة العاشقين النقية تلك ، و نبضات قلبه تعزف إيقاعاً رقصت عليها كريات دمه الحمراء و البيضاء .

- أتحبها !

سأل الشيخ عتمان

عجز لسان الفتى عن الكلام خجلاً من الموقف و من مشاعره أيضاً . لكن الشيخ بادره قائلاً و على فمه ابتسامة أرقتها الذكريات :

- كان لأبيك نفس الأبتسامة عندما يرى أو يتحدث معي عن محبوبته

تابعا الحديث اثناء سيرهما تجاه القهوة .. سأل خضر في فضول :

- من هي ؟
- زينب . ابنة عم رضوان الله يرحمه . كبير تجار الفضة في الحارة في زمن ماضِ . كان من أنقى الناس و أخلصهم . لكنه كان قليل الفرح كثير الابتلاء ، و له أيضاً في موتته ابتلاء .

قال خضر بفضول شديد :

- كيف ذلك ؟
- كنا و أبيك من أكثر الناس تمرداً على ظلم الوالي الفواح . اشتعل فتيل الأمر بعد فاجعة الشيخ نور .

استطرد الشيخ عتمان حديثه بعد أن توقف لوهلة لري حلقه الذي كان قد جفّ . و كان خضر ينصت لحديثه بكامل حواسه :

- حملت و رضوان راية الجهاد خلفاً لأبيك ..
- و هل أتت بثمارها ؟

- نعم . فلأول مرة يتجمع الناس على كلمة واحدة و هي اسقاط مختار الوالي .. و لكن ما قولك فيمن أخذ النجاسة إرثاً عن أجداده يتناقلونه جيلاً بعد جيل !

قالها الشيخ و هو يعض على أسنانه يكاد يطحنها ..

- استغاث بالانجليز .. حاصرونا و كادوا لنا .. فتكوا بالناس و سفكوا دمائهم حتى امتزج البحر بصبغتهم .

ثم استكمل بصوت اختلط بالنحيب و النواح و وجه اشتعل احمراراً و أوشك على البكاء :

- الثورة ماتت في المخاض أو حتى قبل أن تولد . و ما أدراك مع يعقب الثورات الفاشلة يا ولدي ..

فسأل الفتى بقلق و أسف :

- أولم يكتفوا ..
- لن يكتفوا ظلماً إلا إذا اكتفينا خوفاً ..
- ماذا حدث بعد ذلك ؟
- عاد العرش ثابتاً و الوالي فوقه ممسكاً بزمام الأمور بقبضة أشد من سابقتها . رفع القتاوة المفروضة لثلاث أضعافها .. الناس كانوا يصرخون .. يستغيثون أيا رب .. خذه أو خذنا فما عاد لنا بعد ذلك طاقة . هرب من الحارة من هرب و الباقي ابتدع من البدع الكثير ليبقي على حياته . هاج الناس و تطاولوا بالذراع و الاسلحة

هذه المرة .. و لكن على بعضهم البعض و ليس على حرس الوالي أو الانجليز . و كان من طالع عم رضوان أن هجموا على صاغته هو الآخر . لكن لحظه في ذلك الوقت أن ابنه حامد هو من كان بالصاغة . حاول الفتى التصدي لهم و لكن هيهات ..

تسائل خضر بلهفة شديدة :

- قتلوه ؟ و عم رضوان ..
- علم بالأمر فصعق في لحظته وسقط مشلولاً . و ظل طريح الفراش لبضعة أيام ليلحق بعدها بابنه ..
- رباه .. أي حياة كتلك يا شيخي !
- قلت لنفسي حينها .. والله لو لم يكن الانتحار محرماً لأقبلت عليه بصدر رحب و وجه بشوش .

عقود عمل ع القفا .. بس العمل بره

سافر و سيب البلد مفروشه للغربان

يعني يا إما الحرق يا الشنق يا الهجرة

يا إما تهمة جنون .. يا العيشة ع الصلبان

نجيب سرور..

****

توقف خضر و الشيخ امام قهوة عليوة - مرشدي سابقاً - الاشهر و الاكثر أمناً في حارة العطشانين و ذلك لأنها تحت حماية مباشرة من فتوات الحارة الاربعة لصداقتهم بالمعلم عليوة مالك القهوة و المصدر الرئيسي للحشيش .

- من هذا الفتى ؟؟

قالها عم يوسف أو الخواجة جو كما عرف في الحارة . رجل جاوز الخمسين من عمره .. شديد النحافة له شعر فضي يشوبه القليل من السواد مسترسلاً للخلف و له أيضاً ناب و سنة فضيتان متجاورتان في فكه العلوي . ملامحه شاذة عن ملامح أهل الحارة كلهم فوجهه مشتعل أحمر كاولاد سام و له عينان زرقاوتان شديدتا الجمال . يمتاز بصفتان لا ثالث لهما .. الاولى هي أناقته الشديدة و ذوقه الرفيع في إنتقاء ملابسه ، و الثانية هي صراحته الشديدة و كرهه للنفاق و الرياء . كلماته عن تجاربه السابقه و نظرته للامور و التي يراها البعض متشائمة و كئيبه .

- إنه خضر يا خواجه ..

قالها الشيخ عتمان و هو يقدم خضر إلى الخواجة و أهل القهوة أيضاً .

جلس خضر و الشيخ حول الطاولة التي يجلس عليها الخواجة جو بأناقته المعهودة حيث كان يرتدي بذلة بيضاء و رابطة عنق "فيونكة" سوداء و يضع على رأسه قبعة بريطانية الطراز . يحمل بين يديه كتاباً يقرأه و على طاولته فنجان قهوته السادة الروتيني .

- اه . المغفل الذي قدم للحارة مؤخراً .. اهلاً بك في الجحيم .

بدت على وجه خضر تعابير الاندهاش من سلاطة لسان الرجل و عدم استحيائه . سمع دوي ضحكة تجلجل القهوة بأكملها يشوبها حشرجة و سعال شديد من أثر المعسل .

- هذا حال الخواجة دائماً .. لسانه زفر حتى مع الضيوف .

كان هذا صوت المعلم عليوة .. صبي القهوة منذ عشرين عام مضت و الذي غدا هو المعلم الجديد لها . حاول الشيخ عثمان تهدئة النفوس فقال ضاحكاً :

- استهدوا بالله يا جماعه ..

ثم موجهاً كلامه لخضر معرفاً بالخواجة :

- الخواجة جو .. ابن الحارة اليوناني . ابن لأكبر تجار الحارة ..

قاطعه الخواجة :

- سابقاً .. سابقاً يا شيخنا

ثم اردف و قد لاحظ على لسان خضر بادرة التسائل :

- القمار .. مرض العصر الحديث .

قالها الخواجه جو بلهجة الخبير المتمرس السالك دروب الحياة و حافظها عن ظهر قلب ، ثم استأنف حديثه و قد تلاعبت تعابير التعجب بوجه خضر :

- يا له من شعور . عندما ترقب الكرة المندفعة تسعى حول عجلة الروليت تجر خلفها أعيناً قد تشبعت بالخوف و الأمل .
- أيوجد بالحارة أندية قمار !

تساءل خضر .

- الوالي يقيم حفلة بقصره في الخميس من كل اسبوع . و يشارك من يملك المال .

فقال الشيخ عتمان لائماً على الرجل :

- لقد خسرت كل أكوالك في هذا العبث . و لازلت تقامر براتبك المتواضع دون اكتراث لشيء !

فقال خضر متعجباً :

- هذا جنون ..

فرد الخوادة ببرود على كلاهما :

- شهوة .. تماماً كالجنس بل تفوقها متعة . إن لها شعوراً كشعور المدمن عندما يحقن وريده بحقنة الأفيون فيرتخي و ترتخي أوصاله و تهدء جوانبه و تتطابق جفونه فتستفيق اللذة في خيالاته ..

- تلك الترهات هي من أردتك من ابن تاجر كبير ولد و في فمه ملعقة من ذهب إلى كاتب حقير يتقاضى الفتات كل شهر ..

هكذا القاها المعلم عليوة بفم مكتظ بالدخان من الجوزة و ضجت القهوة بأكملها بالضحك على أثر مقولته ..

فقال الخواجة مدعياً التأمل و التفكير :

- هكذا الدنيا .. تتوارى عن ابن العز فيغدوا ذليلاً .. و تبتسم لصبي قهوة حقير فيصبح ...

صمت الخواجة قليلاً بعدما نظر إلى المعلم عليوة ثم أردف ساخراً :

- يصبح معلماً .. حقيراً ايضاً

فضجت القهوة بأكملها بالضحك .. حتى المعلم عليوة نفسه .

قدر يسخر من نبيل فغدا فقيراً بعد عز .. و يداعب لص محتال فغدا معلماً ذا شوارب ضخمة و رأس تصحر مع مرور الزمن . قدر يتلاعب بالقلوب تارة و العقول تارة و تطيب الحياة لمن لا يبالي ..

٦

عادت جولنار هانم كعادتها تنظم حفلات السهر و المقامرة كل خميس في قاعة قصر الوالي بالحارة و دعت إليها معارفها من الاعيان و ذوي النفوذ

و السلطان في الحواري المجاورة و كل من يحوي داخل كيسه مالاً يكفي للعب و المقامرة .

راقصات عاريات يتمايلن يميناً و يساراً و أعينهم تكاد تخترق الجيوب الحاوية للنقود ، و خمور مختلفة الاشكال و النكهات لها نفس التأثير على مدمنيها .. خمور تسكر بعض الاوقات .. و تكسر قيد الكلمات الضامرة في بواطن النفوس و خباياها . تفضح أسراراً و تقطع أوتاراً عزفت عليها ألحان كاذبة زائفه . و قطيع من البشر ذوي طباع بهائمية بحته . كل منهم يضع ألف قناع و قناع حتى اختلطت على بعضهم الاقنعه فنسى ملامحه البشعه و تقاسيمه القذرة . يتبعون تقاليداً في معاملاتهم لم يربوا عليها منذ أن كانوا صغار . لا أقصد صغار السن . بل صغار المراكز و النفوذ و المال و السلطان .

أذنت جلنار هانم بالقمار و العهر فأتى الملبّون من كل فج عميق . أقيم الحفل و تهيأ القصر لليلة مقامرة جديدة .. لكنها ليست كأي ليلة مضت إنها ليلة قائدها رؤوف باشا الوالي . والياً رسمياً للحارة .. و فريدة هانم كوجه جديد لم يتعرف على ذلك العالم من قبل .

ارتدت جولنار هانم فستاناً ذهبياً قصيراً كشّف عن ساقين مكتظين ، نجح في ستر احدى ذراعيها ولم يقو على الاخر فبدت مكشوفة الذراع اليمنى . فستان لم يلحظ عليه أي أثر لحزن على زوج لم يمض على موته شهر بعد .

أما فريدة فارتدت فستاناً أسوداً رقيقاً لم يختلط بزينة ، و أزدانت رقبتها البيضاء بعقد ماسي لامع زادها رقة و جمالاً . و اكتفت بالكحل و القليل من أحمر الشفاه كزينة لوجهها المنير .

افتتح الكونت حفله بإلقاء كلمة بسيطة كترحيب بضيوفه ، شربوا بعدها جميعاً نخب منصبه الجديد كوالي الحارة ، ثم اتجه الى طاولات القمار الكونت و الكثير من ضيوفه إلا قليلاً ممن فضلوا الاستمتاع بالطعام مع إمتاع العين بالنظر لأجساد الراقصات العارية المثيرة .

جلس الكونت على إحدى الطاولات الحاوية لعجلة الروليت الشهيرة في عالم القمار تجاوره فريده هانم التي لم تفارقه طيلة الحفلة ، و حضر ممن حضروا للحفلة شاكر باشا السباعي أحد أغنى رجال الاعمال إن لم يكن أغناهم بالفعل .

رجل في مطلع الثلاثين ذو جثة ضخمة و رأس أصلع و لحية خفيفة مهذبة . رياضي بطبعه و بدا ذلك واضحاً من خلال عضلات ذراعيه و صدره البارز و قوامه الرشيق . يذكر أيضاً أنه أحد الكثيرين الموضوعين على القائمة السوداء في قلب الكونت .

يبغضه الكونت و يحتقره دونما سبب يذكر .. قد تكون خساراته المتكرره في القمار على يده أحد الاسباب و قد يكون الحقد عليه لوسامته و انجذاب النساء له سبب اخر .. بدت تلك الكراهية لغز يضمره الكونت في نفسه لا يطلع عليه أحد .

التف الجمع حول عجلة الروليت كلٌ قد وضع رهانة ، يترقبون بعيونهم و نظراتهم الثاقبة للكرة الدائرة على أطراف العجلة وهي تلعب بقلوبهم و عقولهم غير مكترثة لمن يفز أو يخسر .

كما هي العادة في كل سهرة قمار .. خسر الكونت على يد غريمه شاكر باشا و الذي نظر للكونت و على وجهه بدت ابتسامة ظافرة ثم نفث دخان سيجاره الكوبي في الهواء و نشوة الفوز تحتويه من الرأس الى القدمين .

حقيقة لم تكن نظرات شاكر باشا موجهه الى الكونت ..كان يرقب بعينيه فريدة هانم الجالسه بجانب الكونت ، و كانت حركاته و انتصاره محاولات منه لنيل اعجابها و خطف قلبها كما اعتاد مع باقي السيدات الحسان .

- Hard luck يا كونت . لم يحالفك الحظ اليوم ..

ثم اردف ساخراً :

- كالعادة

ضحكت النساء اللاتي قد التففن حوله ثم سكتن عندما قال الكونت و هو يعض على أسنانه محاولاً كظم غيظه :

- الحظ وهم يتحامى فيه الفشله .
- إذاً ما سر هزيمتك اليوم سيدي الوالي ..

قالها شاكر بلهجة ساخره فامتعض وجه الكونت أكثر و كاد يقتله الغيظ ثم تمالك لسانه و أحكم كلماته و قال متفاخراً :

- المنصب الجديد قد شغل كامل تفكيري

فقال شاكر مدعياً تأثراً مصطنعاً :

- كان الله في العون .. منصب كهذا لا بد له من عقل واعٍ و مزاج صاف لا يعكر صفوه شيء .

****

فريدة ..

" لم تبرح عيناه جسدي طوال الحفل ..

يتكلم .. يضحك .. يسكر و يقامر وعيناه لا تزال تبحلق فيّ . يتأمل كل تفاصيلي .. ما عدت أشك بأن حبال هواي التفت حول أطرافه و عنقه فساقته إلي كسابقيه .. عبداً راكعاً ذليلاً ..

هو وسيم بلا شك . جسده ، و لحيته .. حتى رأسه الاصلع زاده وسامة وجاذبيه .. تتهاتف عليه النساء لاختطافه من بعضهن .. لكني لست إحداهن .. لم أشعر نحوه بشيء سوى إعجاب طفيف انتابني على استحياء ولا زال .

لم أشعر بقلبي و سهام الحب تخترقه من كافة النواحي كما شعرت بها حينما رأيت ذلك النحيف اليافع ذو الشعر الاسمر و اللحية الخفيفة .. لم أره سوى مرة واحده فقط .. ذلك اليوم . كان يمشي في طريق الحديقة قاصداً باب القصر للخروج منه .. حينها كنت أنا في الناحية الاخري من الحديقة .. جالسة على ارجوحتها بين أشجارها الكريمة .

مرة واحده .. كانت كفيلة بأن تأسرني و ترميني ببحر الهوى دون طوق نجاة . عشقت تفاصيله التي بالكاد لمحتها من بعيد ، عشقت لحيته الخفيفة السمراء و هي تنير وجهه الابيض .. جلبابه الابيض المضيء كفارس ما عاد بحاجة لجواد .. طريقة سيره المميزه و ساقيه ذوي التقوس الخفيف .

لم أشعر بذلك الاحساس تجاه أحد كما شعرته تجاه فتى الحديقة .. جاهدت و انا أعتصر ذاكرتي حتى رسمته على أوراق لم و لن تبرح أدراج مكتبي الخاص الا لاحتضنها فقط .

نعم . أستطيع أن أرسم و بكل براعه .. قد كان الرسم هو خليلي طوال سنيني الماضيه ، و كانت امي تعشق ما ارسمه و تشجعني طوال الوقت.

كنت استعد لحفل القمار على ظن مني انه سيظهر و يراني ..

اغتسلت له .. تعطرت له .. و تزينت له .. فمن ملك قلبي .. أصبحت بكل جوارحي له .

لا زلت اتوسل الايام أن تجمع عيني بعيناه ولو لمره .. علّني اجد فيهما طوق النجاة .."

****

خضر ..

" و أخيراً ..

أصبحت لي حياة جديدة في الحارة .. بيت جديد ، وظيفة و أناس جديدون .. أحببتهم حقاً . أحببت الشيخ عثمان و الخواجة جو . أحببت مهنتي تحت إمارة أبو شامه .. هو رجل نقي من داخله أبيض القلب مسامح و لطيف .. لا يعيبه الا رفقته لأوباش الحارة الاربعة و إدمانه للسكر في حانات الحارة .. وما أدراك ما يفعله السكر بلسان أبو شامه.

مررت عليه في تلك الليلة كما أمرني كي أحصل على رداء العمل و قد كان . و بدأت بالفعل في عملي منذ صباح اليوم التالي .

لم يمر على انطلاقتي بالسقاية وقت طويل لكني قد حفظت بيوت شرق الحارة و قاطنوها عن ظهر قلب .. وهم ايضاً عرفوني و آلفوا الحديث معي و التودد الي .. ما عدت أعرف لخوفي من الناس سبب يذكر !

أصبح يومي مقسوماً لنصفين .. أولاهما في العمل من شروق الشمس الى العصر و ثانيهما إما على ضفاف النهر و إما مع الشيخ عثمان و الخواجه في أي مكان بالحارة .

تلك الليلة .. و كنت قد آويت الى فراشي لأحظى بنوم دافئ بعد يوم عمل شاق ، ثم سمعت صوت قطراته تهطل على سطح داري و الديار من حولي تناديني ..

نعم .. إنه المطر .. بعد غياب طويل و انتظار أوشك على الانتحار ها قد عاد المطر . و كأن تيسليت تدعوني لأرقص معها و نغني سوياً على إيقاع القطرات الهاطلة .

قفزت من سريري مسرعاً و صعدت الى سطح الدار .. لم أبالي حتى إن شعرت بي زرقا ام لا . كان ضوء القمر يتوارى على استحياء خلف الغيوم الداكنة المحملة بالمطر الغزير كهدية من أنزار إله المطر . نزعت عني رداءي و بقيت بإزار خفيف بالكاد يستر عورتي ، ثم رفعت ذراعيّ الى السماء و أنا مغمض العينين أحاول أن أعانق كل قطرة من المطر .

تذكرت احداث ذلك الحلم العجيب .. و أبي يقول لي

شوف الطيور و اختار .. بدل الحبيب .. تسعة !

الطيور .. الطيور اختفت أصواتها و أصوات رفرفة أجنحتها فور هطول المطر ، و صياح الصبيه بالحارة قد اختفى ايضاً ، و كأن المطر عدو لهم و لأبائهم . أذكر أني لم أدع المطر يهطل قط إلا و قد عانقته و رقصت على نغمات قطراته المتساقطة من حولي .. ادور و ارقص و اغني

"مطر ..

مطر ، مطر ، مطر .. أنشودة المطر

وكل قطرة من المطر ..

هي ابتسام في انتظار مبسم جديد

أو حلمة توردت على فم الوليد

بعالم الغد الفتي .. واهب الحيااة

يهطل المطر .."

أنشودة المطر_بدر شاكر السياب

أمتلك العالم بأكمله في تلك اللحظة .. لا نشوة في الكون كالنشوة التي تجتاحني في تلك اللحظة ، وكأنني عدت صبياً مرة أخرى . أتخيل أحياناً أن المطر يتشكل حولي على هيئة امرأة تتراقص معي .. إنها تيسليت عروس اله المطر .. التي عشقها انزار و جنّ بها تماماً كما جننت أنا بالحسناء ذات الخلخال المدلل و العباءة اللف .. زينب

لم أصدق ما لمحته بعيني في تلك اللحظة .. إنها هي

ترقبني خلف مشربية بيتها الذي لم ألحظ أنه قريب تلك الدرجة من بيتي إلا الان . لمحتها فتوقفت عن الرقص .. أزحت يداي خجلاً عن خصر تيسليت الراقصة ، و وقفت كالأبله أبحلق في مشربيتها و قد لمحتها تبتسم ابتسامة أذابت جبلاً من المشاعر الساكنة في قلبي .. تلك البسمة الرقيقة التي يتبعها نغازتان أكاد أموت عشقاً عندما ألحظهما ..

ما الحل ..؟!

قد أتاني طوفان من هواها .. و لست بنوح و ليس معي سفينة
قد سحرتني بألوان المحبة كلها .. و لست بموسى و ليس معي عصا
لقد ملكتني .. اسرتني .. ساقتني لقاضي الهوى
أنا المحكوم علي بالاعدام .. عشقاً
تكلمنا .. ليس كأي كلام قيل أو سيقال .. تخاطبت و قلبها في لغة الهوى
صارحتها .. و شكيتها و شكيت لها أن قد أذاني حبها و أرقني و فرق
مضجعي .. و وجدت منها رداً فاق تصوري و خيالي
قالت و الكلام يصدر من قلبها و عينيها لا من لسانها
إن الذي تشكوني منه .. أصابني .. إني غرقت صبابة و محبة و غراما
إني كما أحببتني .. أحببتك .. فكن لي .. أو اتركني بسلام .."

٧

- ما بالك و الجلوس عند النهر ..
- إني انتمي إليه ..
- حقاً
- أعضب فأصادفه هائجاً ثائراً يزمجر كالرعد .. و أهدأ فأصادفه رائقاً صافياً حسن الاستماع و المقال .
- تحادثه إذاً ..

- و يجيبني يا خواجة .
- إني ابادلك الرأي .. كل منا يبحث عن الروح التي تشاطر ه جنونه و شطحاتة العجيبة . هدوءه و ثوراته . تشاركه الهمّ قبل الفرح . ابحث عنها في النهر ، أو الخمر أو حتى في المعبد . لكن إياك و الإنسان ..
- ما الذي أتى بك الى هنا يا خواجة
- جئت للصيد .. هل اشتريت النهر دون علمي !

قالها الخواجة مازحاً فابتسم خضر ثم قال :

- اقصد المملكة

فقاطعه الخواجة معلقاً على كلمته :

- الحارة ..
- الحارة .
- اووه .. يا له من سؤال بسيط ليس سوى بضعة كلمات متراصة . لكنّ جوابه ماضياً مدفوناً
- أأكون فضولياً إذا ..

فعاجله الخواجة بالحديث :

- انت مختلف عن الناس يا خضر . انت غريب عن كل الناس حتى أحبتك .. و لا تهنأ إلا في الوسع و البراح .

تيقظت كلمات "زليخه" العرّافه المجنونه في ذاكرة خضر عندما قبضت على يديه و اوصته .. " لك في البراح خلوة .."

- لقد سمعت تلك الكلمات من قبل .. كنت صغير .. العرّافه
- عرّافه ! . لكم تمنيت أن أرى طالعي و مستقبلي لأشبع فضولي و اطمئن . و انا اعلم أن الرب قد استأثره بعلمه رحمة لنا .

نظر الخواجة إلى النهر أمامه ثم قال و هو يتأمل زرقته :

- هل تذوقت الموت من قبل يا خضر ؟

تعجب خضر من السؤال المباغت و الغريب و لم يعرف كيف يرد .

- بعض الناس إن لم يكن جمعهم يرونني ذلك الشخص الهجين محبوب الحارة و الانجليز سواء . شارد الذهن طوال الوقت و له نصيب من كل زجاجة خمر في الحارة .. الناس لا يرون سوى الظاهر ..
- و ما جوهرك ؟
- حقد ..
- ماذا !
- ابنة عمي .. أحببتها أكثر من الرب نفسه .

سكت الخواجة لحظة ليلتقط أنفاسه و يتغلب على تلك الحشرجة العالقة بحلقة ، ثم استطرد و هو يلقي بالاحجار في مياه النهر متأملاً أمواجها المستديرة المتتالية :

- لقد غار الرب من حبي لها .. حسدنا على السعادة التي كنا فيها و طفلنا الذي كان ملاكاً في جنتنا المزدانة بالحب و الألفة .
- ما الذي حدث ؟
- كان لا يعرف فن العوم .. كان بمنأى عن أعيننا .. بعيداً حيث اصدقاءه هم الآخرون يلهون و يسبحون في مياه النهر . أقام الصغار سباقاً في البقاء لأطول مدة في الماء ..

ضحك الخواجة و هو يمسح دموعه المتساقطة على جانبي وجهه :

- فاز ولدي .. لكنه بقي في الماء إلا أن مات
- كيف يعقل ما تقول ..
- مات ملاكنا و انقلبت الجنة لجحيم .. لم تمض مدة إلا و زوجتي تركتني لاحقة بالصغير .. لقد استأثرهما الرب لنفسه و لم يتركني لأنعم بوجودهما معي .. إنه يعرف أني احبتهما أكثر منه ولا زلت .. حاولت أن اتخلص من تلك الحياة البائسة . لكنه لا زال يعاندني ، لا زال يصر على حرماني منهما ..

ظل خضر واجماً ملتزماً الصمت و هو عاجز عن استخدام الكلام في موقف كهذا ..

- قدمت إلى الحارة مع والدي من بريطانا آملاً أن انساهما ..
- بريطانيا ! حسبتك يوناني

- ام يونانيه و اب بريطاني .. من الجيد في مكان كهذا أن تكون انجليزياً .. لقد ساعدني ذلك على شغل وظيفة يطمح لها الكثير من بسطاء الحارة .
- أأهل الحارة على علم بذلك ؟
- لقد علموا أني إنسان ..

تأمل الخواجة السمكات السابحات في النهر على مرأى منه و خضر ثم استطرد قائلاً :

- لطالما شاركت أحياءهم الهتاف و الصراخ و الصراع ضد الظلم و الظلمة مراراً .
- الاحياء !
- الصنم .. هو من يقنع بالعيش البائس و يدّعي قلة الحيلة .

قال الخواجة متسائلاً :

- أمشغول انت ليلة الخميس القادمة ؟

****

استيقظت زرقا من نومها في صباح بارد لا يخلو من رياح خفيفه و سماء تكسوها الغمائم و السحب . توجهت الى بيت الخلاء بدارها تحمل دلواً نحاسياً لتملأه حتى فاهه ماءاً ، ثم وضعته على وابورها الموقد و الموضوع

في الزاوية لتحصل على بعض المياه الدافئة تستقوي بها على برودة الطقس التي تسللت عبر ثيابها فتركت رجفة خفيفة في ساقيها .

اغتسلت ذات العيون الزرقاء و خرجت ترتدي عباءة الصلاة و قد لفلفت شعرها بالمنشفه .. شعرها الغجري الاسمر الفاتن . لطالما اسرت خصلاته المتسلله قلوباً و عيوناً لكنه لم يفرد على ظهرها إلا لرجل واحد فقط .

وقفت امام المرآة الطويلة بحجرتها تحمل في يمينها مشطاً بائساً لن يقو على الرؤية في عتمة ذاك الشعر الغطيس .. حظها كان كشعرها و ليلها .. اسود في اسود في اسود .

نظرت بعيناها الى صورة عنقها المنعكسة في المرآة الطويلة أمامها .. لا زالت جذابة و يافعه .. وضعت يداها على رقبتها كأنما تستكشفها .. كانها لم ترها منذ أمد . خلعت عن جسدها الممشوق ثيابها و وقفت تنظر الى صورته كأنما .. تتحسر على عمر قد دفنت فيه ذلك الكنز .. تأملت الجسد الهزيل بعد شباب و عز مضى و ما زال منه إلا القليل ، ثم أغمضت عيناها في لذة لم تتذوقها منذ أمد بعيد و القت بنفسها على الارض و عيناها قد سال منها قطرات من دموع دفينه .

ارتدت زرقا ثيابها و حملت في يدها جعبة السوق الخاصة بها ثم هممت قاصدة سوق الحارة لشراء بعض المستلزمات . أضحى الناس في الحارة يحترمونها و يلقون اليها بالسلام كباراً و صغاراً ايضاً .. و ما استوقفها أحد

الى و أعرب لها عن مكانتها وخضر في نفسه و قلبه .. بات الجميع يعرفون خضراً و يحبونه كفرد منهم . لكنها كابنها .. كلاهما يكمن في جوفه ذاك الذي يوسوس لك مراراً بانك غريب عن القوم منبوذ منهم و بأنهم قطيع من المنافقين لا غير .. تمشي تتفحص الوجوه بعيناها المغرقه فلا تر إلا وجوه خشبيه و ضحكات صفراء فاقع لونها لا تسر الناظرين ..

لكن كلمات الشيخ نور تتردد في ذهنها مراراً و مراراً للتغلب على ذلك الوسواس و تلك الهواجس .. فلطالما حدثها عن سوء الظن بالاخرين و أن المطلع على النوايا و القلوب هو الله وحده ، فتعود زرقا ترد على تلك الابتسامات و التحيات بأحسن و أطيب منها .

توقفت زرقا أمام إحدى العجائز بائعي الخضار بسوق الحارة لتنتقي منها ملفوفة صغيرة و بعض ثمار الطماطم ، وكعادة كل النساء في كل دهر و مكان .. أخذت تفحص و تمحص كل ثمرة طماطم موضوعة أمامها حتى تجود بأطيبها و أنضجها . لكنها أسقطت كل الثمار التي انتقتها من يديها على الارض و تخشبت كمن رأى حية امامه و قد تكون الحية اهون في ناظرها مما رأت .

****

حل الخميس .. و حل خضر ضيفاً على الخواجة جوو في منزله بعد صلاة العشاء . أثاث متواضع لا يخلو من رقي ملحوظ و تحف متنوعه زينت جنبات و زوايا المنزل بعضها لمريم البتول و البعض الآخر لنسر طائر

غاضب أو فيل ضخم يثور بخرطومه بعنف . كما كان هناك لوحة معلقه على الحائط لاثني عشر رجلاً يتوسطهم المسيح بن مريم يلتفون حول مائدة طعام متواضعه نوعاً ما . قال الخواجة عنها إنها نسخة طبق الاصل للوحة العشاء الاخير لدافنشي . لم يخل حائطاً في ذلك المنزل من صليب معلق او صورة للمسيح او تمثال للعذراء .. ياله من رجل غريب الاطوار حقاً أملتزم هو و متدين أم كاره للرب عربيد لا يعرف سوى الخمر و الميسر - هكذا تسائل خضر في قرارة نفسه - .

لم تمض لحظات الا و الخواجة واقف أمام خضر يحمل في يده بذلة أنيقة بيضاء يقدمها لخضر و هو يقول :

- كيف تحضر حفلة كتلك بعباءتك هذه !

تعجب خضر من كلام الرجل و تسائل :

- عن أي حفل تتحدث !
- حفل خطوبة فريدة الوالي على شاكر باشا السباعي رجل الاعمال المعروف .
- و ما علاقتي بالأمر ..
- ستأتي معي
- أنت كاتب للوالي و مقامر دائم و لك وجه مألوف في أركان القصر .. أما أنا فلا فبأي صفة سأحضر !

- بصفتك أحد المواطنين الشرفاء الذي لم يدع الفرصة و قرر مشاركة الوالي فرحته .
- والله !
- بصفتك صديق شخصي لي .. لا تهتم بتلك التفاهات يا فتى . بحق الله فلتهجر قوقعتك الصدئة تلك و لتنظر إلى وجه الحياة المبتسم ولو لمرة .

ثم قال و هو يتراقص ممسكاً بالبذلة في يده :

- احتسي بعضاً من المنكرات .. و تراقص مع النساء الحسان

ضحك خضر مع الخواجة و ترك له زمام أموره يسوقه كيفما شاء . ارتدى البذلة "الألفرانكا" كما اطلق عليها و وضع رابطة العنق السوداء المنقطة و رفض ارتداء القبعه ذات الشكل الانجليزي المعهود خجلاً من منظره بعدما نظر الى نفسه في المرآة و هي على راسه فاستغرق و الخواجه معه في نوبات ضحك متعالية متتالية .

انطلق خضر و الخواجه الى قصر الوالي و قد حمل الخواجة باقه من زهور الياسمين ذات الرائحة المميزة التي عشقتها أنف العريس . كان الكونت واقفاً مع شاكر باشا السباعي و وجهه شاحباً قليلاً و تحت عينيه شيء من سمار متجلي للناظرين . ملأ الضيوف قاعه القصر الكبيره التي زينت بأروع زينة و اضاء جنباتها و زواياها اضواء الثريات المتدلية من السقف كعناقيد العنب . القى الخواجة التحية على الكونت و ضيوفه

بلباقته المعهودة فتلقى رداً مماثلاً منهم و كأساً من النبيذ الاحمر التقطته يد الكونت من إحدى خدم القصر. كما هنأ العريس على حسن اختياره و بعض كلمات معسولة لم يبتلعها خضر لزيفها . تطلّع الكونت في وجه خضر قليلاً ثم حياه باسمه مما أثار إعجاب خضر بذاكرة الكونت القوية و التي اضحى له نصيب منها .

سحب الخواجه ياسمينة من الباقة التي في يده قبل أن يهدي الباقه الى العريس و اعطاها لخضر مشيراً اليه ان يهديها للعروس بعد ان يهنئها على تلك الخطوبة . توجه خضر ناحيه العروس المتأنقة بفستان فيروزي اللون لامع تحت أضواء الثريات المعلقة و قد بدت ذائبة وسط كم كبير من الهوانم كالجوهرة التي تزين واسطة العقد اللؤلؤي . اقترب منها خضر فلمحته بعينها و ارتسمت فوق شفاهها الرقيقة بسمة فاتنة أصابته برجفة ملحوظة في يداه الحاملة للياسمينه . وضع خضر عيناه في الارض خجلاً وانحنى محاولاً اظهار بعض الاحترام ثم أهدى الياسمينة الى فريدة التي التقطتها من يده متعمدة ان تلامس يداها أصابع يده المرتجفه . لم يفلح ذهنه في انتقاء كلمات معسولة كما صنع الخواجه منذ قليل فتمتم بعبارة هربت من فمه على استحياء بصوت خفيض قائلاً "مبروك" فصمتت فريدة ولم تجب و بدا من عينيها الشاردة أنها كانت في عالم من خيالها أفاقت منه و هي تجيب تهنئة خضر الخجلة برد بارد بعض الشيء ثم أدارت ظهرها عائدة لتقف مع جولنار هانم و ضيفاتها و قد اسرعت

تمسح بمنديلها المطابق للون الفستان دمعة تسللت هاربة من عينها لا تعرف لها سبب يذكر .

التف الكونت و شاكر باشا و ضيوفهما حول عجلة الروليت الاشهر في عالم القمار و بدء سباق القمار العنيف الذي لا يرحم الا من كان ذو حظ عظيم . مضت الليلة و الرجال يقامرون و يسكرون و يلهثون وراء لحوم الراقصات البضة الشهية و النساء غارقون في أحاديث اكتظت بالنميمة و الرياء . الكل اندمج في جو الحفل إلا خضر .. فقد توارى بجانب الشرفة المطلة على حديقة القصر صامتاً و داخله كم من الصراعات و التساؤلات التي لا اجابة لها . لماذا طلب مني الخواجه أن يهدي تلك الياسمينه الى العروس ؟ ماذا يريد جراء ذلك ؟ ولماذا كانت عيناها الخضراوتان خجولة اكثر مني وهي في الاصل لا تعرفني ؟ .. قطع كل تلك التساؤلات صوت وقع حذائها ذو الكعب العالي على الارض وهي قادمة نحوه ترفع بيدها فستانها و رأسها مائل الى الارض قليلا .

- لم تقف وحيداً هكذا ؟
- لا أعرف أحداً هنا غير الخواجة جوو
- أين هو !
- يقامر مع باقي الرجال
- لم لا تقامر أنت أيضاً ..
- لا أجيد المقامرة .. كما أني غريب على تلك الأجواء الصاخبة

- انا أيضاً ..

قالتها فريدة بنبرة لينة رقيقة فنظر إليها خضر و هي تستكمل :

- أشعر بالنفاق و هو يعبق أجواء المكان .

اندهشت فريدة هانم من صراحتها مع خضر على الرغم من انه لا يزال شخص مجهول بالنسبة اليها .. لا تعرف ما الذي اصابها .. ما الذي يجذبها نحوه بذلك الشكل الغريب ، ثم كيف لم تفكر في عواقب ما تفعله . تتحدث مع احدى بسطاء القرية . ماذا لو رأتها جولنار هانم ؟ أو الكونت ؟ .. ماذا لو رآها شاكر باشا شخصياً ؟ ماذا سيحدث و ماذا سيكون ردها ؟ .. لم تفكر في أي من ذلك .. جلّ تفكيرها كان في فارسها الواقف أمامها في بذلته البيضاء و شعره الطويل و لحيته السمراء غير المهذبة .. ذلك الذي ظل صامتاً لا يرد إلا على قدر الكلام الموجه اليه فقط .. لا تعرف أهكذا طبيعته أم خجل أم أنه متأفف من محادثتها له !

- ما اسمك ؟

- خضر

- خضر .. اسم جميل

احنى خضر رأسه خجلاً من إطراءها عليه و تمتم كعادته بكلمة شكر متواضعه لم ترق لفريدة هانم .. أحس بشعور غريب يجتاحه و إيقاع سريع في ضربات قلبه حينما أحس بأصابع يدها تمتد لذقنه برقة و نعومة لترفع رأسه الخجل الى مرمى بصرها ثم همت لتقول له :

- خضر .. انا بـ ..

قاطعها شاكر باشا وهو يناديها عند مدخل الشرفه قادماً اليها فالتفتت اليه و قد تبدلت ملامح وجهها في ضجر بدا واضحاً شديد الوضوح خاصة وهي تجيبه بجزة على أسنانها خفيفة قائلة :

- نعم
- اين اختفيتي .. الناس ينادونك
- احسست بضيق فجئت استنشق بعض الهواء . آسفة
- لا تراعي . هيا بنا من هنا

و هكذا سحبها من يدها ليعرضها كسلعة على ضيوفه ذوي النفوذ و المال دون أن يلحظ حتى وجود خضر .. أو قد يكون .

٨

كان منظر المنارة التي تتوسط سوق الحارة بجرسها الضخم المعلق في أعلاها وجوانبها العتيقة المشققه منظراً أيقظ في ذاكرتها كثير من الذكريات التي ارتبطت بتلك المنارة و التي جاهدت زرقا لنسيانها دون جدوى . تتذكر يوم أن نبح ذلك الجرس و ملأ أرجاء الحارة بجلجلة صوته المزعجة ليتجمع اهل الحارة و كل قد لعبت الخيالات بعقله لعباً دون ان يتوقعوا سر التجمع .. وقف عبدون اليد اليمنى لعابد باشا الوالي إحدى طواغيت

الحارة الهالكين ليلقي على مسامع اهل الحارة اخر فرمانات الوالي و هي أن تم تحديد قتاوة بنسبة 50% على جميع مدخراتهم كل ستة اشهر .. كان نصف تلك القتاوات يدفعه الوالي قرباناً للحصول على حماية من المستعمر الانجليزي ضد أي استعمار آخر أو عدوان من أي جهة كانت بما في ذلك أهل الحارة أنفسهم . والنصف الاخر يأكله هنيئاً مريئاً على هيئة "بدل إهانة" . جزع كثير من أهل الحارة لذلك الفرمان الصادم فلاذ بالفرار من استطاع أن يلوذ و استدان من استطاع أن يستدين و امتدت أيد الكثيرين بالنهب و السرقة و شاع في الحارة الفساد وبائاً يقض على أخضرها و يابسها بلا رحمة ..كانت إحدى طرق الفرار من القتاوة وقت ذاك أن يهدي من لا يملك القتاوة فتاة مثيرة لحواشي الوالي ليتغاضوا عن قتاوته ، فباع منهم الكثير لحمه و عرضه ثم ما إن يمل الحرس من انثاه المعروضة حتى يلجأ لغيرها أو قد يعرض نفسه على من يفضل طريق الشذوذ منهم و هم كثير ..كانت الحارة خراب بما تحتويه الكلمة من معنى و الكل في دياره خائف لا ينطق بكلمة اعتراض واحده ف "الحيطان لها آذان" كما قالت نساء الحارة ، و لكن هيهات أن يسكت الحج عبد الودود أحد صيادي الحارة - والد زرقا - عن قرار ظالم فوق الاحتمال كهذا .. فراح يصرخ و يندد في سوق السمك و في مسجد الحارة و مقاهيها حتى و باراتها بثورة تشعل هتافاتها قصر الوالي و حواشيه أجمعين

.. ولكن هيهات أن يخلو مجتمع امتلأ بالفساد حتى فاض من واشٍ يلعق أيدي طواغيته لينعم برضاهم و بحماية صغيرة منهم .

لم تمض أيام قلائل حتى جلجل الجرس من اعلى المنارة مرة اخرى ولكن لسبب غير السبب .. وقف عبدون و في يده يحمل كوراجاً لا يبدو من هيئته ان قد نجا من ضرباته احد ، و توارى خلف عبدون بعض الحرس العاملون تحت خدمته يتوسطهم عبد الودود مكبلاً بحبال غليظة حول يديه و قدميه . وقف عبدون و كرشه يتدلى امامه يهتز مع انفعالاته وهو يصرخ منددا بما فعله الرجل و تحريضه على "قلب نظام الحكم" ثم إن عبدون ما لبث و أن أشار برأسه للحرس فقيدوا عبد الودود في جذع ثابت و ظهره متعرٍ أمامهم يعبثون به ضرباً و لكماً بعصيهم كنوع من الإحماء و التمهيد و فتح المجال أمام كورباج عبدون ليضع حداً لحياة ذلك الواهم الذي ارتكب افظع الجرائم في مجتمع مستبد .. وهي الكلمة .

لم يرحمه عبدون و هو يكيل اليه الضربة تلو الاخرى .. و الدم يتطاير من ظهره ليلطخ وجه عبدون الكالح المترهل دونما جدوى .. دون ان يحرك فيه ساكناً و كأنما قد استبدل قلبه بصلد قاس لا يلين ولا يرق .. كل ذلك و زرقا و اهل الحارة على مرأى و مسمع بما يحدث لكن هيهات أن يتحرك بين ظهرانيهم أحد عدا فتى في مقتبل عمره "طائشاً" كما قال عنه الحرس الذين اكالوا اليه كم من الصفعات قليل ثم أبعدوه عن الساحة تماماً حتى لا يلق مصيراً كمصير عبد الودود .. ذلك و أن هذا الفتى و

المدعو "نور الدين" قد رمى حجراً أراد به رأس عبدون لكن لضعفه و لصغره أصابت إحدى الحرس الذين اشفقوا على عبد الودود و على الفتى من ان يلاقي نفس المصير .

لحظات قليله مضت ثم فاضت روح الرجل الى بارئها و علت بسمة ظافرة على وجه عبدون كمن اثبت امام الناس فحوليته على اكثر العاهرات فتنة و انوثة . ذكريات كتلك كانت ولا شك دافعاً قوياً لزرقا ان تبغض المكان و اهله المتمسكنين العاجزين .. رأت زرقا تلك المنارة ولم تشعر بنفسها الا وهي تركض و تهرول الى بيتها مغلقة باب الدار على نفسها كأنما تحتمي من عدو يتربص بها خلف الباب .

****

خضر ..

" لم أجد في أيام حياتي يوم أجمل من هذا اليوم .. انتهيت من عملي باكراً بسبب قلة مريدي المياه في الحارة و كان عدد الباقين في الحارة ذلك اليوم قليل جداً .. عدت الى البيت لاغتسل و أرتدي ثياباً نظيفة ثم ذهبت الى المسجد لأصلي العصر خلف الشيخ عثمان و نفرين اخرين من اهل الحارة .. قضيت الصلاة فدنوت من رفيقي و رفيق أبي من قبلي أسئله عن سر إختفاء اهل القرية .. فأجابني بأن اليوم هو ذكرى مولد سيدي عبد الرحيم

أحد اولياء الله الصالحين و الواقع مقامه بقرية "طوش" المجاورة لحارتنا .. عدت الى زرقا و كانت تعد طعاماً يعينني على مشقة العمل فتحدثت معها بشأن المولد - فهي تعلم جيداً ولعي الشديد بالموالد و صوت الربابة و انسجام الدراويش مع الايقاع - ثم أخذت منها الإذن كعادتي و انطلقت و الشيخ عثمان الى طوش قاصدين مقام سيدي عبد الرحيم .. كان المغرب قد حل و أقيمت الصلاة في المسجد الحجري العتيق شديد القدم قرابة الالف عام أو يزيد .. أقيمت الصلاة و تقدم شيخ عذب الصوت شديد الخشوع يأمّنا في الصلاة و سمعنا اختلاج صوته بالبكاء حينما وصل لقوله تعالى "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء .." ولا انكر اني قد ذرفت قليلا من الدموع معه .

جلسنا نذكر الله و نسبحه و نهلله و تقدم شيخ اخر يبتهل و يقول :

طرقت باب الرجا و الناس قد رقدوا

وبت أشكوا الى مولاي ما اجد

اشكو اليك امورا انت تعلمها

مالي على حملها صبر ولا جلد

كان صوت الشيخ مبكٍ خاشعٍ حق الخشوع .. أحسست بقلبي ينتفض و كأنما أصابه مس من الشيطان . حقاً انا لا ادري ما الذي أصابني جراء استماعي لهذا المنشد .. إجتاحتني رغبة عارمة .. رغبة صارمة طاغية في البكاء سيطرت على كل حواسي حتى احسست بقشعريرة تسري بجسدي كله خاصة عند قوله "أشكو اليك اموراً انت تعلمها" ..

شعرت كأنما انا الذي اخاطب الله ليس المنشد ..

جلست أحادث و أناجي ربي خفية بقلبي و هو يعتصرني و يؤنبني على كل ما بدر مني من ذنوب ماضية . أذن المؤذن للعشاء فقمنا نصلي .. دقائق مضت و انقضت الصلاة .. امتلأ المسجد بالناس حتى لم يبق فيه موضع قدم خال من البشر العاشقين الملبين لنداء سيدي عبد الرحيم كما يقولون . خرجت أنا لساحه المسجد بعيداً عن المقام والتي كانت أقل ازدحاماً بالطبع من الداخل ، ثم ما لبث الناس أن قاموا و اصطفوا صفوفاً كثيرة طويلة ملأت الساحه بشكل منتظم و في أوسطهم حلقة دائرية متوسطة يشغلها عشر راجال أو يزيد ..كان في الصفين الاول و الاخير دراويش بجلاليبٍ بيض و عممٌ خضراء و سبح طويلة تحيط باعناقهم و دفوف في ايديهم تستعد لحلقة الذكر التي اشتقت لها كثيراً .. بدء وقع ايقاعات الدفوف يسري في ارجاء المكان و بدءت ألسنة العاشقين تردد في وقت واحد "الله .. حي" و رؤوسهم تتمايل مع اجسادهم لليمين و لليسار مع الترديد المنتظم المتصل غير المنقطع .

بدءت معهم اتمايل و اردد وبدءت تدريجياً تنتابني و تسيطر علي تلك الرغبة الجامحه في البكاء مرة اخرى . كان لوقع الدفوف اثر كبير في نفسي و لترديد العاشقين الدراويش صداً مسموعاً و اضحاً يسري بأعماق اعماقي . أطلقت يدي في الهواء و رحت ادور و اذكر و اتمايل و اهتف "الله .. حي" وبدءت عيني تجود بما تحتوي من دموع سخينة . تملكتني في تلك اللحظة نشوة ليست كأي نشوة ، وكأنما فرت روحي هرباً الى السماء ترفرف بأجنحتها البيضاء الطويلة عالياً و عالياً حيث اللامكان .

توقفت للحظة أراقب الموقف من حولي . الدراويش الغائصون في نشوة الذكر و رؤوسهم المتمايلة جيئة و رواحا . البائعون الذين حاصروا مداخل و مخارج المسجد لإنتهاز الموسم و أصواتهم العالية و صيحاتهم بمزايا سلعهم و طيبها . و الناس الزاحفون في كل مكان .. شمالاً و جنوبا .. شرقاً و غرباً و في كل اتجاه و لكل منهم غاية و سبيل مختلف لا يعلم سره إلا الله . تسائلت و أنا اراقب تلك المشاهد و هي تسري حولي في إيقاع بطيء كسلحفاة تعاني شللاً نصفياً . من أكون ! و لماذا أنا هنا !

هكذا تسائلت و أنا منذهل من أولائك الناس . من أنا في ظل تلك الفوضى ! من أكون تحت ستار تلك السماء و فوق تراب تلك الارض من حقاً أكون و ما هي صفتي ! أهذا الموقف هو حقاً الذي خطّه الله بيده في اللوح المحفوظ قبل الخلق باربعين ألف سنة ! أأنا في موقعي الصحيح و المخطط له أم أنني قد انحرفت عن مساري !

وكأن شيء ما بداخلي .. حقيقة هو ليس شيء و إنما هو ذاك الشخص اليقظ المبصر الساكن في ظلماتي العتمة .. و كأنه أيقظني من تساؤلاتي و همس لي بأن أنظر . الى من أنظر ؟ فتحت عيني و أدرت رأسي و التفت حولي لعلي أرى ذاك الذي أيقظني بسببه . كانت هي الاخرى من ملبين دعوة سيدي عبد الرحيم .. زينب .

وكأني قد عُميت فلم أعد أرَ أحداً أمامي سواها .. بدءت بالزحف سعياً للوصول اليها وسط كومة من البشر لا تعد . هي الاخرى رأتني . كانت واقفه على الطرف الاخر مع النساء عند باب المسجد .. كانت وكأنها تلتقط عطراً أو ما شابه ذلك من أيدي إحدى البائعات المستحوذات على رصيف المسجد على جانبي الباب المخصص للنساء و كان بصرها موجهاً الى الدراويش بساحة المسجد .

أعشق ذاك الذي يتكلم بداخلي عندما يكون على صواب .

أخذت تجري بدلال و بصرها يلاحقني من حين لاخر و كأنما تتأكد أن فريستها قد أنطبقت عليه المصيدة بإحكام . و أخذت أنا الاحقها و أجري خلفها دون مبالاة بالناس من حولي أو بالمولد المقام او حتى بصوت الشيخ و ترديدات الدراويش التي أعشقها حتى النخاع .. فلا صوت يعلو فوق صوت حبيبي .

امسكتها لاول مرة و صوت الشيخ يعلو بالمديح و الثناء على خير الخلائق و اصوات الدراويش تعلو و صياح المارة و البائعون يحدث حولنا ضجيجاً

مزعجاً كاد ان يخرجني من حالة البهجة و السعادة التي انتابتني فور ان رأيتها .

انفلتت من يدي بدلال و فرت هاربة وكأنما نلعب لعبة القط و الفأر . و انا لا خيار امامي سوى انا الحقها مرة اخرى . تلك المرة امسكتها و كنا حيث لا يرانا الناس ولا نسمعهم .. كنا بالقرب من النهر . وقفنا ولم ينظر احدنا للاخر من فرط الخجل المسيطر على كلانا . عاد ذاك المزعج يصرخ مجدداً و يلحّ علي بأن أكسر حاجز الخوف بداخلي و اتكلم .. و لطالما كان الكلام بالنسبة للافعال سهلاً .

رفعت عيني استعداداً لإلقاء أي كلمة يتلفظ بها لساني ووجدتها تدير نظرها عني الى الارض ..

يا إلهي .. كانت تنظر الي ؟! ترقبني ؟! .

تحدثنا سوياً في بدء الامر عن الموالد و الربابة .. حدثتها عن ابي و عشقي له .. وحدثتني أيضاً عن أبيها و عشقها له .

ما كدت أصدق أنني أنا هذا الشخص .. انا هذا الذي أمسك بيدها و تلمس اصابعها كالكفيف الذي يمتسح وجه الحسناء ليحاول أن يتخيل ملامحها و جمالها . أخبرتها بكل ما في جوفي .. تغزلت فيها بلطف كأني أمدحا و قد رقت لمدحي وجنتيها و أوقدتا احمراراً كالجمر . أخبرتها اني اعشق نغازتيها .. وابتسامتها .. تلك التي عندما ترتسم على وجهها البراق

تأخذني الى حيث لا ادري .. اخبرتها أن في ابتسامتها حياة اخرى ، فابتسمت .. أما أنا فملكتني الحياة الاخرى .

لم اصدق انني اخبرتها بانني حقاً أحبها .. هكذا !

بتلك البساطة انسابت الكلمة من فمي كما ينساب الماء من الابريق . لكنها و كأنما قد بلغ بها الخجل أقصاه فهربت و أخذت تعدو بعيداً عني تجاه المولد و زحامه .. أما أنا فتسمرت مكاني تعلو وجهي ابتسامة حمقاء و قلبي كأنه طبل جاهلي ينذر بقدوم جيش أبرهة مرة أخرى و لكن تلك المرة لاحتلال قلبي .. وليس لهدم الكعبة .

آويت الى فراشي و قد تيقنت فور عودتي ان زرقا تسبح في نوم عميق .. امسكت الوسادة بكلتا يدي و رحت اقبلها و اعانقها وانا من فرط النشوة سكراان مبتهج .. ادندن بالاغاني و اتقلب علي اليمين تاره وعلى اليسار اخرى .

احسست بتلك اليد الباردة تقبض على عنقي من جديد .. بت أكره فزعتها و قبضها المفاجئ . سحبتني كعادتها الى حيث لا ادري حيث كان الظلام يسود ارجاء المكان من حولي وبدء بصيص النور الضعيف يلوح من بعيد ، ثم أخذ يشتد بريقه اكثر فاكثر حتى وضعت كفي على عيني من شدة الضوء و انا لا زلت اجهل من منا يقترب للاخر.

ازحت كفي عن وجهي برفق حتى تستوعب عيني الضوء ولا تؤلمني .. فإذا بي قد وصلت الى تلك الارض المخضرّة من جديد .

االاه .. كم اعشق تلك الارض المعشبة ببراعم صغيرة خضراء تبعث في نفسي السكينة .. و هواءها النقي الخالي من انفاس المنافقين التي يكتظ بها هواء عالمنا حتى بات خانقاً ثقيلاً .. و ارانبها البيضاء الرقيقة المسالمة الراكضة طوال الوقت الى حيث لا ادري انا . تلك المرة لم انتظر ان ارى ابي هنا .. فبدأت اسير وانا اعرف طريقي الى اعلى التلة حيث المرآة الذهبية المرصعة بالماس على جنباتها و من الاعلى يسكن حجر كريم ضخم ازرق اللون .. في تلك المرة أيضاً لم أر انعكاسي في المرآة على الرغم من وجود انعكاسات للارانب و البراعم و الجبال و كل شيء عدا أنا .. أكاد أجن من اختفاء صورتي في المرآة و انا لا اعلم لذلك سبب يذكر .. حدثت نفسي حينها .. ربما لأني لا انتمي لهذا العالم ؟!

مددت يدي للمرآة لأرى أي مغامرة جديدة تخبأها لي تلك المرة .. امتدت الي يد لونها اقرب ما يكون معدوماً شفافاً .. احكمت قبضتها على يدي و جذبتني داخلها فسقطت ..

كان المكان من حولي مظلم تماماً و أنا لا زلت أسقط في أعماق تلك المرآة المريبة .. أهذا حلم ذلك الذي أنا فيه.؟ ام انني مسحور.؟ لا شك بأنني مسحور ، أو ربما قد خف عقلي و جننت .. يا الله .. أيعقل هذا !

أخرجني من تساؤلاتي تلك الاضواء التي رأيتها تلمع من حولي في كل مكان .. المكان مظلم كما هو لكنما يسري بداخله حبيبات غاية في الصغر تلمع كما تلمع النجوم في الفضاء .. لحظة

ليست كما النجوم .. بل إنها هي النجوم ذاتها .. كيف هذا .. أأنا أسبح في الفضاء حقاً ..؟ لم يعد لدي شك في أنني جننت الان .. شعرت بأن شيئاً يجذبني للأسفل كما يجذب المغناطيس المعدن .. نظرت نحو اقدامي فإذا بالارض كحبة البازلاء صغيرة و بعيدة .. لكن هناك شيء يجذبني اليها .

أدنو و أدنو مقترباً منها .. أغمضت عيني بعدما لاح من بعيد منظر السحب و الغمام الداكن .. شعرت بالماء يتخبط في أنحاء جسدي فقلت لا بد أن الغمام مكتظ بالامطار .. لكنها لم تكن الامطار و لم تكن تلك سحب . فتحت عيني فإذا بموج البحر يدفعني الى الشاطيء .. خرجت و انا مبلل بالماء من رأسي حتى أخمص قدمي الحافية و عيني تشتعل احمراراً من ملح البحر . أخذت أسير حتى جاوزت الشاطيء و وجدت على مسافة ليست بالبعيدة قرية بدت كبيرة واسعه . بدءت أمشي و أمشي سعياً حتى وصلت الى القرية وكانت خاوية لم أسمع فيها صوت ولم أر فيها إنساً ولا جناً . كانت ارض تلك الحارة طوبية و البيوت شبه مصطفة و ضيقة و أبواب المنازل كافة تحمل في أعلاها نجمة داوود السداسية وعلى أسطح أغلب البيوت كانت الملابس معلقة على الاحبال تتلاعب بها الرياح كأفاعيل الجان .

واخيراً بدءت الحياة تدب في تلك القرية الغريبة حيث بدءت أسمع صياح يأتي من بعيد فهممت وجريت أتبع الصوت فإذا بأهل تلك القرية جميعاً

مجتمعون في شكل دائرة يتوسطها رجل هزيل اشعث متسخ و عظامه تبرز من صدره و عضديه وهو مقيد الى الارض و حارسان يحملان سياطاً في أيديهما يبرحانه و ينهالان عليه ضرباً بكل ما أوتيا من قوة .

الناس يدورون من حوله ويهتفون في عداءة و كراهية تتطاير من أعينهم كالشرار "اضرب .. اصلب" و الحارسان بدورهما ينهالان بالسياط ضرباً و يطربان من تصفيق الناس الحار لهما عندما يحدثان جرحاً نازفاً في جسد الرجل . لكن ما لم اصدقه في ذلك الحادث هو موقف الرجل من كل ذلك .. إنه لا يتألم ، لا يصرخ ، لا يتفوه بكلمة اعتراض واحده بل أخذ يتمتم بكلمات ليست متناسقة فكان يقول "الساعه الساعه .. الحاقة الحاقة .. الصاخة الصاخة" . والناس من حوله يصرخون جراء كلماته ويهتفون ضده .. فهذا يقول اقتلوا الساحر .. والاخر يقول اصلبوا ذلك المعتوه .. ثم توحد الهتاف بين الجميع على الصلب . سألت أحد الواقفين عن هذا الرجل .. فقال بأنه مجنون يدعي أنه نبي من الله مثله كمثل موسى و يوشع وداوود ويأمرنا باتباع أوامره .. فنال جزاء افتراءه ، ثم نظر إليّ الرجل متعجباً وقال يسألني .. لم انت مبللٌ هكذا.؟ لكني لم أجبه .. فما حدث ألهاني و ألهاه عن الاجابة .

انصاع الحراس لهتافات الناس ففكوا قيود الرجل المتصلة بالارض ثم أحضروا صليباً خشبياً ضخماً منظره يكفي بالفزع و الرعب . جردوا الرجل من ثيابه عدا خرقة متسخة تستر عورته ووضعوا على رأسه تاجاً من

الشوك إهانة له ، ثم دقوا مساميراً ضخمة بأوصاله الاربعة حتى يلتصق بالصليب ، ثم رفعوا الصليب عن الارض و مشوا به وهو معلقاً و الناس من حوله يهللون و يلقونه بالحجارة و الصبية يسبونه و يكيلونه بوابل من اللعنات .. حتى إذا أتوا عند الارض الترابيه البعيدة المترامیه عند اطراف القرية و التي تطل على منحدر مخيف يلقي الناس فيه بقمامتهم و اوساخهم حفروا حفرة تكفي لثبات الصليب وبقاءه مرفوعاً حاملاً ذلك الغريب عليه ، ثم وضعوا الصليب بالحفرة و ردموا عليها حين تأكدوا أن الصليب ثابت لن يقع أو يختل . بدء الناس يضحكون و يهللون ويرقصون كالمعاتيه ومن أصابهم ضرب من الجنون .. يلتفون حول الصليب كطقوس وثنية كالحة . كان أكثرهم يحملون في أيديهم زجاجات خمر نتنه يشربون منها نخب قتل "الساحر" كما يقولون . الرجل فوق الصليب معلق و رأسه ملقاة على كتفه الايمن كمن استسلم للموت اخيراً .. ثم رفع الرجل رأسه وكأنه يعاند و يأبى أن يموت .. توجه بنظره ناحيتي .. عيناه داميتان مخيفتان و جسده ممزق من أثر التعذيب و أوصاله تضخ الدم ضخاً من أثر المسامير التي تربطه بالصليب .

"خضر ... خضر كسّر ف السفينة" .. هكذا قال لي الرجل .. ثم دخل في نوبة ضحك هستيرية كالمجانين . كيف عرف الرجل اسمي ؟ و عن أي سفينة يتحدث ؟ انا لم أركب البحر يوماً ولم تطأ قدمي اي سفينة فعن أي سفينة يهذي هذا الرجل ؟ ولم قد أقوم بتكسير سفينة يوماً ؟

دققت النظر في ملامح الرجل .. فانخلع فؤادي من مكانه و سرت قشعريرة مزعجة في سائر جسدي .. إنه ابي !!

توقف الرجل عن الضحك وبدا وكأنه سينذر الناس .. عاد مرة اخرى يصرخ بصوت جهور منذّراً بكلماته الغريبة غير المفهومة

"اليوم يوم الملحمة ..

الساعة الساعة ..

الحاقة الحاقة ..

الصاخة الصاخة ..

اليوم نكتب بأيدينا سطور الخاتمة ..

ايها الراكعون .. الخائفون .. البائسون

ايها الواقفون على عتبات الموت

هبّوا .. انتفضوا

اكسروا قيود الخوف المستوطنة في بواطن نفوسكم و خباياها

توحدوا .. تجمعوا .. ثوروا

ثوروا فإن الخبز لا يأتي بالركوع

ثوروا فإن الكرامة لا تسترد بالدموع

اليوم .. كل يكتب خاتمته بيده

اليوم ينجو من ينجو ، و يبعث من يبعث الى متون الجحيم ..

اسقطوا المقاصل .. وارفعوا الصلبان .. وادلوا بالمشانق ارجوحة للاعناق

الساعة حق .. الحاقة حق .. الصاخة حق
و الثورة حق ..
و الطوفان قاااادم .."
هتف أحد الواقفين بجزع "إن الساحر لن يموت .. احرقووه" ثم القى بزجاجة الخمر التي كان يحملها بيده على الرجل المصلوب فتشبع بالخمر جزء كبير من جسده .. ثم أتوا بجذوة موقدة باللهيب و أشعلوا بها جسد الرجل .. ثم عادوا يهللون ويرقصون كالسكارى المنتشين في لذة الخمر .. يهللون ويطوفون حول الصليب المشتعل .
نظر الرجل الي مجدداً ثم قال بصوت اختلجه بعض الرأفة ... "اهرب"
ثم مال برأسه للوراء واغمض عينيه .. و قد استسلم للموت اخيراً والنيران مضرمة في جسده تأكله دون رحمة .. دون شبع .
وسط كم الصياح و التهليل .. صدر صوت بائس خائف و مهزوز عن أحدهم وهو يقول ... الطوفاااان .
كان الرجل على حق .. الطوفان قادم .. والكل سيهلك . نظرت كما نظر الناس ، فإذا بأمواج ترتفع خلف البيوت متجهة إلينا .. الكل خائف و مذعور .. يتخبطون ببعضهم كالبهائم دون قدرة على التفكير لا يدري أحدهم أين المضي أو كيف الفرار من المصير المحتم الواقع بهم . أما انا .. فتسمّرت مكاني .. وفتحت ذراعي على مصراعيها مستقبلاً كل قطرة من

قطرات ذلك الطوفان غير مبالٍ أيميتني أم لا .. وما أن اصدمت الامواج بجسدي حتى أفقت من غفلتي ..
أكان حلماً ما حدث .. أم انني حقاً جننت .. ما عدت أعرف .."

٩

ذلك اليوم .. استيقظ خضر و زرقا فزعين على صوت جلجلة مرعبة تهتز من جراءها القلوب في الصدور . قام خضر يرتدي جلبابه الابيض متأهباً للنزول الى الحارة لمعرفة سر ذلك الصوت . أما زرقا فقد وصل بها الفزع أقصاه فوضعت يداها على أذنيها في محاولة بائسه لعدم سماع ذلك الصوت البشع المحمّل بالذكريات المريرة و العصيبة . القت برأسها تحت وسادتها وضغطت عليها بشدة ورأسها يعج بتساؤلات عن سبب قرع الجرس اليوم ؟ ولم اليوم ؟ . قد علمت من جيرانها أن المنارة وجرسها لم تستخدم منذ أمد بعيد حتى غدت معلماً و أثراً قديماً لا قيمة له سوى الذكريات الاليمة فلم تم قرعه مرة أخرى ..؟

بينما كانت زرقا تحادث نفسها كان خضر قد وصل الى المنارة واهل الحارة جميعاً معه متوجسون خيفة من فرمان جديد قد يقسم ظهورهم و يزيد بؤسهم بؤساً وشقائهم شقاء . توقف حارس المنارة عن ضرب الجرس بعد تأكده أن أغلب اهل الحارة قد تجمعوا .. ثم وقف على المنصة الرابضه

امام المنارة ومن خلفه وقف حاتم يحوطه حنتيرة و بندق و ليل طواغيت الحارة الاربعه كل يحمل نبوته بيده في هيبة ووقار .. ثم بدأ الحارس بإلقاء نص كتب في صفحة جلدية يحملها بيده :

"يا اهل الحارة .. أصدر رؤوف باشا الوالي والي المملكة وولي نعمتها قراراً بإلغاء الحصة اليومية من الماء .. "

سرى صراخ الناس و صوت احتجاجهم على الفرمان الظالم . وما صمتوا وابتلعوا السنتهم الا بعدما أشاح حاتم كبير الفتوات بنبوته في الهواء ثم جذب الحارس من أعلى المنصة ليسقط ارضاً ثم اعتلاها بنفسه ليقول لهم بلهجة حانية لم يعتادوها منه و لم تكن سهلة التصديق :

"يا اهل الحارة .. اعلموا فقط أن الكونت ما أراد و ما يريد لكم إلا الخير و ليس غير الخير غاية . فاصبروا .. فالصبر مفتاح الفرج"

على الرغم من أسلوبه الهاديء غير المعتاد مع أهل الحارة إلا أن احداً لم يعقب على كلامه وانصرفوا لاشغالهم وبيوتهم وقد امتلأ اكثرهم صدره غلاً و كرهاً للقرار و لمن أصدره .

****

"فريدة"

"لا زلت أذكر .. كنت على الشاطيء في ليلة مقمرة توّج فيها البدر ملكاً و التفت من حوله النجوم تسترق من ضياءه نفحات . هبت ريح خفيفة منعشة ارتطمت باستدارات جسدي الممشوق و انحناءاته فسرت به قشعريرة دافئة دغدغتني حتى خصلات شعري .

كنت جالسة على الرمال الناعمة البيضاء و حولي دائرة من شموع حمراء مضاءة تتراقص مع هبات النسيم القادمة من البحر . ارتميت بظهري للخلف و غصت في الرمال بجسدي حتى كدنا أن نلتحم . أخذت أتأمل السماء فوقي ببدرها و نجومها و بعض السحب المستترة على جانبي القمر من بعيد باستحياء كي لا تحجب نوره . لمحت بعيني شهاباً يهبط مسرعاً نحو الأفق مجهول المنتهى . رفعت يداي الى السماء نحو نجمة وكأنما أمسكها بين أنملات أصابعي و هي في غاية الصغر و الضئآلة .. أترى قد أصل الى تلك النجوم والى القمر يوماً ما .. أم انها محض خيالات ؟

بدءت السحب على جانبي القمر تقترب من بعضها اكثر فأكثر حتى اختفى نور القمر و توارت خلفها النجوم ، ثم هبت ريح عنيفة انطفأت على أثرها نيران الشموع و تطايرت حبيبات الرمال على جسدي . هممت بالقيام فإذا بي أعجز .. أقاوم و أقاوم ولكن ثمة ما يقيدني و يشلّ حركتي .. فأقدامي مغلولة بقيود بدت حديدية .. سمعت صوت تمتمة من حولي لكني لم أر أحداً .. كان الظلام حالكاً غطيساً عجزت فيه عن تمييز الاجسام لكني أكاد أجزم بأن أحد ما معي .. ليس فرداً .. بل أكثر .

فالاصوات مختلفة ما بين غليظ و رقيق و عال و منخفض . إنفضّ قوم كانوا تجمعوا حولي وتفرقوا تماماً كما تنفجر الفقاعات ، و كان تجمعهم قد أخفى ضوء الشمس عني .. ماذا ؟

الشمس .. متى بزغت ؟! و من هؤلاء القوم السود ؟ وتلك الخرق البالية الرثة التي بالكاد تستر عورات رجالهم فقط .! .. وما تلك الرماح في أيديهم .. ولماذا هم ملتفون حولي على هذا النحو ؟ وما تلك الاغلال بقدمي ؟

فزعت من تلك العشيرة فاقشعر بدني بأكمله و شعرت بالشيب يسري في رأسي .. تقدم كبيرهم وهو رجل مسن بلحية شائبة بيضاء و ظهر منحنٍ و عظام صدر بارزه و هو الوحيد الذي يرتدي إزاراً أحمراً حول خصره ، يحمل في إحدى يديه عصا و في الاخرى حبال سوداء ضخمة .. وقف الرجل عند قدماي و أجلسني ، ثم رفع ذراعيه الى أعلى و شخص ببصره في الفضاء ، ثم تمتم بكلمات لم أميزها في خشوع و رهبة و كأنما يلقي تعاويذ أو ترانيم لطقس مجهول ، ثم ألق الحبال نحوي فإذا بها أفاع و ثعابين ضخمة مخيفة تحبو تجاهي .. صرخت حتى جف حلقي و حاولت الفرار دون جدوى .. إلتفت تلك الثعابين حول معصميّ كلتا يداي و جذبوني الى الارض عاجزة عن الحراك .

تقدم ذلك الرجل نحوي مجدداً . كاد يلتهمني بعينيه من طول النظر و التدقيق . نظر الرجل الى الرجال و النساء العرايا من حوله و كشف عن

اسنانه بابتسامة ظفر و فخر فعلت أصواتهم بالتهليل و الصياح و الفرح .. أما انا فادرت وجهي خجلاً مما يحدث لي .

أشار العجوز بعصاته لصبي أشك في بلوغه فتقدم نحوي و همّ بتجديل خصلات شعري الشعثاء من فعل الرياح على شكل سنبلات منظمة . و كأنما خلق الفتى لذلك .. و كنت أنا أصرخ كالصرعى الممسوسين .

ابتعد الفتى عني بعدما غمزه العجوز بعصاته .. ثم نظر الي و كأنما يتفحص عمل الصبي أأتقنه أم لا .. عادت ابتسامته تعلو وجهه مرة اخرى دليلاً على أن الفتى قد أتم مهمته على أكمل وجه . نظر الى عشيرته و كأنما أعطاهم إشارة البدء بتلك الطقوس الغريبة .. فبدأوا يدورون من حولي و يرددون جملاً غريبة .. و أنا احملق فيهم عاجزة عن النطق أو الصراخ حتى . نزع كبيرهم إزاره و فرشه عند قدمي ثم وقف عليه و عاد يرفع ذراعيه للسماء ويشخص ببصره نحو الفضاء و أخذ يتفوه بكلمات بلغة مطلسمة مجهولة و العشيرة من حولي و حوله يزداد إيقاع كلماتهم و سرعة دورانهم أيضاً .. ثم فجأة .. توقف كل ذلك

تقهقر العجوز و عاد الى دائرة العشيرة التي أفسحت فسحة و ارتموا جميعهم على الارض يسجدون و يتضرعون بالبكاء .. ثم ظهر شيطانهم ذو القرون الطويلة البشعة .. و العيون الحمراء الدامية و الجسد الضخم المكسو بالشعر عن بكرة أبيه .. و كأنما كنت انا .. الاضحية .!!

مال ذلك الشيطان على جسدي ليثمن اضحيتهم .. تأمل بعينيه الداميتين كل تفصيلة في جسدي .. وبدت عليه علامات الارتياح و الرضا ثم اقترب بجسده مني اكثر .. فاكثر .. فاكثر حتى أحسست بلهيب أنفاسه تلفح وجهي كلظى المحرقة ، و هنا فقط .. عاد لي صوتي .. أغمضت عيني و صرخت بكل ما أملك من طاقة ..

فتحت عيني .. فإذا بشاكر باشا السباعي "زوجي" ينهال عليّ بقبلات كدت أن أستفرغ من قذارتها و قذارة رائحته .. لم أستطع أن أتوقف عن الصراخ .. خاصة بعدما نظرت الى وجه شاكر أكثر من مرة .. فيهيأ لي مراراً بأن الشيطان هو من معي و ليس شاكر .. أصرخ بهيستيريا في رعب و الخوف يجتاحني .. أما هو فيبتسم في ظفر ..

زوجي ..!

نعم . بهذه السرعة و بين عشية وضحاها أصبحت تلك البهيمة بعلاً لي . لست إلا صفقة أبرمها مع العاهرة الكبرى جولنار هانم . رأيتهما بأم عيني يهيمان في جو رومانسي دافء في إحدى حجرات القصر الارضية .. وهو ينقض عليها كثور هائج لا يعرف معناً للرحمة . و أخي في حجرته أسيراً لمفعول ذلك المسحوق الابيض الذي اسمرّت من جراء استنشاقه جفونه و ارتعدت اطرافه و تعكر مزاجه كلما بطل مفعوله و انتهى .. أصبح عبداً لهما .. كقطعة شطرنج يتلاعبان بها كيفما شاءا مقابل ذلك المسحوق العجيب الذي يتلوى أخي و يتذلل لهما في طلبه .

سمعتهما يتحدثان عنه .. و عن خططهما التي نفذت بالفعل و الخطط التي يعملون على تنفيذها متوارين خلف أخي المسكين . كانت آخر خططهم المنفذة هي الامتناع عن تقديم الحصة المجانية من المياه لشعب الحارة البائس لجني المزيد من الاموال الزائلة الملعونة . لم أصدق سمعي عندما علمت أن أخي هو من دسّ السم في كأس أبي بامر منها .. ضاقت بي الدنيا و كدت اختنق .

اه يا اخي المسكين .. لو أنك تستطيع أن تقلع عن تعاطي ذلك المسحوق الملعون و تعود لسابق عهدك وتنتقم لكرامتك من هاذان الوحشان معدوما الضمير و الانسانية . لن أنس ذلك اليوم .. تعبيرات وجهه عبوسة شاحبة و لسانه متلجلج و ثقيل و هو يتوسل إلي كي أرض بالسباعي زوجاً لي .. يتوسل . يبكي . و يقبل الارض تحت أقدامي ليحصل على موافقتي .. لم أستطع أن اعترض .. رأفت لحال أخي و بكيت بشدة و أضمرت في جوفي لأساعدنه في الاقلاع عن ذلك السم و الانتقام من كليهما .

وافقت مجبرة و عن كره نفس على الزواج .. أقيمت الاحتفالات بارجاء حارة العطشانين كافة ، و أتى المدعوّون من كل مكان للتهنئة و اقتناص الفرصة للتودد و التقرب من جولنار هانم و شاكر باشا .. اليدان الخفيتان الممسكتان بأطراف الخيط المعلق به دميتهم البائسة رؤوف باشا .

خفق قلبي بشدة و كأنما نما له جناحان من فضة و حلق بهما بعيداً عن جو الحفل الزائف و الحزن الكامن في أعماقي و ذلك عندما رأيت فارس أحلامي

و يقظتي و مستعمر خيالي و ذهني و شرودي و المسيطر بكل ما أوتي من قوة على قلبي و عقلي .. خضر

رأيته واقفاً مع الخواجة جوو في أول القاعة و كعادته متوارٍ قليلاً خلف الخواجه .. قمت من مجلسي الخالي من نصفه الاخر و هرعت اليه كالمجنونة دون أن أبالي لما قد يدور بخلد الناس أو قد يتفوهون به . فليقل من شاء ما شاء .. فحقاً ما عدت أبالي .

فزوجي مغموس وسط قبيلة من النساء أشباه العرايا .. و جولنار هانم تضحك مع ضيوفها الكرام و تحادثهم عن مشاريعها المستقبلية و سياسة رؤوف باشا الحكيمة في إدارة المملكة . و رؤوف بجانبها لا يفعل سوى أن يبتسم لضحكاتهم الصفراء و يطأطأ برأسه مصدقاً على كلام أمه الشمطاء المتسلطة .

وأخيراً التقت عيني بعينه .. ناديته باسمه فاحمر وجهه خجلاً . اااه .. كم اعشق وجنتيه حين توقد كالجمر من فرط الخجل ، مددت يدي اليه فلامست بيدي يده الخشنة من جراء عمله و الرقيقة من خجله و طيبته المرسومة بين خطوط يده . سحبته من يده و هرعت به الى الشرفة المطلة على حديقة القصر و النهر من وراءها ..

وضعت يدي برقة على فمه لأمنعه من التفلظ بأي كلمة ثم قلت له :

- صه ..! لا تنطق باي كلمة .. فقط .. اسمعني . انا لا اعرف عنك شيئاً .. من انت ، من أين جئت أو الى اين تمضي .. لا اعرف

تفسيراً عاقلاً لذلك الانجذاب الذي يجتاحني .. يدمرني .. يسيطر على كافة حواسي تجاهك . انا ما ذقت طعم الحب يوماً ولم أعرف له معنى .. فإن كان الحب هو تلك المشاعر الجميلة التي أحملها تجاهك .. اذا كان الحب هو أني افتقدك دائماً ولا أستطيع استكمال حياتي بدونك .. إذا كان الحب هو احساسي بالعجز و النقص في غيابك .. فأنا حتماً احبك ... احبك من رأسك حتى قدميك .. اعشق كل صغيرة و كبيرة فيك ، كل تفاصيلك ، كل خلية فيك .. احبها حباً جما . لا اطلب منك شيئاً سوى أن تبقى بجانبي .. فقط .. كن معي .

تلألأت عيناي بالدموع واختلج صوتي بالبكاء .. و إذا بابتسامة خجلة تعلو فم أميري وهو يمسح بيده الرقيقة الدافئة دموعي المنهمرة على خديّ دون أن ينطق بكلمة .. لا أعرف ما دار بباله وقتها .. أكان يظن اني مجنونة ؟ حقاً .. أنا مجنونة ، فأنّى لامرأة تترك عروسها ليلة زفافها لتخبر رجل غريب أنها تحبه .. هل صدقني ؟ هل أحبني ؟ أم أن ابتسامته تلك مجرد تعاطف ليس إلا !

حقيقة ما عاد السؤال يجدي نفعاً .. أما أنا فتزوجت .. و اما هو .. فقد ابتلعته الارض .."

١٠

أقيمت الافراح في أرجاء الحارة كلها و علقت الزينة و الانوار و الاعلام و غطت الرمال و الورود مداخل الحارة و مخارجها . تزينت النساء و ارتدين ثياب البهجة والسرور و تألق الرجال في ثيابهم وجلابيبهم الفخمة الانيقة و العمم الناصعه و الشوارب المهذبة و النبابيت المهيبة وكان كل ذلك احتفالاً بزفاف ابن الحارة البار و محبوب أهل الحارة أجمع .. خضر ذلك الشخص الذي قطن أفئدة الحارة كلها صغاراً و كباراً .. فما من أحد رآى وجهه البشوش الابيض إلا و انشرح له فؤاده و أحبه . فما رأوا منه إلا أخلاقاً حميدة ورثها عن ابيه الشيخ الثائر نور الدين و رحمة جلية اقتطفها من قلب زرقا .. تلك الرحمة التي جمعت قلوب أهل الحارة على حبه حين رؤوه يساعد ضعفائهم و مسنيهم و فقرائهم خلسة دون مقابل على غير علم من ابو شامة او حاتم وذلك بعدما منع الوالي حصة الماء المجانية . في الوقت الذي تكبر فيه سقائي الحارة عن مساعدة المحتاجين ولو بكوب ماء .. و لو برشفة صغيره خوفاً من بطش الوالي و فتواته ، كان خضر هو من يلبي استغاثاتهم دون حتى أن يطلبوها منه . فتلك عجوز فقيرة تشحذ على باب مسجد الحارة و قد تشققت شفتاها من حر الشمس ولا تملك مالاً يكفي لريها .. فيفيض عليها خضر بكأس مياه يروي ظمأها و يكفيها .. تلك الرحمة النابعه من أعماقه و الظاهرة في أفعاله و كلماته الرقيقة المنتقاه كانت سبباً في علو مكانته بين أهل الحارة ، فلم يكن

في ناظرهم سقا يبيعهم الماء و حسب .. بل كان ابناً و أخاً لهم و ساتراً لعورات بيوتهم إذا انكشفت سهواً أثناء بيع الماء لهم .. فكم من مرة غضّ خضر بصره أو وضع ناظره في الارض خجلاً و حياءاً بعدما انكشف الحجاب عن نساء احدى بيوت الحارة خطأً أو سهواً . مواقف ومحطات عديدة مر بها خضر و أسكنته ردود افعاله الطيبة قلوب اهل تلك الحارة . فها هم يفرحون معه و يقفون جانبه لمشاركته في فرحته و ليلة عرسه على حبيبته التي عشقها حد الجنون زينب . لم يمر على حبهما الكثير حتى تقدمت زرقا الى بيت اهل زينب تطلبها لابنها الوحيد شريكة له و زوجة صالحة تعينه في امور دنياه و دينه على حد سواء .

الكل اليوم مجتمع يرقص و يغني ويهلل .. حتى أوباش الحارة و أوغادها الاربعه يرأسهم حاتم و معه أبو شامة حضروا العرس و رقصوا و هللوا ، فقد نال الفتى مكانة في قلوبهم ايضاً و إن كانت قلوبهم قاسيه عن من سواهم .

وقفت زرقا ترقب العروسين من بعيد وهما في أزهى صورهما .. عينيها تلألأ بدموع سخينة حارة نبعت من أعماق أعماقها . عيناها ترقبه .. تحتضنه وهو في مجلسه .. هذا صبيها المدلل الحنون قد شبّ رجلاً و ها هي زوجته تجاوره في مجلسه كما سترافقه طيلة عمره .. كانت تحمل في يدها قدراً به ملح .. ترمي به أمام العروسين و تهتف بنبرة فرح باكية "ملحة في عين من لا يصلي على النبي" .. اليوم لا شك من أسعد أيام عمرها ..

نشوة البهجة تتغلل في كل خلية فيها .. تزينت في ثوب من السعادة الغامرة و تحزمت بدموع الفرح و أطلقت العنان لجسدها يرقص ولأول مرة أمام عيون غير عيون الشيخ نور الدين .. ولمن سترقص بعد الشيخ إلا لخضر .

قضيت الليلة ، وانتهت مراسم العرس و السعادة قد حوت الجميع بلا استثناء و آوى الجميع الى مخادعهم .. و صعد العروس و زوجه الى عشهم وقد أصرت زرقا ألا تبيت تلك الليلة في البيت كي ينعما بحريتهما معاً دون حرج .

جلست زينب على الفراش و الخجل قد أوقد في وجنتيها جمراً يزداد لهيبه كلما لمحت نظرات خضر اليها يتفحصها ويتمتم بصوت خفيض "سبحان من صور فيك الجمال و الحسن فأحسن تصويره" .

جلس خضر بجوارها و رفع عن وجهها ستره ببطء تعلو شفتيه ابتسامة منيرة لمعت منها عيني زينب .

قام خضر من مجلسه فجأة و وضع كلتا يديه خلف ظهره ليداري رعشة القلق الواضحه فيهما ثم قال لعروسه بنبرة مهزوزة :

- هيا بنا ..
- إلى أين ؟؟
- لنصلي ركعتين شكراً لله على تلك النعمة التي رزقني بها

أمَّ خضر زوجته في الصلاة .. وحين انتهى ، استدار اليها ووضع يده برقة على جبينها و اخذ يتمتم .. " اللهم إني أسألك خيرها و خير ما جبلتها عليه .. و أعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه .. آمين " .
تلألأت عيون زينب و اغرورقت حتى فاض الدمع على خديها .. ثم همّت بدلال في خطواتها ، فوضعت يدها هي الاخرى على جبينه و تلت الدعاء ذاته .. و ما إن قالت آمين حتى غطست مع خضر في بحر من اللذة الممتعه .

****

هكذا .. تجري بنا الايام بما تحمله في طياتها من أفراح و أتراح ، فنفرح تارة و نحزن اخرى .. لكن لا نمل . مضت الايام و لازال بيت خضر موقد أنواره في الليل لنغمات عود الشيخ عثمان الساحرة و نكات الخواجه جوو الساخرة المرحة . يتجمعون جميعاً مع خضر و زرقا و زينب التي آلفت لياليهم المكتظة بالاحاديث الممتعه و الذكريات السعيدة والاليمة .
ابتسمت الحياة لخضر من جديد .. كان في أوج فرحته حين أخبرته زرقا بأن زينب حبلى .. و نادته لأول مرة بـ"ابو نور الدين" .. لم يتمالك نفسه و السعادة تغمره و قلبه ينبض أفراحاً لها إيقاع موسيقي مسموع ترقص عليه الدنيا من حوله و تتمايل .

ذات ليلة .. في جوف الليل وفي غياهب ليلة ظلماء تكاسل فيها القمر .. سمع خضر و هو في فراشه قرع خفيف على باب داره . فهبط مسرعاً كعادته و دار بخلده أن الطارق ربما يكون عابر سبيل يسأله الطريق أو ما يعينه على الطريق و مشقته . فتح خضر الباب و قد اعتلت وجهه تعبيرات الاندهاش عندما رأى بالباب آخر من يتوقع ..

- فريدة هانم !
- كيف حالك يا خضر .
- الحمد لله .. خير
- أريدك ..

كانت فريدة هانم هي الطارقة ..كانت ملثمة .. ترتدي رداءاً أسوداً طويلاً له غطاء رأس اختبأت به من أعين قد تصادفها .

- خير إن شاء الله ؟ لم أنت ملثمة هكذا ؟
- حتى لا يعرفني أحد . إني أريد مساعدتك
- انا ؟ عن أي مساعدة تتحدثين !
- رؤوف اخي ..
- ما به ؟
- لقد هوى في بئر ادمان مادة تسمى بالكوكايين .
- ماذا ؟ و أين جولنار هانم..

- قبل أن تكمل .. هي و شاكر السبب في ذلك
- و ما السبب !
- ليحكما المملكة من خلف الستار ..
- يا إلهي .. أي زمن هذا الذي نعيش فيه

تسائلت بنبرة حانية مترجية :

- أستساعدني !

سكت خضر للحظات و كأنما يتفحص الأمر و أثاره جيداً لتكرر فريدة السؤال بلهجة أكثر تذللاً و رجاءا :

- خضر .. أرجوك ساعدني

فقال خضر بلهجة حازمة و قد حسم أمره :

- إني رهن إشارتك دائماً . ولكن كيف ؟
- كان في قصرنا قديماً خادم يدعى سيد . هو من تكفل برعاية رؤوف منذ صغره حتى نضج . يسكن الآن في حارة تسمى بحارة النجاشي تقع بالجانب الآخر من النهر .. أريد منك فقط أن تنقل رؤوف بقارب صغير إليه .
- و هل سيوافق الكونت على هذا الامر ؟ و ماذا بشأن جولنار و شاكر !
- بالطبع لا .. سأتكفل أنا بأمر رؤوف . أما جولنار و شاكر فسيغطون مع كل من في القصر في نوم عميق .

- و أنا سأنتظرك بالقارب على مقربة من الحديقة الخلفية للقصر . و لكن متى سيحدث كل هذا !

- غدا بمشيئة الله .. إني شاكرة لك على ذلك .

- لا شكر على واجب .. فالكونت له من الافضال الكثير .

قال خضر بلهجة مغايرة :

- ثواني ..

دخل خضر الى البيت مسرعاً و عاد يحمل في يده وعاءاً به بعض من الفاكهة المختلفة .

- ما هذا !

- حتى إذا سألني أحد من الدار أجيبهم بأنه عابر سبيل يبتغي الطعام

ثم قال مازحاً ليقلل من توترها الذي تجلى في وجهها :

- و أيضاً ليكون بيننا عيش و ملح .

ابتسمت فريدة و ابتسم معها خضر و خالجها شعور بالارتياح ، ثم قالت بنبرة بها قليل من الاستياء .

- مبارك على الزواج ..

لم ينطق خضر و لم يجبها .. فقط أدار وجهه خجلاً من عينيها الدامعتان و قلبها الذي تعلق به دون أي ذنب له أو لها ، ثم ما لبث أن نظر إليها مبتسماً و قال :

- متأخرة قليلاً ..

ابتسمت فريدة هانم و ابتلت وجنتيها بدموع فرت خلسه من عينها ، ثم لثمت خده بقبلة حارة سريعة و هرعت ذاهبة من حيث أتت .

****

بعد يومين .. في قصر الوالي .

دخلت جولنار هانم مفزوعه شاحبة الوجه مهزوزة الاطراف مندفعة الخطى الى غرفة مكتب شاكر باشا في قصر الوالي والتي خصصها لنفسه يقرأ فيها احياناً و يتكلم في الهاتف بالساعات أحياناً اخرى .

- شاكر .. كارثة .. كارثة كبيرة .
- خير يا حبيبتي .. ماذا هناك !
- رؤوف ..
- ما باله الأحمق الصغير !
- اختفى و كأن الأرض قد انخسفت به .

فقال الرجل بنبرة ساخرة و هو ناظر تجاه السماء :

- اللهم لك الحمد .

فقال جازعة من رد فعله المستفز :

- ما الذي تقوله ..

- أقصد أنك قد أعطيتي للموضوع أهمية أكبر من المفروض . فليس بصغير كي يختفي و يتوه .
- بالفعل قد أصبح كالصغار منذ أن ناولته بيدي ذلك السم القذر

نظرت ليديها بتقزز و أعين دامعه و هي تقول :

- تلك اليدان الملعونتان ..
- أالآن أصبح سماً قذراً ! ثم ما سر البكاء و الندم . أليس هذا ما ابتغيناه في بداية الأمر !
- اتفقنا أن نسيطر عليه لا أن ندمره
- سبحان كاتب الأقدار .. فتلك مشيئته
- و ما الحل الآن !
- لا شيء
- كيف ! .. لو علم اللورد باختفاءه ليس بعيداً أن تنتقل السلطة ليد رجل آخر .
- لا تقلقي بشأن اللورد .. إنه أعز صديق . أما بشأن اختفاء سي رؤوف فهو من مصلحتنا .
- كيف ذلك ؟
- لقد خلى الملعب إلا من كلانا . فلنلهو كما نشاء و المسمى أمر السيد الوالي - حفظه الله و رعاه –

ثم استغرق في الضحك لثواني دون أن تبادله جولنار نفس الضحكات و قالت بجزع :

- إني خائفة
- لا تيئسي عزيزتي . تعالي .. تعالي نشرب سوياً

****

بعد شهر ..

في كوخ خشبي قديم ، في حارة النجاشي . دخل عم سيد غرفة رؤوف باشا المكونة من سرير حديدي مرتفع و نافذة حديدة لا تسمح بالخروج منها . كان يحمل في يده صينية نحاسية تحمل اطباقاً من طعام مختلف الوانه و مذاقه .. عسل و جبن و حليب و خضروات و بعض الفواكه من اجل رؤوف باشا الرابض في الفراش منذهلاً شارد الذهن يتفحص ببصره كل شيء حوله كأنما عاد من حقبة زمنيه مختلفه . طالت لحيته حتى بدا منظره موحياً بالاستعطاف و الأسى و أظافره متسخة و حادة و ملابسة ممزقة و ممزقة من أثر انفعالاته في أسوء أيام علاجه على الاطلاق . فكان كلما اشتد اشتياقه للبودرة المشئومة و زاد احتياج جسده لها . ارتفع صوته و بدءت نبضات قلبه تتسارع و عينيه تبدء

بالجحوظ و الاحمرار و لحظة بعد الاخرى يبدأ مارد الجنون يمسه فيتخبط في الارض و الجدران و يلقي بأي شيء تطوله يده . يسب و يلعن الاشخاص و الاشياء و الاقدار . حتى إذا استيأس منه خضر وعم سيد ولم يقووا على تهدءته و احتواءه ، تكاثروا عليه و استقووا حتى يدخلوه في غرفته ، ثم وبسرعة يهرولون خارجها موصدين الباب خلفهم بحزم كي لا يحاول الهرب . فيظل المسكين في غرفته يبكي و يصرخ و يحك بأظافره الحادة كامل جسده حتى يسيل الدم منه . يتلوى في الارض من شدة الالم و كأنما عقارب تعبث في لحمه تحت الجلد و لا حول له ولا قوة . يظل على تلك الحالة حتى يسرقه النوم من طغيان الالم رأفة لحالة و رحمة به .

أيام عصيبة بدت متشابه في نظره مرت عليه بهذا الحال السيء .. لكنّ بعد العسر يسر ، و بعد الليل الكحيل لا بد أن يبزغ الفجر و تطلع الشمس تمحو عن الكون ظلمة الليل و كئآبته . فبدءت حالته تتحسن يوماً بعد يوم ، وبدأ جسده يتعافى و يتماثل للشفاء حتى نسي مع الوقت مفعول تلك المادة الخبيثة . عادت شهيته من جديد للطعام منذ غياب طويل .. فكان لا يأكل الا لقيمات عاجزات لا يقمن صلبه . أما الان فقد عاد يأكل و يشتهي اصنافاً من الطعام مختلفة .

- الطعام أيها الكونت .

ابتسم رؤوف ابتسامة حالمة و قال بأدب جم :

- ما عاد بالأمر كونت أو باشا .. فقط رؤوف ، الصبي الذي توليته برعايتك يا عم سيد .. فانت كوالدي بل أجلّ .
- أعز الله مقدارك .. العفو يا ولدي . والآن لتأكل الطغام كله حتى تسترد صحتك و عافيتك كسابق عهدك .
- حاضر يا عم سيد .. اين خضر إذاً ؟
- من يناديني ؟؟

كان هذا صوت خضر . طرق الباب و دخل وهو يمازح رؤوف باشا محاولاً إخراجه من حالة الكآبة التي ألّمت به واحتوته ، و إضفاء جو من البهجة و المرح عليه .

- صلى الله على الحبيب .. لقد تبدلت حالك لأفضل .
- الفضل لك في ذلك .
- اولاً الفضل لله ثم لعم سيد .. لقد رأى منك ما لم يره في حياته ..

ضحك خضر و الجميع معه ثم أردف الكونت :

- لقد كان المرء في عالم آخر غير عالمنا .. أرجو الصفح و المعذرة يا عم سيد .

ثم بدل نبرته من تأسف لمزاح موجهاً حديثه لخضر :

- و ثانياً يا خضر باشا !
- ثانياًيحق الشكر لفريدة هانم .. فهي من انتشلتك من ذاك البئر العميق المظلم .

- فريدة !

قالها رؤوف وهو يستطعم حروف الاسم للمرة الاولى في حياته . وكأنما احس بمذاق غريب في فمه وهو ينطق اسمها . كم احبها حقاً ، وكم كانت ابتسامته جميلة نضرة دبت في وجهه الحياة و أزالت عنه الشحوب و البؤس عندما رآها واقفة امامه . فهب من مجلسه وكأنما ما أقعده شيء و هرع اليها يحتضنها بحرارة وشوق المحبين وليس الاخوة . يعتصرها بين يديه ويبكي من أثر فراقها لشهر كامل .

- لندع لهم بعض لحظات من الخصوصية يا عم سيد .

قالها خضر بخجل وهو يربد على كتف عم سيد للخروج من الغرفة مفسحاً المجال للاخوين ليطفئا لهب الحنين الموقدة بينهم و ينعما بفسحة يتكلما فيها على راحتهما دون خجل .

- لا .. فلستم بالأغراب .

قالت فريدة وهي تنظر نحو خضر بدلال و في عينيها لمعة برّاقة :

- ما كان يوماً بغريب ..

إحمرّ وجه خضر ونظر في الارض قليلاً .. ثم تنحنح وقال بنبرة مازحة موجهاً كلامه لعم سيد :

- ألا نخرج لنلتقط حلاقاً ماهراً يعالج تلك اللحية التي تلاعبت بوجه الكونت الكريم .

فقال عم سيد وهو في غاية السعادة ناظراً الى رؤوف باشا :

- حلاق و أنا موجود .. و هل كان يحلق له في صباه احد غيري !

فابتسم رؤوف باشا قائلاً :

- الا زلت تذكر تلك الأيام البعيدة .

- بالطبع بني .. إن زهرة أيامي نمت و تفتحت في قصركم .. أيا ليت تلك الأيام تعود .

- ستعود يا عم سيد .. ستعود

هنا قاطعهم خضر مازحاً وهو يقول :

- إذاً انتم متفقون على أن من سيقوم بالحلاقة هو عم سيد ..

فأومأ الجميع برؤوسهم ايجاباً ، فقال خضر معقباً :

- عوضنا الله عن الوجه الجميل .

فضج الجميع بالضحك على مقولته تلك والتي أضفت المزيد من البهجة و السعادة في نفوسهم جميعا .

تأهب عم سعيد و رؤوف باشا للحلاقة ، وخرج خضر الى الخارج تبعته فريدة بلحظات قليلة .كان جالساً على عتبة الباب في الخارج ينظر الى المارة في الشوارع و وجهه عبوس من أثر الشمس . جلست فريدة هانم بجاوره واضعة يدها على كتفه و قالت بدلال :

- هلا أجلستني بجوارك ..

أفسح لها خضر في المكان فسحة تكفيها و يزيد ، ثم التفت إليها قائلاً :

- هل لي بأن أطرح عليكي سؤالاً

- سل
- من دلّك على عم سيد !
- لقد كان بالقصر عندما قدمت إليه . كنت أرى في عينيه حباً و مودة حقيقية تجاه أخي . و كأنه هو والده بحق و ليس مجرد خادم موكل بتربيته و رعايته . حقيقة لم اتفاجىء عندما طردته جولنار هانم بحجة أنه قد صار شيخاً كبيراً لا يقو على العمل ، فقد كنت على يقين أنها تدبر لرؤوف مكيدة كان عم سيد ليشكل عقبة لها .
- و أنتِ ؟
- انا ماذا !
- أما رأت جولنار أنك أيضاً قد تشكلين عقبة في طريق مكيدتها !
- كنت في أول مقدمي وحيدة و منطوية على ذاتي لا أغادر غرفتي إلا قليلاً و لا أحدث أحداً إلا نادراً . أرى أن في ذلك ما طمئنها من جانبي دون أن تتخل عن الحذر و لكن الله سلّم .

التقطت أنفاسها و تبدلت ملامحها لتبدل نبرتها عندما قالت بمرح :

- و الآن جاء دوري لأسئلك ..
- تفضلي ..
- لم تجلس وحيداً هكذا !
- لتحصلوا على راحتكم دون تأفف من وجودي ..
- راحتي معك انت .

احمر وجهه و تلعثمت الكلمات على لسانه فلم ينطق . فوضعت يدها على يده حريصةً على أن تختلط أصابعها معاً ، ثم أدارت بيدها الاخرى وجهه ناحيتها حتى تلاقت عيناها بعينيه وقالت له :

- أُحبك
- خطأ كبير ..
- لماذا !
- إني متزوج .. وأنتِ كذلك
- سيطلقني منه رؤوف عندما نعود إلى المملكة . لقد تزوجته رغماً عني و ما كنت لأرض به مطلقاً .. ما كنت لأرض بزوج غيرك .
- غيري أنا ؟
- نعم .. أنت .. انت من ملكت قلب و عقلي و اجتحت كل خيالاتي و أحلام منامي و يقظتي .. انت و فقط يا خضر .
- انا حقاً آسف ولكن ..

لم يكمل خضر كلمته .. فقامت فريدة بالتقام شفتيه وتقبيله قبلة فرنسيه الطباع حارة المذاق أذابت جبال من الجليد المستوطنة في داخلها . وضعت يديها الاثنين على يدي خضر لمنعه من الهرب ، و أطبقت شفتيها بإحكام على شفتيه و أغمضت عينيها ، ثم هامت في دنيا تعشقها حد الادمان . لم تكترث لرد فعله مطلقاً ، كما أنها لم تكترث أيضاً لما قد يتفوه به الناس و المارة الناظرين اليهم جيئة و رواحا .

أما هو فكان منذهلاً و عينيه مفنجلة من المفاجأة . و إن كانت مفاجأة لذيذة بعض الشيء بالنسبة اليه ايضاً . فعلى من يضحك !

ألم تتحرك بداخله أيضاً فيض من المشاعر تجاهها ولو كانت قليلة . ألم يرها في أحلامه مراراً ومراراً . ألم ينادي زينب باسمها ذات مرة عن طريق السهو و الخطأ وادعى التلعثم في ذلك الوقت وأخذ يتهته و يسعل . حتى انه لم يعترض ، ولم يصدها ولم تصدر عنه غير تعبيرات الاندهاش لبضع لحظات ثم أغمض عينه هو الاخر و هام معها في دنياها الساحرة ولكن لثوانٍ قليلة فقط ..

صوت صراخ غاضب أخرجهم من نشوتهم المشتركة و أيقظهم من أحلامهم الممنوعة ، وما كان هذا إلا صوت رؤوف باشا يزمجر في غضب شديد و قد احتقن وجهه الحليق الناعم من هول ما رأى و قال بصوت جهور غاضب :

- ما الذي تفعله أيها الحقير !

تسمّر خضر مكانه و تملكه الخجل فأومأ برأسه ناظراً الى الارض ، ولم يضع في حسبانه أن يهجم عليه الوالي في نوبة غضبه العارمة محاولاً إيذاءه قدر ما أمكن . لكن فريدة وقفت عقبة في طريقه تمنعه من المساس به و ترجوه بالدموع و النحيب و إلقاء اللوم على نفسها وليس خضر لتحاول تهدءته دون جدوى . وهنا أصدر الكونت قراره بشأن خضر :

- ارحل .. و احذر أن أراك و لو صدفة

هرب خضر في لحظته .. وانساق خلف أقدامه نحو المجهول وحيث لا يدري .. هرب دون أن ينظر خلفه ولو لوهلة .. ولو للحظة سريعه . لم يكن هروبه خوفاً من بطش الوالي ، ولكن استحياءاً من فعلته الشنيعه التي اقترفها عن غير قصد . لم يفكر حينها بفريدة التي تسمّرت مكانها هي الاخرى تبكي بحرقة على ضياع حبيبها .. لم يفكر في زرقا التي لا تملك في دنياها غيره .. لم يفكر في زينب زوجته التي لم يمض على زواجهما الا شهور قلائل ، حتى أنه لم يفكر في وليده القادم .
فقط انساق وراء قدميه و هو لا يدري الى أين يمضي .

١١

"الناس من هول الحيااة .. موتى على قيد الحياة" .. !

بالله ما أعمقها جملة تلخص معاناة الكثير و الكثير من الناس السابحون في فلك الحياة الدائر دون توقف الى ما شاء الله له . يعيشون كما الدواب للأكل والشرب و النكاح . و لما تناسوا ما قد خلقوا لأجله انتشرت الفتن و الجرائم و انحطاط الاخلاق و انعدام الضمير ، فهذا يسرق و الاخر يقتل و ثالثهم يكشف عورات إيماء الله ، أما هذه فتكذب و الاخرى تغتاب و ثالثتهم تمشي بالنميمة بين الناس و كل في فلك يسبحون ..

ما أعجب الناس .. و ما أطرف ذلك الموقف الذي يحمل في أعماقه درب من الكوميديا السوداء فتضحك حتى البكاء .. حتى تمتزج دموع الضحك بدموع الالم و التأسف . عندما يجتمع الطبيب المستغل و التاجر المطفف و الجزار الكاذب و الفتوة الظالم مع معلم القهوة اللص يشكون جميعاً من تقلب أوضاع الحارة و انحدارها للاسوء .. يبكون على معيشتهم و تبكي المعيشة من دناءتهم و دناءة أعمالهم .. وما خارج تلك الحسبة الا المستضعفين من البسطاء و الفقراء الذين لا ناقة لهم ولا جمل في تلك الحارة المشئومة .. ولأن لكل قاعدة ما يشذ عنها ، فحتى المستضعفين في الحارة يستقوي بعضهم على البعض الاخر الاقل في الضعف . فيتزاحمون على ملقى القمامة و مخلفات الناس بحثاً فيها عن ما يصلح لسد فيه الجوع و إسكاته .. يتضاربون على أماكن الشحاذة في بداية الاسواق أو على أبواب المساجد أو حتى في الطرقات .. وهكذا تضيق دوائر الانقياء في الحارة حتى آلت الى العدم .. في الوقت الذي أخذت فيه دوائر الظلم في الاتساع الى حيث لا يوجد نهاية .

بعد خمس سنوات ..

انقلبت الاوضاع في الحارة من سوء الى أسوء .. عاد رؤوف باشاً الى الحارة بعد غياب شهرٍ كامل أو يزيد ولا علم لأحد من أهل الحارة بسر

اختفاءه . عاد و كشّف عن وجه بشع ذو أنياب مدببة دامية و أعين عطشى للأنتقام و الثأر و قد امتلك زمام الأمور في قبضة من فولاذ لا ترد ولا تقاوم .. تهوى على الرؤوس فتنفلق وعلى النبابيت فتنكسر .. تبطش بالجميع دون استثناء . ولعل أول من طالتهم تلك القبضة و أبرزهم هو شاكر باشا السباعي . الذي لقي حتفه في القصر فور عودة رؤوف مباشرة و الكل يجهل كيف مات .. و لماذا !

يتكتمون و يتصنع الجميع أذناً من صوّان و عيوناً بيضاء فما عادوا يكترثون لما يحدث حولهم .. أو حقيقة يكتفون بالحديث في جوف الليل همساً على خوف من نبابيت الوالي التي كثر حمالها في الحارة بين عشية و ضحاها . يصفقون من خلف الستار وهم يهتفون .. ظلم الظالم عدل .

تتناقل السنتهم الحكايات المتزايدة مع تزايد رواتها كل يوم . منها ما هو حقيقي ومنها ما التبس مع خيالات أحدهم . يقولون أن رؤوف كان مدمناً و يقولون أنه كان مسحوراً .. ومنهم من يقول أن شاكر انتحر خوفاً من رؤوف و منهم من يقول أن رؤوف هو من قتله .. و منهم من يقول أن رؤوف بلغ به الجنون أقصاه و السفه الى أعلى المراتب حتى بات الجميع يخشاه كخشية أبويه من قبل مختار و عابد الوالي .. حتى أنه بات قاسي القلب جاف الطباع مع أمه .. وكما يروي أهل الحارة على لسان أحد حاشية القصر بأن الكونت غدا يعامل أمه كالعاهرات بعدما نسي أنه يوماً خرج من رحمها و هي لا حول لها ولا قوة .. هكذا و علانية أمام الخدم

و عوام القصر كما تتناكح الحمر و البهائم . بوجه تعلو ابتسامة ظفر و سخرية و عيون يملأها الحقد و الكراهية . فإذا ما بلغ منتهاه منها ضربها بعنف و هو يصفها بالعاهرة لأنها وهبت جسدها من قبل لشاكر و يلقي عليها بالنقود كما العارهات في حانات الحارة و هي تبكي من الدموع أنهاراً مالحة لا تروي عطشاً ولا تنبت زرعا . يقولون بأن تلك المرأة لم تتحمل ما يحدث فيها من إهانة و اغتصاب حيواني شبه يومي من وليدها الوحيد الذي سبق و ألقته بيدها في بئر التهلكة وهي لا تفكر الا بنفسها . لم يتحمل عقلها ما يحدث .. فبدءت أبراجه تتطاير واحداً تلو الاخر حتى أدركها الجنون و ابيض شعرها و أخذت نوبات الضحك الهستيرية تزورها يومياً .. تهذي بكلمات غير مفهومة ثم تضحك .. تجري كالذي أصابه مس من الشيطان ثم تفترش الارض فجأة و تضحك .. تلقي بالطعام على الخدم و على الارض و تضرب به على وجهها في نوبة بكاء مخيفة تتغير من جراءها الوان وجهها من شاحب لأحمر ثم أزرق .. ثم تشق ثيابها بعنف دون مبالاة بالوقوف حولها ثم تعود مجدداً و تضحك .. بات هذا حالها على مدار الايام لا يتغير الا للأسوء فقط .

لم يرءف لحالها احد ، ولم يرق لمنظرها قلب و لم تدمع لها عين .. يكتفي الخدم بالمشاهدة من أماكنهم .. و رؤوف قد نسي أنها امه تماماً فباتت علاقته بها تتلخص في الصراخ و التنكيل و الاعتداءات المختلفة حسب الهوى .. تنتصب شعيرات رأسه الخفيفة و يتوهج وجهه كالجمر و تعلوه

تلك الابتسامة البشعه المخيفة التي تزداد كلما رآها تذرف من الدموع ما لا يحرك في فؤاده ساكناً و يسمع من توسلاتها ما يضعها موضعاً للسخرية و الإزدراء و التذكير بآثام الماضي ، و كأنما يستلذ بذلك . لم يبك على حالها إلا فريدة .. طيبة القلب الرحيمة التي ورثت نقائها عن أمها . هي فقط من كانت تجروء على الوقوف في وجه رؤوف معترضة على ما يحدث لأمه و ترجوه حتى يتركها .

ذلك الشيطان الهارب من متون الجحيم على حين غفلة من زبانيتها ينقلب ملاكاً رقيقاً و طفلاً وديعاً أمام كلمات فريدة اللائمة و وجنتيها الموقدة و دموعها المعاتبة .. فيطقطق رأسه الى الارض كالأطفال و تدمع عيناه حين يسمع صرخاتها له و اعتراضاتها على تصرفاته . فينصرف ووجهه في الارض خجلاً من نظراتها و يترك لها المكان .. فتهرع الى جولنار بأعين دامعه و قلب يكاد ينخلع رأفة لحالها تساعدها على النهوض .. فتسحبها بمساعدة إحدى الخادمات الى حمامها الخاص بغرفتها في الطابق العلوي بالقصر فتقوم بمساعدتها على الاغتسال فإذا ما انتهت ألبستها من ثيابها الخاصة ثم تطعمها بيدها و تحادثها كالأطفال حتى يأخذها النوم في ملكوت آخر اكثر رحمة من هذا العالم القاسي .

بالله ما أرحم ذلك القلب الابيض كبياض خدود الفل .. و الناطق مع كل نبضة باسم حبيبه خضر . خمس سنوات غائب عن الحارة و لم يغب عن وجدانها و لو لوهلة صغيرة . يزورها يومياً في أحلامها التي باتت

تهرب اليها خوفاً من واقعها المرير المؤلم ، فيتقدم اليها بعباءته البيضاء الناصعه و شعره يتطاير مع نسمات الهواء المنعشة و لحيته التي تعشقها كما تعشق كل تفاصيله الصغيرة قبل الكبيرة .. يتقدم اليها راكعاً ليلثم يدها بقبلة دافئة تتذوق فيها شفتاه دفء أيديها و تستنشق أنفه عبير المحبة النابع من كل خلية فيها ، ثم يقف و ينظر اليها و أعينهما متقابلتان .. يتفحصها كما أنه لم يرها من قبل ، ينطق لسانه بكلمات معسولة ، يتغزل بها وكأنما هي الانثى الوحيدة في الوجود .. ثم تحين اللحظة التي طالما انتظرتها في يقظتها و لم تأت أبداً . فتنطق شفتاه بحروف الكلمة ..

" أ ح ب ك "

في صوت خفيض يقشعر منه جسدها بأكمله .. فتصحو من غفلتها و هي تنطق رداً عليه بأنها هي الاخرى تعشقه .. تدمنه .. تعبده لو استطاعت أو لزم الأمر . تبتسم ابتسامة حب نضرة مضيئة ، ثم تنظر حولها و تتذكر أن ما ذلك كله إلا سراب و محض خيالات عابرة فتختفي ابتسامتها تدريجياً .. و بسرعة تمسح بإصبعها تلك الدمعة الفارة على خدها ، ثم تنظر الى الافق اللا متناهي من نافذتها و تردد في نفسها همساً ..

متى ألقاك !

****

على الطرف الاخر من النهر .. و في الجزء الثاني من حارتنا .. مرت الخمس سنوات العجاف مروراً ثقيلاً حافلاً بالمرارة و الأسى .

خمس سنوات كانت كافية و زيادة لتطاير أبراج عقل زرقا تماما . ما عاد لها ذكر سوى خضر . تمشي في الاسواق و في الطرقات و في المقاهي و في كل شبر من أرض الحارة . تسأل هذا و ذاك .. تسأل البشر الذين تعاملوا مع خضر و القلوب التي أحبته . تسأل الحيوانات التي كان خضر يسقيهم رحمة بهم من قسوة حر الصيف . تسأل التراب الذي كان يخطوه خضر بقدميه .. أين بحق الله خضر !

".. أما رأى أحد خضر! .. يا ناس، يا خلق ، يا اهل الله و اهل المروؤة و الحلم أما رأيتم ولدي خضر! . أين هو؟ أين بلاده؟ كيف ينعس جفنه و أنا يقظة من خشيتي عليه! كيف يشرب و لا زال الجفاف بحلقي منذ غيابه ! أما رآه منكم أحد ؟؟ يا اهل المروؤة و الحلم! .."

ما كان لسانها ينطق بغير تلك الكلمات طوال السنوات الخمس . لأي مخلوق تراه أمامها . ولم تلق من أحد إجابة تشفي غليلها و تهدء من حيرتها و فزعها و قلقها . فكانت كلما اشتد بها الشوق و بلغ الحنين أقصاه أخذت في العويل و النحيب و اللطم . تشذب شعر رأسها و تمزقه بيدها حتى سقط . تتمرمغ و تتلوى في تراب الارض و طينها حتى باتت كقطعة منها . تبكي العيون من أمامها و من خلفها .. واحسرتاه على ذات العيون الزرقاء التي اجتاحت افئدة الناس في شبابها . أتلك زرقا ! زوجة الشيخ

نور الدين بجلالة قدره و هيبته المعروفة و صوته المعشوق من اذان الناس جميعا . ذلك المغوار الذي لم يكن يخش في الحق لومة لائم ! أيكون ذلك العته و الجنون و خفة العقل مصير زوجته و رفيقته في رحلة النضال التي انتهت كعادة كل المناضلين في زمن النفاق بمأساة قتله على يد عبدون ! اللهم سترك و لطفك . هكذا كانت تردد ألسنة الناس حين يرونها تزحف على الارض بيديها و الطين يكسوها من كل مكان . ثياب مهترئة متسخة و رأس بها شعيرات مشذوبة بسيطة و وجه زال ضياءه و بشاشته منذ غياب خضر و من لها سوا خضر في عالم الذئاب و الافاعي !

..

ذات مساء .. وكالعادة زرقا تصيح بأعلى صوت لها و تنادي على ولدها الوحيد خضر في مقهى عليوة أكبر مقاهي الحارة . إذا بموسى صبي القهوة الاصفر القصير يعنفها و يصرخ بها بشدة و حزم و يطردها شر طردة من القهوة . ذلك الفتى النحيف الهزيل شديد الشحوب حتى أطلقوا عليه في الحارة اسم موسى الاصفر . جسده هزيل للغاية ملتصق الصدر و الظهر بارز الفقرات . و عظام وجنتيه بارزتان و خديه ممسوحان للغاية وله سنة و ناب مفقودان في فكه العلوي . حاجباه كثيفا الشعر مخيفتان و شعر رأسه أسود شديد العتمة و مجعد لا يسلكه المشط بأمان . يرتدي عادة مريلة القهوة المتسخة بسبب كثرة العمل . لا يُعرف له بيت في الحارة أو حتى خارجها كما لم يعرف له أصل ولا نسب ، فقد جاء الحارة بين

عشية و ضحاها و لم يعلم به أحد ولم يسأل عنه أحد فلقد أصبح الناس منعزلون لدرجة اللامبالاة . فما عاد يضيرهم من هذا أو من أين أتى . كل ما يعرفونه عن هذا الفتى أن اسمه موسى .. حتى أنهم يجهلون اسم ابيه . وقف الشيخ عتمان الذي تلاعبت بهيئته السنوات فغدا نحيلاً كعرجون متآكل ، و في عنقه تعددت الإلتواءات و تكاثر طفح العروق الضعيفة فيها حتى بات منظرها موحياً بالأسى و الإشفاق . بجواره كان رفيق دربه الخواجة و الذي كان له نصيب من عبث السنوات فغدا شعره فضياً لامعاً لا تشوبه سمرة و لو بالقليل .كان الشيخ مستاءاً مما رأى و الخواجة أيضاً قد اكفهر وجهه و ارتعشت يداه من فرط الانفعال و أصبح لقلبه وقع مسموع ، ثم هم الشيخ قائلاً بغضب لموسى :

- اترفع صوتك على أم خضر و تطردها أيها السفيه !

فأجابه موسى ببرود و بلهجة ساخره :

- أراك من فرط المحبة قد آويتها بدلاً من عبثها في كل مكان بالحارة مخلفة ورائها الإزعاج و زمجرة الواردين !

ثم توقف قليلاً و هو يشير إلى زرقا التي اخذت في نداءها الذي لا ينقطع عن خضر و قال متهكماً :

- ها قد عاد المارد للظهور ..

ثم موجهاً كلامه لزرقا :

- لقد أكل السبع خضراً فاستريحي ..

فأجابته بدموع و لحن حزين :

- ما كان السبع ليأكل لحم خضر . فليس من أحد يكرهه

هنا قال الخواجة و هو يمسح أثر الدموع عن عينيه :

- يا فتى كن رؤوفاً معها .. إنها أم خضر على أي حال .

- ما من رؤوف سوى الوالي يا خواجة . ثم من خضر ذاك الذي تحبونه لتلك الدرجة !

فجاء الصوت من الخارج قوياً :

- انا خضر ..

فالتفتت الانظار جميعاً الى مصدر ذلك الصوت الذي تبين صدوره عن رجل في مطلع الثلاثين من عمره .. شعره طويل و شديد السمرة و لحيته غير مهذبة على غرار عادته .. خضر

هرعت اليه زرقا في اللحظة التي سمعته فيها و كأنما تلك العقدة قد انحلت .. وكأنما قد بطل السحر الذي أبرمه لها الزمن و وضعه بفم نملة مدفونة في بحر الرمال المتحركة بصحراء الربع الخالي . ارتمت في حضنه تعانق كل تفصيلة فيه .. قبلت خديه و يديه و لحيته .. وانهالت على جسده تستنشق رحيقه الذي غاب عن انفها خمس سنوات بأكملها . الله يا الله على تلك الفرحة الغامرة التي اجتاحت كل خلية فيها و ردت اليها عقلها من جديد .

نظر الجميع الى خضر بعين الدهشة و الحيرة و لسان حالهم ينطق همساً بتساؤلات جمّة .. أين اختفى طوال تلك المدة ؟ و لماذا اختفى من الاصل ؟ و لماذا عاد و لماذا الان بالتحديد عاد ؟ . و ما تلك الهيئة الرثة التي يبدو عليها ! أسئلة كثيرة دارت بوجدانهم جميعاً لم يترك خضر فرصة لاحدهم حتى يطرحها ، فأمسك بيدي زرقا و انساق الى بيته دون أن يلتفت لأحد أو يحادث أحد .

****

صفعة قوية هوى بها خضر على وجه زينب فور وصوله للبيت . سالت بسببها بعض الدماء من أنفها و شفتها العلوية من قوة اللطمة فانفجرت الدموع من عينيها وقالت بعدما جلست على الارض و اتكأت على يدها اليمنى . قالت و قد امتزج صوت البكاء بالكلمات :

- أهذا هو العناق الذي انتظرته منك !
- كيف يطيب لي العناق و أنتي تاركة أمي على تلك الحالة المرثي لها
- أقسم أني ما تركتها قط ..

فقال ساخراً :

- نعم نعم .. رأيت هذا بأم عيني
- لا تظلمني فلست بخائنة للأمانة .

توقفت لتلتقط بعض الأنفاس و تمسح دمعها الذي ابتل من جراءه ثوبها المهرتل المتسخ :

- لقد جن جنونها منذ رحيلك فجأة دون سبب يذكر . كان تجري في شوارع الحارة و أزقتها باحثة عنك . و كنت أجري أنا خلفها لأثنيها عما تفعله دون جدوى .

توقف مرة أخرى لنوبة بكاء شديدة اجتاحتها و قد سطنت روعات خضر و تبدلت ملامح الغضب لعطف و تأسف تجاه زوجته التي أكملت قائلة و الدموع لا زالت تنهمر منها :

- كانت تضربني أمام الناس .. تجرجرني في الأرض و تتهمني بالجمود و ضياع الاحساس . و لما استيئست منها أصبحت أتركها تجول جولتها تلك حتى يعتليها التعب و الإرهاق . عنئذ أقدر عليها و أرغمها على العودة للبيت . و ما إن تفيق حتى تعود لعادتها تلك ..

فقال خضر بنبرة لائمة خاضعه :

- قيديها أو احبسيها .. او افعلي أي شيء يحول دون خروجها المشين
- أقسم أني حاولت بكل الطرق و ما استطعت. لقد فاض بي الكيل و طفح .. بين سعي خلف أمك و بين سعي وراء إبننا .
- إبننا !
- أنى لك أن تعرفه في غربتك !
- أين هو ؟ .. أريد أن أراه

- إنه نائم الآن .

مد خضر يده اليها قائلاً بلهجة ملاطفة مواسية :

- انهضي عزيزتي .. لا تحزني

برغم غيبته الطويلة المجهولة .. و رغم لطمته لها التي سالت على اثرها الدماء .. و رغم صراخه في وجهها إلا أنها عفت عنه و تغاضت عن كل ذلك ونسيته فور سماعها لتلك الكلمات و تلك اللهجة الرقيقة . لكم اشتاقت اليه و الى كلماته المعسولة التي طالما أوقدت وجنتيها احمراراً كالجمر من طيبها . ابتسمت رغم ذلك و نهضت عن الارض و عانقته .. اخترقت جلده و أعظمه و لبسته ، فما عاد العنق يكفيها ..

و أخيراً بعد غياب خمس سنوات عاد حبيبها من رحلته وقد عادت اليها روحها معه من جديد كأنما كانت وردة منغلقة و تفتحت . عانقته و نسيت سنوات البؤس و الشقاء . أخفت عنه دموعها و أخفت وجهها في جلبابه كي لا يشعر بما تحمله من حزن قد طفح بها و فاض في احيان كثيرة . و احتفظت بتساؤلاتها لوقت أنسب .

١٣

بخور كثيف يملأ أرجاء الغرفة بدخان جعل من الرؤية شبه معدومة في أرجاءها . و صوت زرقا يدوي بأذنيه بصدى يمتلأ بالدفء و الحنين و

هي تحمل المبخرة بين أيديها و تدورها في شكل دائري أعلى رأسه و هي تردد بمحبة و مرح " بخرتك من عين الناس .. من شر الوساس الخناس و شر النخاس البخاس " .

أفاق خضر و على وجهه ابتسامه عريضة ، ثم أمسك بيد زرقا يقبلها بعد أن سألها عن زينب :

- في المطبخ
- و أين نور الدين ؟

خرج الطفل ذو السنوات الخمس من ظهر زرقا بعد أن كانت تواريه ليفاجئ أباه بقفزة طفوليه مرحه استقبلها خضر بعناق أبوي دافئ و طويل لابنه الوحيد الذي غاب عن عينيه لخمس سنوات كامله .

اسم على مسمى كما يقال .. فاسمه نور وله وجه أبيض منير كالقمر يشع الضياء منه . طفل ملائكي وديع أخذ عن أمه نغازتيها و من أبيه لفلفة الشعر المسترسل على كتفيه شديد العتمة تماماً كخضر ..

نهض خضر عن فراشه قاصداً المطبخ ليفاجئ زينب الواقفه في احدى زوايا المطبخ تحضر الطعام بنفس طيبة و روح محبة بحضن خلفي مباغت عقبه مباشرة قبلة فرنسية الطباع دافئة معبقة بالحب و الشوق رسمت البهجه على شفتيها و زاد من تورد وجنتيها الورديتان المتوجتان بنغازتان لطالما عشقهما خضر .

بالله ما أعجب أحوال ذلك البيت ! ، أمن بعد إظلام و كآبة و حزن استوطنه طوال تلك المدة يأتي الفرح مجدداً ؟ بتلك البساطة ! بمجرد عودة خضر اتزنت الامور و استقامت موازينها !

لم ترتبط السعادة دوماً بأشخاص ؟ و بمجرد رحيلهم .. ترحل معهم السعادة او جزء كبير منها ! والله لو ربطوها برب الاشخاص لما رحلت و لا نفدت و في ذلك لعبرة لأولي الابصار .

امتلأت المائدة باصناف الطعام الدسمة و التفت الاسرة بأكملها حولها و هموا جميعاً بالافطار . ثم تسآلت زرقا موجهة سؤالها لخضر :

- أين كنت طوال السنوات الماضية ؟

- ...

****

كان جالساً في مكتبه الفاخر داخل القصر يقرأ كعادته في روايات ويليام شكسبير التي عشقها منذ الصغر . يتأمل ردود أفعال هاملت السلبية و يلعن سذاجته و طيبته السمجة كما أطلق عليها مع كل فصل في الرواية يقرأه . هكذا هو الكونت أو رؤوف باشا بعد أن تخلى عن لقبه ، و هكذا غدت حياته هادئة منعزلة قدر الامكان عن الناس و اهل القصر

أنفسهم و ذلك بعد أن قفزت أمه ذات ليلة من شرفة فريدة قفزة أودت بحياتها البائسة على الفور .

لم يرأف لحالها .. ولم تذرف عينيه الدموع أمام الناس قط . كان صلباً جلداً كالصخر لا ينحني . لكن إذا انفرد وحده بالمكتب .. إنفجر بالبكاء كالاطفال . هي أمه على كل حال .. تطاولت عليه مرات و تطاول عليها انتقاماً لذاته فتعادل الطرفان و تساوت كفتي الميزان و فقط ينتهي الخصام .. هكذا حدثته نفسه وبررت اعتداءاته عليها بوحشية و حيوانية لم يسبق أن رآه أحد عليها . يا له من شخصية عجيبة عميقة لم يفلح أحد في الوصول الى قرارها قط .

كان عاشقاً لها ليس فقط لكونها أمه بل لرفقها و عطفها عليه دائماً في ظل قسوة و جبروت أبيه الوالي السابق مختار باشا . فكانت هي مئواه الوحيد و ملجئه من طغيان أبيه . كما كانت له كهف أسرار أمين طوال حياته حتى في سنواتها الاخيره ! ما الذي غيرها و عكس طباعها من عطف لقسوة و من رأفة للامبالة أنسته رفقها الماضي به !

قتلت والده ! .. ثم ماذا ! ، لقد شارك هو نفسه بوضوع السم له في شرابه . كانت تستخدمه كلعبة في يدها عندما أمسك مقاليد الحكم في بداية عهده .. ثم ماذا ! ، حتى و إن كانت تستغله فقد كان يطيعها عن طيب نفس و لم يكسر لها أمراً .

ما الذي بدلها .. ما الذي دفعها الى فعلتها التي فعلت ! .. ربما وجدت من شاكر وعوداً بتنفيذ طموحاتها ؟ ، و لكن أي طموح تلك التي تراود امرأة في الخمسين من عمرها تجعلها تلقي بولدها الوحيد في النار و تقيم علاقة غير شرعية مع رجل ! ربما أحبته ؟ ربما رسم عليها الحب حتى أوقعها فريسة في شباكه المنصوبة بإحكام .. فهكذا عهدنا شاكر السباعي دائماً . ولكن إن كانت تحبه حقاً .. لماذا أصرت هي على أن تزوج فريدة منه ! .. كيف يعقل كل هذا !

أياً كان ما حدث .. فلقد كان مصير شاكر و جولنار هو تجسيداً للعدالة على أرض الواقع من منظوره الخاص . فبرصاصة يتيمة استقرت في رأس شاكر فور عودة رؤوف الى القصر سكنت براكين هائجه في صدره . لكن أمه المسكينة ، ما كان عليه أن يعاقبها بتلك الطريقة البشعة . كان كلما رآها أمامه رأى فيها عاهرة رخيصة عجوز لا تستحق كوباً من النبيذ كأجرة لقاء نكاحها . فكان ينهال عليها كالبهائم بعد أن يسيطر عليه شيطان الغضب لينفث فيها من غضبه .

بعد مماتها .. تبدلت أحواله الى النقيض . أصبح هادئاً مفرطاً في الهدوء و منعزلاً الى أن استوحشه الناس و افتقده اهل القصر . كانت أخبار الحارة تأتيه عبر حاتم كبير الفتوات فكان هو عينه اليقظة التي لا تنام ابداً .. و بطبيعة الامر كان حاتم ينقل اخبار الحارة من زاوية رؤيته الجشعة الى رؤوف ليحصل في كل مرة على مساحة أكبر من الحرية في التصرف

و التعامل مع اهل الحارة . وكذلك كانت قرارات و فرمانات رؤوف تصدر منه الى حاتم ثم الى اهل الحارة عن طريق المنارة القائمة في وسط الحارة بجرسها العتيق .

"أكون أو لا أكون.." .. استوقفته تلك الجملة العميقة التي أبدع شكسبير بطرحها و قد أيقظت في ذاكرته جمع من ذكريات قد أدمن السكر لإخمادها دون جدوى . فعادت صورة أمه تتدلى أمامه و جثة شاكر .. يتذكرها و هي ملقاة على الارض في غرفة المكتب تلك و الدماء تنبع من ذلك الثقب المنفجر في منتصف جبهته و عيناه تنظران تجاهه مباشرة .
اشتعل رأسه غضباً من تلك الذكريات اللعينة .. فلكل الناس ابتلاء ، و ابتلاءه كانت يذاكرته .
تمتم قائلاً وهو يحدث نفسه .. "كان الخيار أمامي ، أكون أو لا أكون .. أأكون همجياً عنيفاً و أنتقم من كلاهما . أم أصفح و أسامح ! .. كان بوسعي أن أنفيه بدلاً من أن أقتله .. كان أمامي عدة خيارات اخرى .. النفي او السجن او الى غير ذلك فلماذا اخترت أبشع الخيارات أمامي وهو القتل ! .. كان بوسعي أن اعاتبها بتأنٍ .. كان من الممكن أن أصفح عنها و أسامحها فهي أمي في كل الاحوال .. لماذا اخترت الانتقام !"
توقف لحظة .. ثم أردف مزمجراً .. " لقد أخطأ كلاهما .. و استحقا مصيرهما" . ألقى الكتاب على الارض بغضب و هو يصرخ بكلماته ، ثم

نهض عن مقعده المياد في جانب الغرفة و اتجهت خطواته الى الخزنة المستقرة على جانب المكتب . فتحها و نظر فيها متأملاً للاموال و المجوهرات المكتنزة بداخلها .. ألا لعنة الله على تلك الاموال التي جلبت الخزي و العار و أحلت لعنات السماء على القصر بأكمله . استخرج من خلف الاموال زجاجة من النبيذ الاحمر العتيق الذي أدمن شربه .. فتح الزجاجه و تجرع النبيذ منها مباشرة دون الحاجة لكأس . حينها فتح الباب بدفعة قوية و دخلت عليه فريدة بأنفاس متقطعة ..

- ما الذي يحدث ؟
- لا شيء يا اختاه
- لقد سمعت صوت صراخك ..
- اطمئني .. انا بخير
- حقاً ؟
- نعم .
- إذا .. ما سر تلك العزلة الطويلة ؟ ألم تشتاق إلينا و لمملكتك !
- أنت تعلمين طبيعتي .. الوحدة أفضل دائماً ، حيث لا توجد فرصه لإغضاب الاخرين أو الغضب منهم .
- لقد تبدلت احوالك بعدما ماتت ..
- ارجوك .. لا داعي لأن تذكريني . ما عاد بي طاقة للنسيان
- آسفة

- لا تأسفي

أمسك رؤوف بيد أخته بعطف و حب و هو يتمتم بكلمته تلك . فاتبعت فريدة بمرح قائلة :

- لقد طالت لحيتك حتى غدوت كالرهبان .. قم لنحلقها
- لقد أصبحت تلك اللحية كعضو من اعضاء جسدي
- إذاً هذبها و ذلك أضعف الايمان
- حسناً
- و الآن قل لي ..
- ماذا اقول ؟
- ألا تفكر بالزواج ؟
- أنا !
- و من غيرك أحدثه
- حقيقة .. أنا لا اصلح للزواج !

ارتسمت على وجه فريدة تعبيرات الاندهاش و الحيرة و قالت بتعجب تام لا يخلو من سخريه :

- نعم ! .. ولماذا إذاً .. هل أثرت الوحدة على فحوليتك ؟

قالت جملتها الساخرة و أخرجت له لسانها بدلال بالغ تبعه ضحكة رنانة مدللة بلغ صداها قلبه قبل أذنيه فأجابها بعد أن قهقه ضحكة خفيفة لا زالت أثارها مرسومة على وجهه تاركة بعض البشاشة فيه :

- آه من تفكيرك
- إذا اقنعني .. لماذا لا يصلح والي المملكة بشحمه و لحمه للزواج !
- لأني أخاف النساء ..
- لم ؟
- إن كيدهن عظيم

ثم دخل في نوبة ضحك أدمعت من ثقلها عيناه و احمر وجهه كالجمر و أخذ يسعل مرات عدة حتى فزعت فريدة و هرعت تضرب على ظهره فقال و هو يلتقط أنفاسه :

- لا تخافي .. أنا بخير
- الخمر .. طالما ترجوتك بأن تكف عن شربها
- وما دخل الخمر بالسعال .. إنها ملجأي الوحيد في تلك الدنيا الخربة
- هداك الله يا أخي .. بل هي ما سينهي حياتك
- و ما الخوف من ذلك .. فبها او بدونها ستنتهي الحياة رغماً عني .. إذاً فلأعش كما أريد
- بل عش كما أراد الله .. لتفوز بالجنة الخالدة
- ارجوك .. دعي الله و شأنه فله ما يشغله عنا
- لقد ساقتك وحدتك الى الجنون

هكذا ألقتها فريدة وهي تعاتبه بغضب لم يخل هو الاخر من دلال خفيف ليجيبها بسخرية لا متناهيه :

- المجد للمجانين في ذلك العالم الخرب مختل الموازين .
- أخي .. إني قلقة عليك .. و لن يهدأ بالي إلا بعد أن تتزوج بمن تؤنس وحدتك و تقاسم معيشتك بمرها و حلوها .
- و أنت ؟
- لا حاجة لي بالزواج بعد شاكر ..
- لعن الله اسمه . أنا عوضاً لكي عنه .
- حقاً .. و كيف ذلك
- سأتزوجكي
- لم يعد لدي شك بعد الان أنك جننت بالكامل

ضحك كلاهما حتى ابتلت وجنتيهما . قامت فريدة من مجلسها و اتجهت نحو باب المكتب تهم بالخروج .. ثم التفتت نحو رواية شكسبير المقاة على الارض فهمت بإحضارها . فانخفضت لالتقاطها و عندها فقط ..

****

أصبح يوم الجمعة ذلك .. يوماً من أهم أيام الحارة ، و تلك الخطبة التي صرخ فيها الشيخ عثمان -شيخ مسجد الحارة- منددا بمظالم الوالي و جبروت رجاله و معاونيه . منددا بالصلب و القتاوة و الضرائب المفروضة ظلماً و ببطش و طغيان الفتوات في ظل سكون الوالي و صمته كالأصنام اليابسة . خطبة حفرت كلماتها و طبعت في أذهان كل من سمعها . كان

صوته نحاسياً جهوراً تخلل آذن البعيد قبل القريب . كان يصرخ من حرقة ما يحدث حوله و الناس نيام . اشتد غضبه و برزت عروقه و تضخمت من شدة الغضب على الرغم من مرضه الذي أخذ ينحت في جسده يوماً بعد يوم على مدار السنوات حتى ما بقي فيه سوى جلد مهترء على عظام لا تخلو من هشاشة تليق بعجوز جاوز الستين من عمره . لكن ذلك لم يمنعه عن النطق بكلمة الحق و الصراخ في وجه الطغيان . صرخ و هو يعلم العواقب لكنه لم يبال و لم يكترث و لم يلتفت لها مطلقاً بل لم يضعها في حسبانه من الاصل . كانت غضبته شديدة جامحه تلفظ على أثرها بما أغضب سادات الحارة منه . تغنى بأيام الحارة الاولى .. حينما كانت مملكة حقاً بأرضها الخصبة و نهرها الكريم المفعم بالحياة و أشجارها العطاءة و طيورها المغردة التي فرت منذ أمد بعيد نحو المجهول . تغنى بأيام كان النهر فيها ملكية عامة حقا . فلا حرج على من أراد الصيد ولا عتاب لمن سبح فيه . تغنى بأيام كان قوت يوم الفرد ملكاً له كله .. دون أن يتدخل بيت المال بفرض ضرائب وهمية لتكون ستاراً للسرقة و أكل اموال الناس بالباطل .

طالما حذره الناس من لسانه الناطق بالحق في أي وقت وفي أي مكان دون جدوى . كيف يصمت من كان القرآن مناهجه و النبي قدوته ؟ كيف يتلجم بلجام الصمت خوفاً من سوط طائش أو نبوت غشيم ؟ كيف يسكت من كان رفيقه و خليله هو الشيخ نور الدين شيخ مجاهدين

الحارة و أعلى صوت صدح بالحق في أرجاءها ؟ والله إنه لعار على تلك الشيبة أن تقنع بالذل و الظلم و ترضى به .. هكذا كان رد الشيخ على كل المحذرين و المنبهين والتي صدقت تنبؤاتهم حيال مصيره .

في تلك الجمعه القائظة .. خرج الجميع من المسجد يشدون بالخطبة الثورية للشيخ وحماسته و يتأسفون على مصيره الذي سيلاقيه .. الكل يترقب في صمت و يتابع الزمن لحظة بلحظة لينظر كيف تكون عاقبة آخر الرجال الثائرين في زماننا هذا !

لاحظ الجميع صبي قهوة عليوة المدعو بموسى الاصفر و هو يهرول في الشارع باقصى سرعة و ينادي باسم الشيخ عثمان بلسان متلعثم متلجلج ثقيل بدت نبرة الخوف و الفزع فيه واضحه كوضوح الشمس . لم تمض ثوان قليلة حتى سمع أهل الحارة دوي صوت جرس منارتها العتيقة يجلجل في أرجاءها لينذر الناس بحدث جلل .

تجمع الناس في الحارة كجماعات نمل يخرجون من كل جحر نحو هدف واحد وهو المنارة العتيقة . رجالاً ونساءا ، شيوخاً و صبية .. الكل واقف يراقب الموقف .. يتهامسون فيما بينهم حول ما سيحدث ، ثم عم الصمت المكان بعدما اعتلى حاتم منصة المنارة و أشاح بنبوته في الفضاء أن اسمعوا فوقف الجميع يترقبون في صمت كأن على رؤوسهم الطير .

- أيها النااس .. لقد شاهدتم بأعينكم و سمعتم بآذانكم كيف تجرأ ذلك الكهل على أحكام المملكة و قوانينها و القائمون عليها .. أفي دينكم

ما يأمر بالفوضى و يحرض على العنف و الخروج على الحاكم . إني اتسائل .. فأجيبوني !

هكذا صرخ حاتم مرتدياً قناع صاحب الحق الورع و هو يحدث أهل الحارة و من خلفه يقف الشيخ عثمان مقيداً بأغلال في يديه و قدميه وعلى فمه ربطت خرقه منعته عن النطق وكان من حوله محاطاً بباقي الاوباش .

لم ينطق أحداً من أهل الحارة و لم يعقب أحداً على كلام حاتم و كأنما اقتنعوا به فارتسمت من وراء ذلك ابتسامة على وجهه المشوه بعلامات و غرز كانت نتاج لمعارك قديمة . ثم فجأة صدر صوت من أحد الحاضرين يقول ..

- نعم .. في ديننا ما يحثنا على الخروج على الحاكم و الدعوة الى العنف وذلك إذا كان الحاكم طاغوتاً جباراً صدر عنه كفر بواح .

فأجابه حاتم بعد أن زالت ابتسامته و احتلت مكانها تعبيرات عبوسة مشمئزة و قال :

- و هل صدر عنه كفر بواح ؟
- طغيانكم و تكبركم ذلك .. أليس كفراً ! ، سرقتكم لنا باسم السلطة و ضرائبكم المزعومة و اكل اموال الناس بالباطل .. أليس كفراً !

أشار حاتم الى حنتيرة من خلفه الى ذلك الشخص الذي تكلم .. فهرع اليه حنتيره و معه نفرين من الحراس وقبضوا عليه .. و الغريب أن ذلك الرجل لم يحاول الهرب .. كيف يفر و هو ابن نور الدين !

صدر القرار ..

"أصدر رؤوف باشا الوالي حاكم المملكة وولي نعمتها قراراً بإعفاء المدعو عثمان عبد الصمد من مزاولة مهنته كشيخ للمسجد . كما قرر أيضاً الحكم عليه بالتجريس .. أن يزف في أرجاء المملكة عارياً ممتطياً بغلاً من خلاف و ذلك تأديباً لما بدا منه من تجرأ على قوانين المملكة و ليكون عبرة لمن تسول له نفسه بأن يتهكم على أي رمز من رموز المملكة .. أدام الله شموخها و أطال عمر مليكها"

صدر القرار .. ووجب التنفيذ ، في التو و الحال . خلعوا عن الكهل العجوز ملابسه عدا ما يستر عورته فقط و أركبوه على ظهر بغله بالمعكوس و هو مقيد بالأساور الحديدية و زفوه بهيئته تلك في كل شبر في المملكة الواسعه حتى يراه كل فرد فيها و يعتبر .

كان الشيخ رافعاً رأسه لم تنخفض .. و على وجهه ابتسامة زادت من غيظ حاتم و أوباشه و حاشيته و جعلت ألسنة نساء الحارة تتمتم بأن الرجل قد جن جنونه .

أما خضر .. فقد ساقه حنتيره و حارسيه الى سجن الحارة دون أن ينظر في أمره قاض او يرأف لحاله اي شخص .

١٣

خضر ..

" أي كلمات تسعفني و تغيثني كي أقص و أروي ما حدث لي طوال السنوات الخمس الماضية ! كنت في تيه إذا جاز التعبير كتيه بنو اسرائيل بعد أن عصوا الرب و رفضوا القتال مع موسى .

ساقتني قدماي الى حيث لا ادري بعد أن صرخ بوجهي رؤوف باشا و انا فقط .. تبعتهما ولم اقاوم ولو لوهلة صغيره .. ولو لطرفة عين . تبعتهما و جاوزت جبالاً و سهولاً و وديانا وصحاري و غابات و أنهاراً . لم أقطن في بقعة محددة . كنت مسيحاً جديداً في الارض . أسير فيها بلا جهة أقصدها ولا قبلة ترشدني و تهديني الطريق المستقيم . لم يكن لي داراً آوي إليها ، ولا زوجاً اسكن إليها ، ولا رفيقاً استأنس بصحبته ، ولا عملاً اقتات منه فتات يومي . كنت آكل يوماً و أصوم عشرة . و يوم حظي إذا فلحت في صيد غزال هارب او أرنب طائش . و أعسر ايامي هي التي ألجأ فيها لأوراق الشجر كغذاء طوال اليوم .

لطالما أثبت النهر أنه رفيق صالح و صديق أصيل .. فلم يبخل علي قط بالماء العذب و اللحم الطري المختلف أشكاله و الوانه .. و السباحة التي

غدت متعتي في كثير من الاوقات . دخلت كهوفاً ومغارات تعج بالجان و العفاريت . صادفني ذات يوم عفريت من الجن ..
كنت قد دخلت المغارة وقد اتخذتها فراشاً لي لبضعة أيام أستأنف سيري بعدها . دخلتها بعد أن حل الظلام أرجاء المكان و قد استوحشت الارض وحدي دون رفيق . استوقدت جذوة من النار أستعين بها على برودة الطقس آنذاك .. و كنت كلما أضأت النار انطفئت من غير أن أعلم لذلك سبب يذكر . تأففت مراراً حتى استيأست منها و تركتها ، ثم استجمعت أعصابي و هدوءي . بسملت قبل أن أعيد الكرة .. فإذا بصراخ طفل صغير يأتي من جوف المغارة .. صراخ شديد و عويل قوي تأذت بسببه طبلة أذني . حقيقة لم أجد تفسيراً لذلك و لكني وجدت نفسي في طرفة عين بعيداً عن الجبل الذي تقع المغارة في منتصفه فور سماعي لذلك الصراخ .

جريت و جريت بقوة ما كان لي عليها سطان من قبل حتى وجدت نفسي قرابة مجرى مائي صغير . افترشت براعمه و أعشابه كسرير لي و تلحفت فضاءه الرحب و سماءه الصافيه الملأى بملايين من النجوم اللامعه الصغيرة اللامتناهيه .
التقطت أنفاسي .. ثم أخذتني نوبة ضحك هستيريه جراء هذا الموقف الطريف . أخذت اضحك و اضحك حتى ابتلت لحيتي .

اتكأت على جانبي الايمن و توسدت ذراع ذلك الجانب لراحة رأسي الثقيل آنذاك حتى ثقلت جفوني تماماً ، و بدأت أطرق أبواب النعاس بروية و رفق شديد ..

انتابني ذلك الحلم مجدداً .. ذلك الحلم الذي رافقني طوال تلك السنوات ولم يفارقني مطلقاً . في كل ليلة .. و في كل مكان .. و في كل لحظة تغفل فيها عيناي عن دنيانا تلك كان لا بد أن يختطفني ذلك الحلم العجيب الى ثناياه و تبتلعني أعماقه و تفاصيله العجيبه ."

اضطربت ملامحها و سرت في جسدها قشعريرة سريعة و تسآلت و ملامحها بدت و كأنما تخفي شيئاً ..

- خير يا ولدي .. بماذا كنت تحلم ؟
- **سأحكي ..**

****

انخفضت ومالت بدلال لإلتقاط الرواية الملقاة على الارض لتضعها على المكتب امام أخيها .. أفزعتها نظرة عينيه التي لم تبرح جسدها أثناء انخفاضتها تلك .. و لعابه الذي سال على حين غفلة من تركيزه .

وضعت الرواية أمامه و تنحنحت بفمها ليفيق هو من عالم احلام يقظته و يواري عينيه نحو الرواية مدعياً اهتماماً وهمياً لم تفلح يديه المرتعشه في

إتقانه خاصة بعدما أمسك بيمينه زجاجة النبيذ و ارتشف منها البعض .
و كذلك وجهه المضاء بلون الدم من شدة الخجل .
توجهت فريدة نحو الباب و أحكمت قبضتها على مقبض الباب لتفتحه متأهبة للخروج .. ثم استدارت ناحيته و قالت له بنبرة هادءة :

- قم يا اخي .. قد حان وقت الصلاة .

وضع رؤوف زجاجة النبيذ نصب عينيه و هو يتأمل في الخمر المهتز بداخلها ثم أزال اثر الخمر عن شفتيه و أجابها بلسان بدا ملجماً ثقيلاً من السكر قائلاً ..

- سأرتشف بعض الخمر ، ثم سأذهب للصلاة ..

فريدة ..

"لم تكن نظراته و تصرافته تلك بعيدة عن تفكيري مطلقاً . لطالما تابعته و هو شارد الذهن مغيباً لأتفاجئ بأن مصدر تأمله هو صدري !
لطالما لمحته و هو يرقبني بنظرات مرتعشه و انا أنخفض لأجلب شيئاً ما عن الارض او أثناء جلوسي .. لكني لم ألمه قط أو أعاتبه حتى .. فمن له قدرة على مقاومة سحري و جمالي ، لطالما نظر لي الناس بتلك العين المشتهية لكل تفصيلة صغيرة كانت أو كبيره في جسدي . تتفحصني أعينهم بشراهة تكاد تخترق ملابسي من حرارتها الملتهبة . يرمونني بسهام الاعجاب واحداً تلو الاخر دون ان التفت لهم حتى او اكترث .

إنه أخي من أبي .. فكيف له أن يشتهيني كما يشتهي الرجل المرأة ! إنه فقط لا يحكم السيطرة على نفسه ، او ربما ليس له طاقة كافيه لكبح شهواته و وقفها عند حدودها . لكنني متأكدة بأنه يخاف علي و يغار علي تماماً كأي أخ يغار على أخته . ألم يكن طرد خضر من الحارة بسبب غيرته عليّ ! .. إنها مجرد نظرات عابرة .. فهل ستقتلني تلك النظرات ! فلينظر كما شاء ، ولكن ليس له أن يحلم بأكثر منها .

كان يراودني ذلك الحلم المريب كثيراً .. ذلك الشيطان البشع و تلك القبيلة السوداء و ذلك الفتى الصغير .. كان يزورني ذلك الحلم مرة او مرتين في كل اسبوع ليأرق نومي و يلهب جانبي و يطرد النعاس عن عيني لأيام . كنت كثيراً ما أرى تشابهاً بين ذلك الشيطان و بين شاكر زوجي الذي أراحني القدر منه بعد تجربة زواج فاشلة بكل المقاييس . لكن بدءت أرى ذلك الحلم اكثر فاكثر .. خاصة بعد أن ماتت جولنار المسكينة .

لم تكن موتتها عادية .. كان يوماً أسوداً على القصر بأكمله . كانت ترقد بجواري على الفراش كالعادة بعد أن خفّ عقلها تماما ، ثم في لحظة حيث كان الليل في آخره و الفجر على وشك البزوغ استيقظت من نومها و اخذت في الصراخ و النحيب كالاطفال .. تخبيء وجهها بكفيها و تبكي بحرقة ومرار لم أعهدهما فيها من قبل . كنت أحاول إسكاتها بكل ما أوتيت من قوة .. بالكلام تارة و بالعنف اخرى و بالعناق اخرى و بالتقبيل اخرى و اخرى خوفاً من استيقاظ رؤوف و كان وقتئذ كالثور الجامح إذا رآها

، فما كان لأحد عليه من سلطان ولا تأثير . استيقظ من بالقصر جميعهم و دخلوا فزعين الى الغرفة و الكل يتسآءل ما بها !

أضيئت الأنوار بالغرفة و توقفت جولنار عن البكاء فجأة و أزالت يدها عن وجهها ببطء ممل و مريب . نظرت جولنار الى رؤوف الواقف في ثياب نومه و شعر رأسه الخفيف غير المرتب و من حوله الخدم وقوفاً و على وجوههم آثار النعاس .. ثم توجهت بناظريها إليّ .. كانت عيناها حمراء شديدة الاحمرار من أثر البكاء الشديد . كانت تنظر إليّ بإستياء شديد و في عينيها لمحت دمعة مختلفة . دمعة تمتلأ بالرأفة و الاشفاق .

صرخ رؤوف متضجراً يتسائل ما بها .. فإذا بها تنفجر بنوبة ضحك هستيرية و قهقهة ضحك مرعبة صدرت عنها فجأة فانخلع قلبي من جوفي بسببها ! ، ثم وقفت على السرير و هي بثياب النوم الشفافة شبه عارية تتمايل في خطواتها كالثملة من أثر الخمر و تضحك بشدة كما لو أنها لم تضحك من قبل في حياتها . الكل واقف ينظر إليها ، يراقبها بعينيه دون أن يحرك ساكناً . و هي تتأرجح في خطواتها على السرير مجيئة و رواحا . حتى في مرة قفزت عن السرير كصبي في الرابعه من عمره يشاكس أمه ووقفت تشير بيدها بحركات غير عقلانية بالمرة وهي تتفوه بكلمات لم يفهمها أحد و لم يقو على فك طلاسمها ساحر أو ترجمان . ثم هرعت نحو الشرفه بسرعة رهيبة فانطلقت و من في الغرفة نهرول خلفها خوفاً من أن تلحق بنفسها

ضررا . توقفنا جميعاً عند باب الشرفه و كلنا خائف مما هي عليه . فقد كانت تقف على سور الشرفة .

"هذا الكون مزحوم بالأقنعه .. أنت و أنتِ و أنتم جميعاً ترتدون الاقنعه المزيفة التي تواري سوءاتكم و تخفي حقيقة نفوسكم القذرة . و أنا ارتديت ألف قناع و قناع حتى نسيت أي ملامح هي في الاصل ملامحي . ذاب عقلي و طارت أبراجه برجاً برجاً و لا زلت أشعر بالنفاق يتدفق من ثنايا جلدكم .. من تحت أظافركم .. من رموش أعينهم و من كل خلية فيكم . تنفثون النفاق سماً قاتلاً .. و مقصلة حاادة كئيبة .. و حبل مشنقة يلتف حول عنقي بروية و بطء رتيب ممل ليخنقني .. إني أختنق

ما عدت أطيق التنفس بهواءكم المعبق بالنفاق و أنفاس المنافقين .. أريد هواءاً صافياً نظيفاً كنسمات الفجر و الناس نيام .."

قالت كلماتها تلك .. ثم فتحت ذراعيها على مصراعيها بعد ان التفت و أدارت لنا ظهرها ، ثم مالت بجسدها نحو الهواء لتسقط من الشرفة على رأسها مباشرة جثة هامدة .

ازدادت كوابيسي من بعد ذلك المشهد الحزين المخزي . و كان الشيطان البشع زائراً دائماً في كل كابوس . بت اتعجب من حضوره الان و بعد أن مات شاكر ! . ألم يكن ذلك الشيطان الطامع بجسدي هو شاكر . هو من نهش بلحمي عن كره نفس و كسر خاطري . وها قد مات الملعون و فارقنا ، فلم لم يفارقني ذلك الملعون الاخر !

بت أكره الليل بسببه كما كرهت حياتي بسبب شاكر . و لكن أي كان و على كل حال فمع الوقت سيختفي الشيطان و يبتعد عني .. فقط مع الوقت .."

****

- ألا لعنة الله على الجبناء ..

هكذا ردد الشيخ عثمان بصوت هزيل و متقطع و هو مستلقياً في فراشه العتيق في منزله المتواضع ذو الغرفة الصغيرة الواحدة .

عانى الشيخ العجوز من اكتئاب حاد أقعده في فراشه بعدما زف عارياً في أرجاء الحارة و الناس قيام ينظرون .كان رفيقه الخواجه كعادته ملازماً له لم يتركه خاصة بعدما أصبح الشيخ طريح الفراش و عاجزاً عن الحراك إلا بالشيء اليسير و له في ذلك مشقة .كان من حوله يجلس خضر و الخواجة جوو يؤنسانه و يخففان من همّه و يتبادلون اطراف الحديث في محاولات بائسة لإخراجه من حالته تلك لتبوء بالنجاح بعدما يبتسم لثوان قليلة ثم يعود الى عبوسه الاول و صمته المحزن و شروده المخيف و دموعه الهاربة على حين غفلة منه . عقب الخواجة قائلاً :

- لا تظلم الناس يا شيخ .. فلكل منهم زوجة و بيت يخاف عليه من طغيان الوالي .

- والله ما طغى الظالم الا بصمتهم العقيم
- خفف من غضبتك يا شيخنا

هكذا قالها خضر وهو يهدهد كتف الشيخ برقة البنوة التي حرمها الشيخ طوال حياته ، ثم تسائل متعجباً :

- لكن يا شيخنا ما الذي دفعك للقيام بثورتك تلك في تلك الجمعة تحديداً ! فلا زال الظلم كما عهدناه منذ الأمد البعيد لم يتغير ..

فقال الشيخ و هو يصارع نوبة سعال حادة انتابته و احمر وجهه منها :

- لقد عادت عصور الظلمات يا فتى ..
- كيف يا شيخي .. ماذا تقصد بقولك !

فقال الخواجة مجيباً عن سؤال خضر رأفة بالشيخ الذي لا زال يسعل :

- قبل مقدمك بيومين .. أفاقت الحارة و تبينت كارثة جديدة ارتكبها أعوان الوالي باسم القانون .. باعتبارهم ظل الله في الارض و ملائكته المقربون .
- ما الذي حدث ؟
- لقد استنوا الصلب عقوبة شرعية جديدة في المملكة .. و كان عيسى النجار أول من صلب .

ارتسمت علامات الدهشة الممزوجة بالغيظ و الغضب على وجه خضر و هو يتسائل ممتعضاً :

- و ما قصته هو الاخر ..

- لا شيء .. سوى أنه رجل ذو مروؤة و عفة . و في مساء ذلك اليوم .. اشتد غليان الدم في أوردته عندما رأى الفتوة المسمى ليل يغازل إمرأته على مرأى و مسمع من الناس .. فتضاربا في صراع عنيف كاد فيه عيسى أن يقتل ليل لولا تدخل الجنود الذين انهالوا بالسياط و النبابيت على جسد المسكين ثم ساقوه إلى السجن .

ثم أكمل الحديث الشيخ عثمان قائلاً :

- و أفقنا صباحاً على جسده المصلوب تحوم عنده الغربان ..

فقال خضر بأسف :

- ألا لعنة الله على الظالمين .

فأردف الخواجة مازحاً :

- كنت وقت انتشار الخبر سكراناً في مقهى عليوة كعادتي .. و معلق بين المنام و اليقظة ، ثم أتاني أحدهم صارخاً في وجهي و اللعاب يتطاير من فمه قائلاً : "أفق يا خواجة أفق .. لقد صُلب عيسى"

توقف الخواجة لوهلة من ضحك أصابه و وجه صاحبيه من حوله قد حلّ به البشاشة و التبسم :

- فقلت و أنا اترنح عن مقعدي متعجباً .. صُلب عيسى ثانية !!

قالها و استغرقته نوبات ضحك متتالية دمعت منها أعينه و أعين صاحبيه أيضاً ، ثم سأل الشيخ خضراً بعدما هدءت أوصالهم و الخوف يتواري بين أحرف الكلمات :

- ماذا فعلت بك تلك العصابة يا فتى !

- ما كان من أمر عليهم بجديد ..

فعلق الخواجة بنبرة عاليه و صوت جهور :

- إذاً فقد آذوك كما عهدناهم .. حقاً إنهم لعصبة من اللصوص و البلطجية معدومي الضمير و الرحمة .

نظر الشيخ الى عيني خضر الدامعتين وقال و الصوت يزحف و يصارع للخروج من أوتاره الصوتيه المرتخيه :

- لا تحزن يا بني ففي ذلك ابتلاء من الله لك .

- لقد غدونا نعيش في غابة يا شيخنا . يأكل القوي منا الضعيف و يبطش الضعيف بالاضعف .. و الكل ظالم في دائرة سلطانه .

- لا تعجب يابني .. ماذا تنتظر اذا اصبحنا نتطلع الى دار الفناء !

فقال خضر متعجباً :

- ألتلك الدرجة !

فأجابه هنا الخواجة بملامح ثابته لم تتغير طوال الحوار الدائر بين ثلاثتهم و قال :

- من الطبيعي أن ترى السفينة في الماء و لكن من الخطورة أن ترى الماء في السفينة .. هكذا حال قلوبنا مع الدنيا .. فمن الطبيعي أن تكون قلوبنا في الدنيا و لكن من الخطورة أن تكون الدنيا هي التي في قلوبنا !

- ولقد خلت قلوبنا إلا من الدنيا يا فتى .
- رحماك يا الله .

تحركت تعبيرات وجه الشيخ الراقد في فراشه تنم عن ضحكة رقيقة خفيفة وهو يقول مداعباً رفيقه الانجليزي قائلاً لخضر :

- هذا هو الخواجه منذ أن عرفته .. والله إن استطاع لقطع شرايينه في أي وقت .

ضحك الجميع و توارت أثار الحزن المستوطنة في جوانب الحديث لوهلة و ما لبثت أن عادت تسكن ملامحهم جميعاً خاصة بعدما توجه الشيخ عثمان للحديث عن الشيخ نور الدين فخلى المجلس الا من صوت الشيخ و هو يردد المواقف و الاحداث التي جمعته برفيقه السابق و خليله .

و كان كلما تطرق من موقف لموقف تلألأت عيني خضر بمزيد من الدموع و أحمر وجهه بفخر بذلك الذي تحكى عنه الاحاديث .

لكن ما قاله الشيخ تلك المرة لم يطرب له سمع خضر و لم يفخر و إنما بمجرد سماعه دخل في حاله من الصدمة و كان ما سمعه مفاجأة في حد ذاتها ..

١٤

فريدة ..

"وما كان ذلك اليوم ليمر مرور الكرام أبداً .. و ما كانت تلك اللحظة و ذاك الموقف بالهين أبداً ..

كنا بعد منتصف الليل .. حوالي الثالثة و النصف قبيل الفجر . أفقت من نومتي فزعة على حركات يد طائشة مهزوزة تعبث أسفل ثيابي !

كانت الغرفة مظلمة و مخيفة .. و كانت الستائر تهتز من الريح الخفيفة و خلفها ضوء القمر المرتعش المتواري خلف الاشجار تاركاً لفروعها و أغصانها ظلالاً مخيفة و مرعبة . و أنفاس حارة معبقة برائحة النبيذ الكريهة تخترق أنفي و تلك اليد .. تتسلل بخوف و ترقب . و تمتد شيئاً فشيئاً الى الاسفل رويداً رويداً بنعومة و تلمس و كأنما صاحبها كفيف يتحسس ملامح وجه امامه . صرخت فجأة قبل أن تنل تلك اليد العابثة مرادها في الاسفل و أسرعت لأضيء الغرفة من الزر المستقر بجانب الفراش لأجد أن صاحب تلك اليد العابثة المرتعشة و المهزوزة .. رؤوف !

كنت و قد أشتد غضبي و بلغ الفزع مني مبلغه في دهشة عارمة . فلم أتخيل يوماً أن ينظر لي أخي من تلك الزاوية .. و بعين الشهوة !

أغمضت عيني لثوان و جززت على أسناني لكتم غيظي و بدءت ألتقط أنفاسي رويداً رويداً ، ثم توجهت إليه بالكلام و هو لا زال على وضعيته السخيفة تلك و هو مطأطأً رأسه و ناظريه نحو الارض مدعياً حرجاً زائفاً من فعلته البشعة . سألته و عيني تحترق من دموع قهرة جاهدت حتى لا تفر .. كيف لك أن تفعل فعلتك التي فعلت و انا اخت لك ؟

فما كان جوابه إلا أن قال أنه تحت تأثير الخمر و لا يدري ماذا يفعل . تصنعت تصديقاً زائفاً لم أفلح في تمثيله و طالبته بالخروج من الغرفة و قد كان في لحظته . أغلقت على نفسي باب الغرفة باحكام و آويت الى فراشي و جسدي تسري به رعشات متتاليه سريعه سالت من جراءها دموع سخينة .. احتضنت وسادتي و انا ابكي بحرقة ، ثم توقفت فجأة عن البكاء و جفجفت دموعي و قلت في نفسي بنبرة ثابته لأقنع نفسي إنه كان سكراناً لا اكثر .."

****

خضر ..

" ما إن تثقل جفوني و تغفل عيناي حتى أجد نفسي أمشي في غياهب الليل الغطيس . أمشي و أنا خائف أتلفت خلفي و عن يميني و يساري دون أن أرى شيئاً . ثم يتراءى لي خيط أبيض من النور بعيد كل البعد عني . فاقترب منه و يقترب مني حتى إذا ما اشتد لمعانه و سطوعه أغلقت عيني حفاظاً على بصري .. و كالعادة لا افتحها إلا و اجد نفسي في تلك الارض المخضرة بالاعشاب الصغيرة و البراعم و الجبال البعيدة التي يتواري خلفها قرص الشمس مخلفاً شفقاً يشي بمكانها . و تلك الارانب اللطيفة

البيضاء الراكضة الى حيث لم اكترث . ثم نظرت امامي فإذا بالماسة الزرقاء تتلألأ في اعلى المرأة الذهبيه الساكنة اعلى التلة في زهو .

صعدت الى التلة متجهاً الى المرآة ثم توقفت امامها مباشرة و انا أكاد أجن من اختفاء انعكاسي و عدم وجود صورتي في المرآة ، ثم فجأة حدث ما لم يكن ابداً في حسباني . كنت في كل حلم أرى أبي في هيئة غير الاخرى و استفيق بعدها مباشرة . و لكن هذه المرة و جدته على هيئته التي كان عليها حين قتل .. بجلبابه الاسود المعهود و عمّته البيضاء الملطخة بالاحمر من اثر الدماء التي تزامنت مع مقتله .

كنت انظر ف المرآة و صورته تتجلى فيها .. كان قادماً نحوي .. باتجاهي و لكن .. لم تلك النظرة الغاضبة ! .. لم يتطاير شرار الغضب من عينيه هكذا ! . التفت خلفي نحوه فأطبق بيديه نحو عنقي فجأة يخنقني .. أمسكت بيديه محاولاً التخلص من قبضته دون جدوى . حاولت أن اصرخ او ان ارجوه ليتركني و لكن صوتي لم يسعفني ، ثم إذا به يسألني بلهجة حادة غاضبة قائلاً .. "من أنت ايها الدخيل ؟" . و توجه بي نحو المرآه و ألقاني بداخلها بعنف شديد و هو يزمجر قائلاً .. "عد من حيث أتيت" .

هويت في أعماق المرآة المظلمة المخيفة .. و في السقوط رحلة مخيفة من الفزع و الصراخ و اصوات العويل و الضحكات المريبة تصدر من حولي تؤنسني حتى وصلت اخيراً الى جوف الظلام . كنت راقداً على الارض من هول السقوط و كانت الارض مفروشة برمال باردة .. نظرت أمامي

فإذا بنور لامع كثيف على مسافة ليست بالطويلة . حاولت أن ارفع جسدي لأمشي نحو ذلك النور ولكن كانت قدماي مخدرتان ثقيلتان ولم أقو بسببهما على الحراك . كان هناك صوت ضعيف أشبه بنحيب طفل صغير ، ثم فجأة اضيأ نور خفيت عن يساري .. أمعنت النظر فإذا بطفل صغير جالس يحتضن ساقيه و يواري بجلسته تلك وجهه و يصدر عنه أنين رق منه قلبي و رأف له حالي . كان فوق الطفل خيط ضعيف ممتد الى السماء معلق في طرفه خنجر يقطر دماً .. يبدو أن هذا هو سبب أنين الطفل . دققت النظر الى الطفل فوجدت يديه مغلولة الى ساقيه و دماء تظهر من جانب قفاه الظاهر ناحيتي و جزء من خرقته العتيقه التي تكسوه . و لكن من ذا الذي قيده ؟ و لم قيده ؟ وما الذي أتى بذلك الطفل الى مثل هذا المكان النائي الموحش ؟ .. قطع أفكاري فجأة نظرة الطفل إليّ بعينيه الداميتين و قد اختفى فيهما اللون الابيض .. نظر الى نظرة سرت منها القشعريرة في بدني ثلاث مرات متتالية . ثم تحولت نظرته من تهديد و زمجرة الى رأفة و شفقة .. فقال بلهجة الاطفال البريئة "اهرب .. الان"

و ما أن أطبق شفتيه حتى هوى الخنجر المعلق فوقه على مؤخرة رأسه فانغرس فيها و لم تصدر عن الطفل حركة بعدها .

هالني ما رأيت و افزعني .. التفت بيدي لأدير جسدي للجهة الاخرى محاولاً الهرب كما امرني الطفل و لكن لم تكن سرعتي كافية . حدثت هزة ارضيه عنيفه انشقت من جراءها الارض .. و سقطت مجدداً

تلك المرة لم افتح عيني .. إنه حلم .. حلم ثقيل و مخيف و ممل و لكن بإرادتي سأصحو منه متى شئت . أوقف فيض افكاري تلك العصا التي شعرت بها تتخبط بأسفل ذقني ففتحت عيني لأرى . فإذا به جند من جنود رؤوف قد حفظت ملامحه عن ظهر قلب إنه .. إنه حاتم

يمسك بيده سوطاً و يرتدي بزة من مزيج اللونين الاحمر و الاسود و وجهه ملطخ ايضاً بتلكما اللونين . كان المكان كئيباً من حجرٍ أصم عتيق و مضاءة أرجاءه بقبسات من النيران معلقة على جوانب الجدران . المكان يعج بجنود على نفس الهيئة يصطفون يميناً و يساراً حول سلم مدرج من الحجارة ايضاً قد كسى معظمه سجادة حمراء طويلة . يصل اعلاه السحيق الى عرش ذهبي أنيق فرشت جلود النمور و الفهود أسفله . يجلس عليه بفخامة و أناقة ملك يرتدي إزاراً أسوداً أنيقاً تثبته أفعى الكوبرى المخيفة و التف على صدره جلد نمر ابيض و وجهه ملطخ بتلك الالوان كأتباعه و في يده يحمل عصا عاجية مقدمتها تشبه رأس افعى الكوبرى .

ساقني نفر من الجنود مقيداً بأساور من حديد صدء في يدي و قدمي ناحية مقدمة السلم الطويل و ألقوني على عتبته .. ثم توجه ذلك الذي

يشبه حاتم في هيئته قائلاً لذلك الملك المعظم في منظورهم الجالس على عرشه يدندن و يغني :

- سيدي .. لقد قبضنا على هذا الدخيل و هو يحاول التسلل الى أرض مملكتك المحرمة .
- و هل دخلها ؟
- نعم يا مولاي .. فقد قبضنا عليه و هو على اعتابها . قد وقع نظره على أرجاءها و بقاعها المحرمة .
- إذن .. اقتلووه

هكذا صدر الامر .. و وجب التنفيذ ، فللملك الامر و للرعية السمع و الطاعة دون نقاش او احتجاج .

لم اعرف عن أي مملكة يتحدث ذلك الشبيه ف هيئته لحاتم ! .. و متى تم القبض علي .. لقد استيقظت تواً و انا أسير في قبضته . ولم لم أنكر تلك التهم المنسوبة إلي ! .. حقاً لا ادري ، فما رأيت من قبل لا يسمح لي بالكلام .. لا يسمح لي سوا بالمراقبه فقط و ليحدث ما يحدث .

جذبني الجنود من الاغلال ناحية منضدة حديدية موضوعه في منتصف المكان أمام السلم ليراها الملك المعظم . حملوني ووضعوني عليها وانا مقيد في اغلالي لا اقاوم بالحراك او بالنطق و هو أضعف الايمان .. ما اكتفيت الى بالمراقبة . مرت ثوان قليلة حتى وجدت صبياً بشع الهيئة قبيح الطلعة بحاجبان كثيفان و فم فقد سنة و ناب من الفك العلوي و بدن نحيف

شديد النحافة يمسك بكلتا يديه سيف أصفر صغير حاد و ضعه على عنقي لوهلة ..

لم أكن أنظر الى الفتى حينها .. بل الى الملك الذي توقعت أنه رؤوف عندما رأيته لاول مرة . و لكن ذلك الصوت العذب الذي يدندن بالغناء يستحيل أن يتكرر .. إني احفظ تلك النبرة .. إنها تسكن قلبي و كل جوارحي منذ أن كنت في المهد صبياً .

لا .. لا تخبرني بان الملك .. أبي !

نظرت اليه فإذا به يقطف حبيبات من عنقود عنب أحمر في يديه ليأكلها ثم نظر بطرف عينيه الي خلسة .. و ابتسم ثم قال :

خضر كسر في السفينة ..

صرخت .. نعم .. تلك المرة صرخت .. بصوتي الذي عاد الي مرة اخرى .. أبيي !!

لكن هوى السيف على عنقي قبلها و الفتى النحيف تصدر عنه ضحكة صفراء كلون وجهه ساخرة مستفزة و كأن غليله قد تشفى و هو يضرب عنقي بكل قوة .. لكن شيئاً ما كان مميزاً به استطاع أن يلفت نظري عن ابي لثوان قبل أن يهوى السيف على عنقي .. كان معلق في رقبته .. فضياً كان و بريقه لافت للانظار شديد الاشعاع .. كان الصليب ، ثم أفيق من نومي بعدها دائماً مفزوعاً "

تغيرت ملامح وجه زرقا ليبدو مكفهراً مغموماً و كأن قبيلة من الجن يتراقصون أمام ناظريها . لم ترد .. لم تعقب ولو بكلمة .. صمت رهيب ساد المكان لثوان و الكل في شرود سحيق لتقطع زرقا ذلك الشرود بإنسحابها عن مائدة الطعام مدعية فقدان الشهية .

****

كان يوم جمعة أسود في تاريخ الحارة كلها .. فقد مات الشيخ عتمان .
شيخ الحارة الاول و مربي نصف ابناءها و الداعي الى الحق في كل وقت و في كل مكان . فشهد له الجميع بغيرته على العدل و ثورانه الدائم على الظلم و الباطل و نبذه لكل من يخضع له . رجلاً سيكتب اسمه بحروف من نور في سطور تاريخ الحارة .. سيكتب تماماً أسفل اسم رفيق دربه و صاحب رحلته الشيخ نور الدين مداح النبي . لكم طال الانتظار بين الرفاق حتى التقيا اخيراً و لكل منهم سجل حافل بالفخر و العزة و الكرامة .
قام خضر في ذلك اليوم إماماً و خطيباً بالناس في صلاة الجمعه . و ألهب حماسهم بخطبة لا تصدر الا من بذرة نمت و ارتوت من بيت مداح النبي و الشيخ عتمان .. صرخ في الناس و احتج على ما حدث للشيخ من اهانة لمقامه الرفيع و لسنه قبل كل شيء .. و أوجس في نفسهم خيفة

أن تكون عاقبة أمرهم كعاقبة أمر الشيخ و ربما أشد و أبطش . فإذا كان ذاك صنيعهم بالشيخ المسن .. فماذا كانوا ليفعلوا بالرجال ذوو العيدان الخضراء و العمر في سن الربيع !

أمَّ خضر المصلين بعد انتهاءه من خطبته الحماسية المشتعلة و المكتظة بالغيظ و الغضب على الظالمين .. ثم أمّهم أيضاً في صلاة الجنازة على الشيخ الشهيد كما سموه أبناءه و خلائفه في الحارة المستعضف أبناءها .

خرج الجمع الغفير من المسجد بعد الانتهاء من الصلاة يحملون جثمان الشهيد على اعناقهم ليدفنوه في جنازة لائقة بمقامه بينهم و لتاريخه المشرف لهم قبل ان يكون مشرفاً له ذاته .

و لكن أبى الظالمون إلا أن يخربوا مراسم الجنازة .. فاصطف جمع كثير من جنود الطاغوت حاتم محملين بالدروع و العصي و متأهبون جميعاً لمنع الجنازة من التقدم خوفاً مما قد يحدث بعدها من ثورة قد تطير برقابهم اولاً قبل رقبة الحاكم و تابعيه .. فهكذا أوغر رؤوف و أذرعته عقول الجنود الحمقى المغيبين ليقاتلوا في سبيل الحاكم بضمائر خامدة تغوص في نوم عميق.

اشتبك الجنود بعصيهم بجموع المشيعين و احتدم بينهم العراك حتى حدثت الفازعة الكبرى و سقط جثمان الشيخ الشهيد عن الاعناق ليتسخ الكفن الابيض بتراب الارض . و هنا ثار الناس و هاجوا كالثيران على الجنود و همّ المشيعيون و انضم معهم غير المشيعون ممن رأوا اعتدائات الجنود

فانهال عليهم الناس يبرحونهم ضرباً و تهشيماً حتى انسالت دمائهم على الارض مخيفة و مقززة ، و سقط بعض من الجنود جثث هامدة .
و لكن فعلة كهذة ليست بالتي تمر مرور الكرام على رؤوف و حاتم .. فإذا تجمع الناس مرة .. فسيجتمعون الف مرة . و في هذا ما يهدد أمن منصب الوالي و كذلك رقبة حاتم كبير الفتوات .
فمع ثورته العارمة و غضبه الجامح و قيادته للقتال ضد الجنود كان خضر مدركاً أن عاقبة ذلك الحدث ليست بالهينة ، وقد صدق التنبوء ..

****

كانت فريدة جالسة في صالون القصر الفخم و الكبير و المزدان بأثاث من خشب الابانوس مطلي بماء الذهب و الفضة . تتكأ بيمينها على وسادة من ريش نعام كعادتها في الجلوس تحمل في يسراها كوب الشاي الخالي من السكر كما تفضله و على المنضدة أمامها كان هناك قطع من بسكويت الشكولاتة التي تعشقه منذ الصغر و كعادتها .. تتلذذ كل قطعة فيه تماما كالاطفال . حضر رؤوف قادماً من مكتبه و في يديه يحمل كتباً متعددة وضعها على المنضدة أمام فريدة ثم تبسم اليها قائلاً :
- عزيزتي .. ستساعدك تلك الكتب و الروايات في أوقات فراغك .
أجابته فريدة دون أن تنظر إليه بلهجة قوية :

- و كيف تقضي انت وقت فراغك ..

فأجابها بعد أن تغير لون وجهه و تنحنح قليلاً :

- بالقراءة احياناً و ..
- و بماذا ؟
- اختاه . . ارجوكي لا تظلميني
- ما ظلمتك يا .. أخي
- أقسم لك أني كنت سكراناً ولا أعي ما أفعل
- و لو .. فليس ذلك بعذر لتعتدي على اختك
- اختاه ..
- لا تنادني بتلك الكلمة .. و استح قبل أن تنطقها
- لا تقس علي ارجوك ..
- أهكذا تراني بناظريك .. جسد !
- إن النفس لأمارة بالسوء ..
- عيب في حق لسان يرتل آيات القرآن أن يشرب خمراً
- اعدك بشرفي بأن لا أحتسيها بعد اليوم .

سكتت فريدة لوهلة و كأنما تقيس مدى إن كان كلامه صادقاً و كافياً من منظورها لإعتداله و صلاحه أم لا ، ثم اردفت :

- لا اريد وعداً شرفياً .. أتقسم على أن لا تشربها مجدداً ؟

صدرت عنه ضحكة صغيرة سرعان ما وراها و كأنما صدرت عنه بعدما ظفر بمراده و نال غايته :

- اقسم لك ..

- الان فقط استطيع أن اقول بأنك اخي حقاً .. و الان اخبرني ما تلك الكتب التي احضرتها لي ؟

- إنها بعض من روايات شكسبير التي فرغت من قرائتها و ..

قطع حديثهم صوت خادمة القصر و هي تلتمس إذناً من رؤوف باشا لحاتم كبير الفتوات بالدخول .. فأذن لها .

دخل حاتم مهرولاً متقطع الانفاس و العرق يتصبب من جبينه و لقلبه دقات قد تسارعت نبضاتها ثم توجه للوالي قائلاً :

- رؤوف باشا .. أخبار عاجله

فأجابه الوالي مقاطعاً إياه :

- إلتقط أنفاسك اولاً .. فما سمعت في حارتنا يوماً بأخبار عاجله

ثم توجه بكلامه مخاطباً فريدة التي ارتسمت على وجهها علامات الفزع و قال و هو يبتسم :

- حاتم .. أسد الحارة اليقظ و عينها الساهرة .. و اعز اصدقائي .

فأومأت فريدة برأسها أن مرحباً و ملامح الفزع لم تختف بعد ، ثم قال حاتم :

- سيدي .. هناك ثورة عارمة في الخارج .

- عن أي ثورة تتحدث .. و من في حارتنا تلك يفقه شيئاً عن الثورات !
- سيدي .. لقد مات الشيخ عثمان إمام مسجد الحارة فجر اليوم ..
- أهو ذلك الشيخ الذي تطاول على مقامي في خطبته بالناس الجمعة الماضيه ؟
- نعم .. هو بعينه
- و ماذا في ذلك !
- لقد ألهب حماسهم شخصاً يقرب الثلاثين من عمره يقال له خضر ..

فقاطعته فريدة بنبرة متفاجئة :

- خضر !

و سالت من عينيها دموع خلسة و ارتسمت على وجهها ابتسامة خفيفة بعد أن اشتعل وجهها مضاءاً بلون الدم المتورد .. و ذلك قبل أن يقاطعها الوالي بوجه مكفهر و ملامح غاضبة و بصوت مضطرب قال :

- لا تفرطي في الفرح .. ماذا فعل هذا الحقير ؟!
- لقد خطب بالناس اليوم الجمعة .. و أوغر صدورهم ناحيتنا و افترى علينا كذباً أنا من تسببنا بقتل الشيخ
- اه .. و الله ما رأيت افتراءاً أشد من هذا .. كيف نقتله و قد مات فوق فراشه !

- إنه يدعي بأننا قد تسببنا في إيذاءه نفسياً و إهانة لكرامته بعد أن تمت معاقبته على جريمته في الايام الماضيه .
- إني أعجب من هؤلاء الناس الهمج .. يخطئون و يكرهون أن يعاقبوا .. و ماذا يحدث الان في الحارة !
- قتل بعض من جنودنا أثناء تأمينهم لجنازة الشيخ .
- هل تسبب خضر في ذلك !
- هو من قاد أتباعه للاعتداء على جنودنا سيدي .
- و ما تنتظر .. إدفع بباقي جنودك بأسلحتهم و اقبض عليه و على كل من ساعده .

هنا صرخت فريدة فزعة و قالت :

- لا ياخي ... ارجوك

و لكن قاطعها رؤوف قائلاً :

- آسف عزيزتي .. ما فعلت هذا الا مضطراً . خوفاً من إشاعه الفوضى في ارجاء المملكة .

ترجته فريدة و مالت على يده في خضوع شديد تقبلها و قد تلألأت عيناها بالدموع و اغرورقت . كان حاتم ينظر اليها و على فمه ابتسامه صفراء تنبع من قلب قاسٍ كافرٍ بدين المشاعر و المحبة و يسخر من معتنقيها و رهبانها .

نظر رؤوف الى فريدة و عينيه تحمل من معان الشفقة و الرأفة ثم توجه بالكلام لحاتم و عينيه لا تزالان في عيني فريدة :

- يا ليت لي قلب كقلبك .. من حجر

****

كان ذلك اليوم حقاً متعباً .. آوى الى فراشه لينال قسطاً من الراحة التي بخلت عليه و تكبرت .. يتقلب عن اليمين و الشمال دون أن يجدها . خاف أن تستيقظ زينب الغارقة في نوم عميق عن يمينه . قام خضر بهدوء شديد و قصد خزانة الملابس .. استخرج من جوفها عباءه قديمة لأبيه . تحسسها ببطء و كأنما يتلمس فيها ابيه .. وضعها على أنفه و استنشقها وما زالت تأوي شيئاً من رحيق أبيه عجز الزمان على محوها ..

ارتدى العباءة و خرج من الغرفة و من الدار بأكمله .. قصد النهر .. ومن له غير النهر صندوقاً عميقاً يأوي كافة أسراره و صديق وفي في زمن انقرضت فيه معاني الوفاء . كان القمر متوارياً خلف أوارق الشجر من فوق خضر و النهر يجري أمامه و عليه شيء من ضوء القمر يتراقص مع تقلبات الامواج . جرت نسمة خفيفة من حوله و هو يحمل في يديه بعض من الحصى و الطوب الصغير يلقي به في النهر .. أيقظت في نفسه ذكرى قد توارت في أعماق أعماقه . إنها تلك العجوز ذات السبعون عاماً

او يزيد بعينها البيضاء و ضفيرتها الفضية المتدلية حتى أسفل ظهرها و من أمامها تلك القفة المغطاة .. تذكر كلماتها التي ومضت فجأة في ذهنه و تسربت على لسانه . لقد نصحته نصيحتين تناقض احداهما الاخرى .

" اياك ان تكون كأبيك فتكون نهايتك مثله .."

"إياك أن تنحني و ترضخ لاحد .." . و ما كان من أمر أبيه إلا أن رفض أن ينحني و يرضخ و يعلن الاذعان لأوامر الوالي المتنمرد و المتكبر على رعيته فكانت نهايته تلك التي نحتت في ذكرياته الحزينة . فكيف لا يرضخ و كيف لا يتشبه بأبيه !

حار ذهنه و تشتت و تصبب جبينه عرقاً و هو يجاهد في حل تلك المعادلة الصعبة و تلك الطلاسم الغريبة ليوقظه فجأة من شروده صوت لم يكن يتوقع أن يسمعه في يقظته ابداً .. انه الشيخ نور الدين !

ذعر خضر و ارتسمت على وجهه علامات الفزع و الخوف و هو ينظر الى أبيه الجالس عن يمينه يحمل هو الاخر في يديه بعض من الحجارة الصغيرة يرمي بها في النهر .

- أخائف ؟
- من أنت !
- أنسيتني ؟
- لست أبي .. أنت نفر من الجان .. إنصرف بحق الله رب سيدك سليمان و إلا أحرقتك بآيات القرآن الكريم ..

ضحك الشيخ حتى بانت نواجزه ثم قال :

- اهدأ يا ولدي و تريث فلست بجان ولا عفريت ..
- إذاً فأنا أحلم تماماً كما ألقاك في احلامي كل مرة .
- ليس تماماً و لكنما أنا من يجيء إليك .
- لم ؟
- جئت لأيقظك .. فالناس في ذاك الزمان غافلون
- الناس في كل زمان غافلون يا ابي ..
- لا يا ولدي .. فالخوف قديماً كان سر سكوتهم و خضوعهم للظلم
- و اليوم ؟؟
- اليوم تعايشوا معه و اعتبروه حقيقة و واقعاً سائداً .. و بات العدل و ظهور الحق هو الاستثناء و الخارق للعادة !
- لنا الله يا ابي ..
- بني .. لقد اشتقت اليك حقاً
- لكم انفطر قلبي من الشوق يا ابي
- اقترب الوعد الحق
- انتظر ..
- احترس يابني من الصليب
- ما سر ذلك الصليب الذي طالما حدثتني عنه !

اختفى سراب الشيخ نور الدين و هو يلتفت بنظره عن خضر تجاه النهر بعد أن قطع الحوار الدائر بينهما صوت زينب تنادي بتعجب بالغ شديد الوضوح في نبرتها و هي تقول :

- أتحدث نفسك !

احمر وجه خضر و استدار بجسده مواجهاً النهر و قال و هو يرمي بالحصى في النهر لتصدر امواجاً دائرية لا نهائية :

- لا شيء .. متى افقت !

- لم أجدك بالفراش بجانبي فقلقت عليك

استدار خضر ناحيتها و قد كانت تقف وراءه أثناء كلمتها تلك و قال و في عينه لمعة خفيفه و بسمة طفولية تعلو شفتيه :

- حقاً !

- ألا زلت تسأل !

لم يستطع أن يجيب عليها فقد تلون وجهه بالكامل بالاحمر و فرت الدموع الخفيفه من عينه رغماً عنه و ما كان له سوى العناق كخير وسيلة للرد . أحاطها بذراعيه بقوة و حملها حتى باتت قدميها لا تلامس الارض . أسكن وجهه في صدرها يخفي تلك الدموع التي سببت له إحرجاً و خجلاً مفرطاً أمام زوجته المحبوبه .. زوجته التي لم تفارق مخيلته طوال غيبته . هي بدورها تلمست شعرات رأسه الطويلة بأناملها برقة بالغه ، ثم

أمسكت لحيته بأصابعها التي احتفظت بنعومتها و دفئها المعهود و رفعت برأسه للاعلى لتتقابل عيناهما .. ثم مالت نحو أذنه بدلال و همست برقة

- أحبك

و نظرت بعدها له مرة اخرى و كلاهما يبتسم إبتسامة منبعها الاصلي هو القلب و ليس غيره .

١٥

لم يكن خضر لينسى ذلك الموقف الغريب الذي سيظل عالقاً في الذاكرة الى أن يموت او يفقدها ..

كان في طريقه متجهاً الى مسجد الحارة لأداء فريضة الظهر . عندما ظهرت تلك العجوز أمام عينيه فجأة و كأن الارض قد بصقتها للتو أمامه دون سابق انذار . تلك العجوز .. ذات الشعر المشذوب و الايدي المتسخة و الثياب المهلهلة الباهتة التي زعم أنها كانت تحمل ألواناً في أحد الايام .

تنظر اليه في عينيه بحدة و هي تتلمس وجهه بأصابع يمناها ثم قالت :

- اسكت ..

تعجب خضر من كلامها و رد قائلاً :

- لكني لم اتكلم يا أماه !

- صه .. اسكت ..

- كيف اسكت و انا لم انطق !

- اسكت يابني ..

حاول خضر مجاراتها و التعامل على قدر عقلها إن كان فيها فقال :

- حسناً سأسكت ..

- الكل يتربصون بك ، ينتظرون غفلتك كي ينقضوا من الخلف و يطعنوك . و الخناجر اليوم مسمومة يا ولدي . انظر

نظر خضر الى حيث كانت تشير تلك العجوز ذات العقل الخرب بإصبعها ناحية السماء ، ثم تسآئل قائلاً :

- إلام أنظر .. أترين شيئاً لا أراه !

- إنها النسور و الغربان يا فتى .. تنتظرك

قالتها المرأة وهي تكشف عن اسنانها السوداء و تنجرف في بئر من ضحك هيستيري مخيف ، ليهم خضر بالذهاب متسارع الخطى قاصداً المسجد و هو يقول لها :

- حسناً سأذهب الان لأصلي ..

فأجابته العجوز بلهجة ساخرة و ضحكات متعالية :

- إذهب .. فالنسور تحب لحم المؤمنين

تمتم و هو في طريقه راحلاً بتعجب :

- لقد اكتظ المكان بالمجانين ..

****

كانت في غرفتها تقرأ في كتاب استعارته من تلك الكتب التي ازدانت بها ارجاء المكتبة الضخمة في مكتب رؤوف الخاص في القصر . تسرح بخيالها و تسافر بعقلها من أقصى الشرق لأقصى الغرب و هي في محلها . كأنما تمارس إسقاطاً نجمياً لكن دون تأمل .. بالقراءة .

أخرجها من انسجامها مع ما تقرأه صوت الطرق على باب الغرفة و انتظار الطارق الاذن بالدخول . أجابت بتأفف أن ادخل و كان الطارق المتوقع هو رؤوف .

جلس على طرف الفراش القريب من الكرسي الميادالذي كانت تجلس عليه و هي تقرأ ثم قال لها محاولاً مداعبتها :

- ما بال القراءة قد شغلتك عن عالمنا !
- إني أهرب من عالمكم لعالم لا أجده إلا في القراءة .
- إذن انتبهي .. فتعدد العوالم قد يذهب العقل و يقود الى الجنون
- و ما الفارق !
- ماذا ؟
- أوتدري .. بت أحسد المجانين على جنونهم

رد على مقولتها غمزاً فقال :

- أكل هذا البؤس و لا زال خضر حي و في مملكتنا ؟

تبسمت شفتاها تلقائياً كزهرة تفتحت ورقاتها مع هطول المطر و قالت وهي تتلذذ بحروف الاسم :

- خضر ..
- لا أدري كيف يكون كل ذلك الحب لشخص كهذا !
- و من تريدني أحب ! انت يا .. اخي

توهج وجهه و احمر و تلعثم في نطق الكلمات بعدما أحس بانها قد أحكمت قبضتها على جوهر كلامه و غايته .

- الان تصمت !

نطق رؤوف بلسان ثقيل و وجه خجل يتوارى بناظره في الارض من شدة الحياء و كأنه طفل صغير :

- رغم أني لا أؤمن بكثير من معتقداتكم العاطفية تلك إلا أني اشعر أن هناك من يدفعني و يلقي بي في هواك . و كأني من سبايا بني اسرائيل ولا حول لي بجيش بختنصر العظيم او قوة . فقط استسلمت لذلك الهوى و آمنت .
- لكني اختك ..
- و ما العيب في ذلك
- و الناس و الدين !
- آمنت بشرع الحب و كفرت بالباقي ..
- ألتلك الدرجة تحبني

- و ياليت لي مثقال ذرة من مقدار حبك لخضر

قالها و قد تجلت في صوته نبرة عتاب حزينة ، فقالت و هي تخفي ناظريها في الارض هي الاخرى متحاشية النظر اليه :

- لو كنت حقاً تحبني لتركتني أعيش سعيدة مع من أحب . لكنك طردته من المملكة لخمس سنوات و بالامس كنت تنوي سجنه .
- أوتدرين شيئا .. أقسم لكي اني حاولت مراراً و مراراً لكني فشلت .. في كل مرة أراكي شاردة الذهن وانا على يقين أنك تفكرين به كنت أصرخ صمتاً من الألم .. أصرخ على أنك تحبينه ولا تحبيني .. و اصرخ لأني من حرمتك منه .. والله لقد حاولت أن اقتل ذلك الحب و أن اترككي له .. لكني فشلت
- ماذا بحق الله تظنني ! .. لعبة أم عاهرة من عاهرات الحارة ما تلبث أن تنساها بمجرد انقضاء شهوتك .
- لماذا تظنين بي تلك الظنون ..
- مما رأيتك عليه مسبقاً
- انا لست ببهيمة لا تملك قلباً ينبض أو مشاعر تتحرك .. انا مثلك يا فريدة أُحب و أذوب في العشق و أنكوي بنيران الغيرة ألف مرة في كل وقت أراك تنجذبين لذلك المنبوذ و تتحدثين عنه و أرى عينيك يشع منهما وهج الحب و الاعجاب ، فأتمنى لو تنشق به الارض و تبتلعه لكي لا تنشغلي به عني .

- و هل في ظنك إن مات خضر سأنساه .. لن يموت حبي له إلا بموت قلبي يا اخي .

قام رؤوف من مجلسه و على وجهه علامات الحزن و الاسى بعدما تملكه اليئس من كلماتها ، ثم تمتم قبل أن يهم بالانصارف :

- و من الحب ما قتل

****

كان جرس المأذنة يجلجل عالياً ليهز أرجاء الحارة شرقاً و غرباً و في غضون دقائق قليلة كان اهل الحارة جميعاً وقوف متأهبون لنزول صاعقة جديدة و كارثة جديدة تحط على رؤوسهم كسابقيها . فما سمع الناس جلجلة الجرس و ما التفوا حولها إلا لسماع فرامان جديد ظالم بائس ينغص عليهم معيشتهم و يكدر صفوها و يزيد هواءها تعكيراً .

اعتلى حاتم المنصة في مقدمة المأذنة و نظر بعين لامعه و وجه مبتسم إبتسامة شامتة متشفيه و كأنها إبتسامة غيظ لعدو مهزوم . نظر في أعين الناس أمامه و هم صامتون كأن على رؤوسهم الطير ، ثم تأهب لإلقاء البيان الهام على شعب المملكة العظيم او اهل الحارة المتمسكنين الصامتين فقال :

" أصدر رؤوف باشا الوالي حاكم المملكة وولي نعمتها قراراً جديداً بتصعيد مقدار الضريبة المفروضة شهرياً الى ضعف المقدار المعهود و على الجميع الالتزام بالقرار و من يخالف يلقى عقاباً رادعاً ليكون عبرة لكل من يعارض الاوامر .. و على الحاضر إعلام من غاب .. أدام الله المملكة شامخة و أمدّ عمر مليكها .."

تعالت صيحات الاعتراض و الهتافات الغاضبة من جموع الناس متأففين من قسوة القرار و ظلمه ، و لكن ما إن لاح حاتم كبير الفتوات بنبوته في الهواء حتى خيم الصمت الحضور و ما تجرأ أحد على النطق بكلمة خوفاً من أن يهوى النبوت على رأسه . لكن شتان بين نفوس و نفوس . شتان بين نفوس تخضع و ترضخ و ترضى بالانحناء و بين نفس عزيزة تعالى كبرياءها عن الخضوع لظلم او القبول بالهوان . و كالعادة في تلك المواقف ما كان خضر ليسكت .. فتعالى صوته و كسر حاجز الصمت الرتيب الممل الذي خضع له الجميع فقال :

- أما مللتم من السرقة !

ألقيت كل الاعين عليه و أولهم عيني حاتم التي احمرت من الغيظ و نطق فيهما الغضب و زمجر بصوت عالٍ فقال :

- اصمت و إلا حل بك ما حل بصاحبك -يقصد الشيخ عثمان-

فتعالت صيحات الناس الرائفة بخضر تحذره و تحثه على السكوت و كان أولهم الخواجه جوو الذي شحب وجهه و أمتص الحزن عوده و نحله هزيلاً

مهزوزاً بعدما فقد صديقه و رفيق دربه . ربد على كتف خضر و نظر إليه بعين العطف و الخوف أن اسكت كي لا تكون عاقبة أمرك الخسران و المذلة ، و ابداً لن تكون المذلة لمن أباها .. هرول خضر بسرعه ناحية المنصة و اعتلاها بعد أن دفع حاتم من جانبها ليوجه كلمته للناس المجتمعين امامه و نظرات الاندهاش الممزوجة بالخوف و الجزع تملأ اعينهم :

" أيها الناس .. ما امتطاكم الانذال إلا عندما أحنيتم ظهوركم لهم . فإلى متى السكوت عن الظلم و الرضاء به ! إلا متى سنظل صامتين على سرقتنا علناً تحت مسمى الضرائب و باسم القانون ! إلا متى سنكتفي بتمتمات الاعتراض التي لا يتجاوز صداها الانفس ! إلا متى سنظل خائفين من ذلك النبوت الهش و القابضون عليه المسكون به بأيديهم المهتزة المرتعشة ! "

أجاب خضر أحد الواقفين فقال له :

- و كيف لا نخاف وقد هوى ذلك النبوت على رأس كل من اعترض فأرداه قتيلاً .. أنسيت ما قد كان من أمر الشيخ عتمان و ابيك من قبل كأوضح مثل !

أجابه خضر بعدما ابتلع مرارة كلماته القاسية و اسكن تلك الغصة التي نزغته في قلبه فقال :

"ما كنت لأنسى يوماً ما جرى للشيخ عتمان و ما حل بأبي من ظلم وضّاح .. و لكن الحق أقول لكم ، فما كان الشيخ عتمان ليهان أمام أعيننا و ما كان

أبي ليقتل على مرأى و مسمع منكم لولا أنكم تصلبتم كالتماثيل التي لا نفع لها او ضرر .."

فجاءه صوت منادٍ آخر من القوم الوقوف يعترض على كلام خضر باستهزاء و سخرية فقال :

- لا نسكت .. بل نعترض فيحل على كلانا العقاب ! ، هلموا ايها الناس و واجهوا نبابيت الفتوات و بنادق الانجليز تحميهم من خلفهم بأصواتكم العازلة و صدوركم العارية .

ضج الناس بصيحات الاعتراض و ضحكات الاستهزاء التي أجرت تعبيرات الخجل و رسمتها واضحة كسماء ليلة مقمرة على وجه خضر الذي لم يكن يضع في حسبانه مطلقاً أن يقابل الناس ثورته بذلك الرد المخزي و لم يكن يتصور ابداً أن يصل استوطان الخوف و الذل في نفوس اهل المملكة الى ذلك الحد المرعب .

قال و قد بلغ منه الغضب مبلغه و اشتعل وجهه كالجمر :

"لن نحاربهم عزل .. فكل منا له سلاحه الخاص "

- و ما سلاحنا نحن الضعفاء !

" اضربوا عن اعمالكم .. فلا تزرعوا ولا تحصدوا ، ولا تصنعوا ولا تنتجوا ، و اعتصموا امام القصر حتى يرضخ لإرادتنا الوالي و يستمع لنا "

أعجب كثير من الناس بما قاله خضر و انغرست في نفوسهم بذرة لثورة على وشك أن تشهدها المملكة لأول مرة .

في ذلك الوقت كان حاتم قد تقهقر و جنوده خفيه حتى لا تطولهم ثورة خضر و رجال المملكة المتحمسين و هموا بالفرار في ساعتهم .
قاد خضر الجموع و توجهوا ناحية قصر الوالي منددين بالفرمان الجديد و مطالبين باسقاط تلك الضريبة الجديدة و اسقاط كل ما سبقها من ضرائب ظالمة تزايدت الواحدة تلو الاخرى على مر السنوات .
تعالت هتافاتهم و تزايدت امام بوابة القصر الحديدية .. و ما سكتوا حتى قدم احد خدم القصر ينادي على خضر من بينهم ليقوده إلى الوالي الذي أراد الاجتماع به سراً .

****

- اهلاً بالثائر ابن الثائر
- من فضلك ..
- لم اكن اتوقع ان تقبع تلك الخساسة في قلبك و كل ذلك الحقد
- عن أي حقد تتحدث ..

قاطعه رؤوف بحدة قائلاً :

- لست هنا لإلقاء خطبة عن الظلم و الحقوق و ترهاتك تلك
- إذاً لماذا دعوتني !

- هل تظنني فقير لدرجة أن انظر إلى اموالك و اموال هؤلاء الحمقى الفقراء تعيسوا الطالع !
- لماذا إذا ضاعفت من قيمة الضرائب المفروضة بالاصل ظلماً و عدواناً ؟
- أنت بالفعل لا تفهم شيئاً .. و انظر الى أين أوصلتنا افعالك الحمقاء الساذجة معدومة التفكير

تلك المرة رد خضر بعنف فقال :

- بحق الله أخبرني لم دعوتني ..

فأجابه الوالي بعدما ارتشف القليل من كأس الماء المثلج الموضوع على الطاولة المتحركة بجانب مكتبه :

- منذ أمد بعيد ، و قبل حتى أن يولد أباك او أبي . كانت المملكة خاضعه للهيمنة البريطانية و لنفوذها و سلطتها . كانوا هم من يحكمون و يحاكمون . كانوا كل شيء في المملكة ، و أكلوا كل شيء من خيرها . حتى ضاق بالناس و اشتد عليهم البئس فثاروا على الحاكم - تماماً كما حاولت اليوم - و استطاعوا بحماستهم وشجاعتهم و اتحادهم وقت إذٍ أن يطردوا الحاكم الانجليزي . و لم يمض يومان على الثورة حتى ارتد الجيش الانجليزي للثأر و كان الناس في أوج احتفالهم وقتها . مات من مات و بقي على قيد الحياة القليل . و عاد الحكم مرة اخرى تحت راية الانجليز و لكن

بشكل مختلف . فلم يكن الحاكم ذو جنسية بريطانية . و لكنه كان من قام بالثورة من أبناء شعب المملكة .. إنه جدي عابد الوالي . و قد تعهد و الشعب مع المبعوث الانجليزي على دفع ضريبة سنوية وإلا وقعوا طرفاً في حرب شرسة ضد جحافل الانجليز .

- و ما زلتم على ذلك العهد الى اليوم !
- لماذا برأيك تظنني أفرض الضرائب إذا !
- و إلى متى ..
- إلا أن يأتي ذلك الجيل من الشعب الذي يشري نفسه ابتغاء حرية و استقلال المملكة .

تسائل خضر بلهجة لم تطرب لأذن رؤوف باشا :

- و هل سيأتي برأيك ؟

قال رؤوف و قد هدء روعه و سكنت نبضاته :

- الحق اقول لك و انا ادرى الناس بشعب المملكة .. فهم يستحقون ما ينالهم من بئس و ضرر ..
- ليس كل الناس عبيد
- أفق يا صغيري .. ما لي أراك تحابي لقوم قد استحبوا العبودية على الحرية و ذاقوا طعم الهوان مراراً حتى باتوا يتللذذون به !
- صدقني ، الكثير من الناس احياء .
- اني اشفق عليك حقاً ..

- سأثبت لك .
- افعل ما شئت .. لكن احذر أن تغضبني يا فتى ، و يكفيك ما قد سبق .

ابتلع خضر ريقه ، ثم هم بالخروج فاستوقفته لبرهة جملة قالها الوالي همساً :

- و على الثائر تدور الدوائر .. خضر كسر في السفينة !

١٦

فريدة ..

"لم أكن أتوقع أن اراه مرة اخرى . لكني رأيته ، و هنا ؟ في القصر ! استيقظت ذلك اليوم كعامة الناس في المملكة على صوت جلجلة ذلك الجرس المزعج . لا زالت طناته في أذني حتى اللحظة تهز طبلة اذني بإيقاع كإيقاع زار متحمس لطرد عشيرة من الجان .

لم تمض سويعات قليلة حتى تبدلت تلك الطنات بصيحات غاضبة من جمع غفير غاضب يقترب من القصر . وقفت أسترق النظر من خلف ستائر شرفتي خوفاً من قيام حرب في ساحة الحديقة . أو هكذا ظننت بعد تلك الاصوات .

كان يتقدمهم .. لم أكن لأجهله أو أخطاه ابداً ، حتى بعدما طالت لحيته اكثر و ازداد عوده نحافة و ضعفا . كانت أوردته تلتف على جانبي عنقه تزمجر غاضبة على غرار وجهه شديد الاحمار كفوهة بركان لحظة ثورانه و صيحاته العالية التي ألهبت حماس كل من تبعه من الناس فكانوا يهتفون وراءه منددين بظلم و طغيان طالهم من الوالي .. أخي

لم تمض لحظات حتى سكنت الصيحات و هدء القطيع فنظرت لأرى ما جد في الامور من احداث فإذا بالخادم يقود خضر إلى الداخل . لم أدر ما سر تلك الضربات المتسارعه التي وخزني بها قلبي و لكنها كانت على رغم الالم .. لذيذة .

قطفت وردة من الورود التي في شرفتي على عجالة و هرعت خارج الغرفة ثم انتظرت حتى لاح ظل خضر من بعيد و كان الخادم قد تركه و اقفاً امام باب مكتب اخي رؤوف في الطابق الارضي للقصر . كان وحده عندما ناديته بهمس سمعه و نظر إليّ فألقيت له بالوردة .

لكنه .. لم يلتقطها ! ، دخل مسرعاً بعدما أشار له الخادم بالدخول الى رؤوف ولم يلتفت إلي حتى ! عدت إلى غرفتي بسرعة قبل أن يلحظني الخادم الذي نظر الى الوردة المقاة على جانب الباب فيفتضح أمري .

لم أعلم لتلك الطاقة التي كتمت أنفاسي مرة واحده تفسير معقول او سبب يذكر . أحسست و كأن شيئاً يقبض على عنقي بكلتا يداه لأختنق .

إني حقاً أختنق ! .. أكاد أموت .. أكاد اهلك حزناً من رد فعله الخاذل المخيب لآمال قد تعلقت بها كسراب البادية طوال سنوات خمس . لم أشعر بعيناي و هي تفيض بذلك الكم الهائل من الدمع . طوفان ثانٍ قد تفجر من عيني قبل أن يفور التنور .

نظرت في المرآة و تأملت ملامحي و وجهي و قد ارتسمت على جانبيه خطين اسودين من اثر امتزاج الدموع بالكحل . تأملت تلك التجاعيد بجانب عيني التي نمت في غير موسم حصادها . تلك الهالة الكئيبة التي حلت على وجهي النضر الفاتن . ذلك الاسمرار الخانق اسفل عيني لم يأت من فراغ . لقد ترسب النقطة تلو الاخرى على مر سنوات قضيتها في انتظاره . مع كل يوم بكيت من شدة الشوق كانت تترسب نقطة سوداء ، و مع كل همٍ جديد و كل ألم جديد يأتي تأتي معه نقطة سوداء حتى اختفت عيني من شدة الظلمة تحتها .

لكن .. أوتدري شيئاً ، مع كل هذا الالم و رغم قسوة ذلك الموقف الأليم إلا أنني أسامحه ، فأنا لازلت أحبه .."

****

خرج خضر من القصر و الكلمات تتراقص في مخيلته و تتلاعب بها جيئة و رواحا . لماذا لا يصارح الشعب بتلك العداوة مع الانجليز ؟ و لماذا

تتزايد قيمة الضرائب طالما أن الجزية قد فرضت منذ أمد بعيد ؟ ما السر الذي يخفيه الوالي ؟ و ما تلك السفينة الملعونة التي كسرتها ؟

لحظة .. لقد سمعت تلك الجملة مراراً في احلامي العابثة التي تلازمني فكيف علم بها رؤوف ؟!

هكذا كان يتمتم محدثاً نفسه اثناء سيره في الحديقة متوجهاً لبوابة القصر الرئيسية . قطع عنه تفكيره و تأملاته ما رآه من منظر مخزٍ أطفأ لهيب الثورة في صدره و أخمد نيران التفكير التي ألهبته فقال للخواجه جوو و قد ارتسمت على وجهه كل تعبيرات التعجب و الدهشة :

- أين الناس !

سعل الخواجة و عدل من نبرته و طأطأ رأسه ناحية الارض قليلاً ثم قال بصوت متهدج تغلب عليه الحشرجة و كأنما كان يصرخ طويلاً :

- تفرقوا ..

فقال خضر و قد تبدلت دهشته غضباً :

- كيف ؟ و إلى أين ذهبوا ؟ و لماذا لم تمنعهم ؟
- مضى موسى الاصفر عائداً إلى قهوته متحججاً بأن المعلم سيغضب عليه و يقطع عيشه ، فتبعه عدد ليس بالكثير من الذين آثروا قضاء وقتهم في العمل بدلاً من الانتظار ، ثم ذهب كبار السن لأداء الصلاة و ما عادوا .

فقال خضر بامتعاض و غيظ :

- موسى الاصفر ! ذلك الشاحب المنبوذ

- هدء من غضبك يا فتى

فقاطعه خضر صارخاً :

- و كأن شيئاً لم يكن يا خواجه ! ، و كأن شيئاً لم يكن !

نظر خضر ناحية القصر و هو يشيح بيده في الهواء من الغيظ و الامتعاض و الغضب الشديد على تلك التصرفات الحمقاء التي لم ترق له البتة فإذا بعينيه تلمح الوالي ينظر إليه من وراء نافذة مكتبه و على وجهه ابتسامة كالحة لم يستطع خضر ابتلاعها ، فعدل من ملابسه بعد أن أحكم قبضته على أعصابه قليلاً و قال و هو يطحن أضراسه :

- هيا لنرحل من هنا ..

" إلام نجيء ثم نروح !
لا جئنا و لا رحنا
إلام نعيش ثم نموت !
لا عشنا و لا متنا
هو المنفى إذا كان البقاء
قرين أن نفنى ..
نجيب سرور .."

****

مضى الفتى متسارع الخطى حتى بلغ النهر . لم ينظر أمامه او خلفه ، ولم يبال بنظرات الناس المتساقطة كأسهم مشتعلة تضرب جسده من كل اتجاه . لم يبال بالهمس و الاحاديث التي لا مصدر لها إلا شطحات خيال اصحابها ، فمنهم من قال هذا الذي ظن نفسه بقوة الوالي و دفع بكامل جسده في مواجهة المدفع ، و منهم قال لقد أرداه الوالي منكسر الخاطر مخذولاً . و الحق أنه لم يخذله سوى جبنهم و تفتت عزيمتهم و ضعف إيمانهم بقضيتهم و نقص او بالأحرى انعدام ثقتهم بما يملكونه من أسلحة . إنهم اناس ظنوا الاسلحة فقط بنادق و سيوفاً تسيل من وراءها الدماء و تنقطع الابدان لأشلاء و أشلاء و غفلوا عن قوة الكلمة و ما لها من تأثير أقسى من الحجر و لكن لمن يتحلى بالصبر .

وقف عند النهر و حمل في يديه كومة من الحصى . ظل يرمي بها في النهر الواحدة تلو الاخرى حتى ضاق به الامر ، فلم يسعفه النهر لأول مرة في إزاحة الهم عن خاطره . ألقى بباقي الحصى مرة واحدة في النهر ثم هرول عائداً إلى بيته . لا بد وانهم في حالة قلقه عليه خاصة و أن النهار قد ولى و اطبق الليل كئيباً و ضيفاً ثقيلاً مظلماً دون قمر .

ما كانت تلك الثورة التي اضرمت نيرانها و انطفئت في اقل من سويعات مرت مرور الكرام على المملكة المنبوذة او الحارة التعيسة بالمعنى المتداول

بين قاطنيها لتمر مرور الكرام على أهل من أشعل فتيلها و أوقد جذوتها أبدا . سيطر هاجس بشع على زرقا و انطبق هم كالجبل على صدرها كانت توابعه ينابيع دموع تفجرت من عيناها ، و ما جدبت تلك الينابيع و يبست إلا و خضر في بيته حي يرزق . انهالت عليه زرقا بالعناق تليها القبلات الخائفة من شفاه مرتعشة و وجه عبوس . تبعتها زينب تحتضنه من ظهره و تحنو على شعره المسترسل على قفاه بحنيتها المعهودة التي عشقها خضر فانطفأت نيران غضبه و عاد كطفل صغير مدلل بين أحضان المرأتين و أعين صبيه لم تلهه دميته الصغيره ترقبه .

هطلت عليه أسئله اللوم و العتاب من كلاهما كما هطلت الامطار على قوم عاد فأردته بائساً كما أردتهم صرعى كأعجاز نخل خاوية . كيف لا و كلاهما ذاق مرارة فقد الحبيب من قبل ، فتلك فقدت زوجها و رفيق دربها الحاني العزيز و الاخرى فقدت أباها و من قبله أخيها . لم تكف الاسئلة و لم يهدء أي منهما إلا بعد أن استقطعوا من خضر وعوداً موثقة بأغلظ الايمان بأن فعلته تلك لن و أبداً تتكر مرة اخرى و رافقتها العديد من النصائح التي لم ترق لخضر و من على شاكلته كـ(لسنا بقوة الوالي لنعاديه ، الناس الذين تحاميت من اجلهم فروا و تركوك ، لا تلقي بيدك في التهلكة ...) إلى غير ذلك من تلك الديباجات المحفوظة في كل بيت و المتداولة على كل لسان خائف حذر .

لكن شيئاً ما قد قطع حديثهم المكتظ بالجدل و اللوم ، حين سمع طرقات على باب الدار قوية و في غير موعدها ، فالليل قد حل و الناس قد مكثت و استقرت في ديارها .

و ما كان صوت الزائر بالغريب على اذنه ، فمهما مرت السنوات لا زال يحفظ رنته و نغمته المميزة ..

****

١٧

لم يطرق الباب و لم يبال لردة فعلها فقط أدار المقبض و اندفع لداخل الغرفة مرة واحدة بوجه مكفهر و في يمناه يقبض على وردة و كأنما يعتصرها ، يخنقها و يرديها قتيله بين أصابعه .

فُزعت من ذلك الدخول المخيف السريع و قالت و قد تعالت نبضات قلبها و ارتسمت على وجهها علامات الفزع :

- رؤوف .. بحق الله لقد أخفتني . لم ..

لم تكمل سؤالها فقاطعها مزمجراً :

- وردة !

نظرت إلى الوردة المغتالة بأصابعه الدموية الممتلئة بتحسر و ابتعلت ريقها بصعوبة ثم حاولت تبرير موقفها قائلة :

- لقد كنت .. أعني اني لم أكن..

فقاطعها مجدداً :

- كنتي ماذا ! تبحثين عن مخرج و ما لك من مخرج

- نعم ألقيت له بالوردة ، فهل أذنبت .!

كان للكلمة جلجلة في أذنيه كصيحات ثمود الطاغية فانقض عليها كثور هائج ممسكاً إياها من ذراعها الايسر بعنف و قال و قد اقترب بوجهه من وجهها بشدة و اصطدمت أنفاسه الحارة الممتزجة برائحة النبيذ الكريهة بوجهها :

- لم و لن تكوني له .. أفاهمة أنتي !

فأجابت و هي تصرخ من ألم ذراعها و قد اشتدت قبضته عليه :

- لماذا ؟

فقال و قد أفلت ذراعها و قبض بكلتا يداه على كتفيها :

- لإنك لي أنا .. أنا وحدي .

حاولت التملص و الهروب من قبضته تلك على يداها فاصطدمت بالكرسي من خلفها فسقطت على الارض و سقط هو عليها تباعاً . تلامس جسدهما كاملاً و أحس بأنفاسها الخائفة المترقبة تلوح في وجهه ، و رقصت شعيرات صدره النافرة على إيقاع نبضات قلبها المتسارعه .

أحال يداه عن كتفها و أزال خصلات الشعر المبعثرة على عينيها بهدوء و هي تنظر إليه متربصة و خائفة مما سيحدث . ظل يدنو منها برفق و هدوء و هي ساكنة في موضعها حتى أطبق شفتيه على شفتيها بسرعه فأشاحت بوجهها بعيداً حتى تخلصت من تلك القبلة المحرمة قبل أن تبدأ أحداثها ، و صرخت به و قد برزت أوردة عنقها و اشتعل وجهها احمراراً :

- أأنت مجنوون ! أنا اختك أيها الغبي .

فنهض عنها و قد انطفئت شهوته ، ثم جلس و أسند ظهره للحائط و ضم ساقيه ناحية صدره و احتضنهما بذراعيه . قال بهدوء و قد مضت برهة من الوقت تخللها صمت رهيب من ناحيته و ترقب قلق من ناحيتها و كانت أنظاره ناحيه النافذة تبحث عن اللا شيء :

- اللعنة على قوانينكم ، أنا الذي أضع القوانين في عالمي و أنا من أقرر على أي قاعدة أسير .

****

خضر ..

" لم أكن أتوقع خيبة الامل تلك . كان الحماس يملأني و ظننت أخيراً أنه قد حان الوقت لإتباع نهج و سلوك طريق قد سلكه أبي من قبل . و

لكن يبدو أنني واجهت نفس الحظ العسر و نفس التماثيل التي ظلت ثابته في عهد أبي ظلت كذلك ثابته في عهدي . لوهلة ظننت في نفسي أني ابراهيم و في يدي الفأس و سأكثر أصنام الخوف داخلهم . لكن يبدو أنني أخطأت في الحساب و وقعت في فخ منصوب بحكمة من قدر لئيم مشاكس . حتى التماثيل لم تظل فقط تماثيل بل تحركت في عهدي بحركات كالحة بائسة مملة لم تشفع لهم و ردتني خائب الرجاء .

و على الرغم من ذلك فلا زال بداخلي هاجس يخبرني بأن هناك بين هؤلاء الناس من سينصرونتي و يتبعونتي تجاه الحرية . كل ما يمنعهم فقط هو سلطان ذلك الخوف المسيطر على تصرفاتهم كقيد من الفولاذ الصلب المتين ، ستمر الايام و تجري الاحداث و سأثبت للوالي أن اهل المملكة او اهل الحارة بلسان الواقع يستحقون فيضاً من حياة كريمة و متنفس من الحرية و التعبير عن الرأي .

من ناحية أخرى و منذ أن عدت إلى ارض الحارة ما عادت تنتابني تلك الاحلام مجدداً . انقطعت فجأة و بدون مقدمات . لا أعلم ما أشعر به حقاً و لكن و في أول الامر أحسست براحة لأني أخيراً و بعد خمس سنوات من العذاب سأنعم بنوم هادء لا يعكر صفو هدوءه تلك الاحلام العجيبة . و لكن بعد فترة انقطاع آخذه في الازدياد بدأت أشعر بالشوق الى تلك الاحلام و الحنين لها . بل أصبحت لا أستلذ بنومتي كما السابق و الماضي

، فالخوف احتل محل الاحلام و بدء يراودني عن نفسي في كل غفلة عن عالم اليقظة حتى بلغ بي الامر أن بت أحتمي بوسادتي !

احتضنها من شدة الخوف و القلق و التفكير و التقلب على الفراش يميناً و يساراً ذهاباً و جيئة ثم النظر مراراً ناحية الظلام المكتنف أرجاء الغرفة و الذي ما كان يزول بعد وهلة كما في الماضي . أراه يتجسد في هيكل ضخم مخيف و رأس يعلوه قرنين يبدو أنه استعارهم من أبالسة الجحيم ، ثم إذا به يقترب مني ببطء شديد و أنا أرقبه و العرق يتفصد عن جبيني بغزارة كالمطر . أكاد أصرخ فأشعر بحشرجة في صوتي تخرسني . أبكي فإذا بالدموع تتجمد بعيني آبيه النزول . أحاول الهروب بأي شكل فإذا بجسمي متخشب يابس ثابت في المكان و هو ما زال يقترب مني ليخنقني . ما عاد بوسعي سوى الأنين كأنين زكريا قبل أن ينشر بجوف الشجرة . فإذا ما صدر صوت صراخ زينب و هي تناديني بجزع و خوف يختفي تاركاً أثار يديه على رقبتي و عيني تبرقان بشدة و لمعان مخيف . تسألني ماذا بك ؟ فأجيبها بلا مبالاة لا شيء .. و الحق قد أصابني كل شيء .

أعود إلى مرقدي مدعياً السكينة و مرتدياً قناعاً من اللاشيء كي تهدء زينب و تخلد للنوم مجدداً . و ما تلبث الافكار أن تعبث بعقلي مجدداً فتراودني التساؤلات العجيبة مرة اخرى . ترى لماذا خلقت ؟ أحقاً ما يحدث لي قد كتبه الله ؟ لماذا ! ما الحكمة في أن ينفض الناس تاركين سبيل الوصول الى حقهم المهضوم ! ما الجدوى من تعمير الارض و إنجاب

أجيالاً لن تعرف إلا سبل الخوف ؟ تجعل من الخضوع سنة و من البؤس اسلوباً للمعيشة ، وتتخذ من الذل و التلذذ بالمذلة مناهجاً يسيرون عليه كما فعل أباءهم و أجدادهم من قبل ! ألهذا خلقهم الله و لا زال يخلقهم ؟ لتعمير الارض ! لا زلت أشك و أطعن في تلك العلة ، و أتعجل معرفة الحكمة من وجود مثل تلك الطوائف على ظهر الارض .

..

حقاً لم أكن أعرف ما هو التصرف الصحيح في مثل هذا الموقف المباغت و الآتي في غير موعده !

وردة ! لم الان ! و لم الان تحديداً ؟ في رأيك أهذا وقت صالح للغزل و الحب ؟ نظرت إليها بوجه خال من التعبيرات صلب الملامح كي لا أورط نفسي في موقف ينفع أو يضر . فما عدت أريد من وراءهم نفعاً ولا ضرا .. يكفي خمس سنوات قضيتهم هرباً من اللاشيء !

لم أتناول تلك الوردة عن الارض كي لا تفسر تصرفي بأني متيم بها . فأنا متزوج و أحب زوجتي .. فياليتها تفهم ، و ياليتني أجيد الكلام .."

****

ما كان الطارق بالغريب ، و ما كان ليخطأ نبرة الصوت ابداً ..

إنها فريدة ..

و لكن ما سر تلك الزيارة وقد حل المساء بستائره المظلمة الثقيلة و الناس نيام ! . دخلت المنزل و عليها برنس أسود طويل لامع بغطاء رأس طويل أخفى رأسها ونصف وجهها كي لا يتعرف عليها أحد من أيقاظ الليل السكارى المكتظين خارج حانات الحارة .

تعجب خضر من حضورها المفاجئ و من ترحيب زرقا و زينب بها و كأنهم أصدقاء منذ زمن فات . نهض من جلسته و قال و التعجب واضح في نبرته :

- انت ! .. ما الذي أتى بك !

فقالت زرقا مهدءة إياه :

- رويدك يا ولدي .. إنها فريدة هانم

فقاطعها خضر قائلاً :

- غنية عن التعريف يا أماه . لكني أتسائل كيف تعرفينها و ما الذي أتى بها الى هنا و الان !

فأجابت بصوت هادء و وجه شاحب متعب بعدما أزالت عنه الغطاء :

- جئت أنذرك ..

قالت زينب و قد وقع الخوف في صدرها :

- أمن شر لا سمح الله ؟

نقل خضر نظراته بين زوجته و بين فريدة بتعجب و قد تلاعبت الافكار برأسه كما يتلاعب الصبية بالكرة فتسائل قائلاً :

- كيف تعرفتم !

فأجابت زينب و هي تنظر لفريدة و عيناها قد تلألأت و لمعت بلمعة خفيفة تحمل دموعاً تجاهد كي لا تسح :

- إنها سر نجاتنا من الفقر في سنوات غيابك يا زوجي العزيز .

طأطأ خضر برأسه قليلاً و قد أحس بوخز الكلمات الجارحة كأسهم طائشه تتساقط عليه فتصيبه في القلب مباشرة ، ثم نظر ناحية فريدة فإذا بعينيها هي الاخرى تتساقط منها الدموع خفية و وجها متوهج محمر وهي تعض بشفتها العليا على السفلى ثم نظرت إليه و هو يتوجه إليها بالكلام من فم مستح :

- عجز لساني عن الشكر ..

فقالت و لم تتغير ملامحها و تسارعت كلماتها الجادة :

- لا وقت لدينا لذلك ..

- إذاً مم جئت تنذريني !

- من رؤوف .

ارتسمت علامات الخوف على زرقا و زينب و استطرد خضر قائلاً :

- لقد اجتمعت به اليوم و اخبرني بشأن العداء مع الانجليز و الجزية المفروضة .

- لقد صدق القول بشأن الجزية .. لكنه لم يصارحك بكل شيء .

- ما الذي أخافه إذاً !

توقفت فريدة لوهلة تلتقط أنفاسها و هي ترقب المرأتان أثناء ذلك ثم استكملت الحديث و قد استدارت ناحية خضر بأكملها :

- انا ..

قال خضر :

- و القصد ؟
- هناك ثأر بين اللورد و بين رؤوف .
- اكملي ..
- كان شاكر باشا السباعي زوجي على علاقة مودة و صداقة قوية باللورد . ازدادت تلك العلاقة اكثر فاكثر بعد زواجنا بسبب دخول طرف ثالث في العلاقة .
- جولنار هانم !

أماءت برأسها ثم استطردت :

- كان شاكر الرجل الاول لدى اللورد و بمساعدة جولنار كان يقدم يد العون للورد بكل ما اوتي من قوة ، ثم حدث أن قتل رؤوف شاكر . غضب اللورد على أخي و اعتبر ذلك بمثابة اعلان الحرب على اللورد لإعاقته لمسار مصالحة التي كان يجريها شاكر .

قالت زرقا و كأنما تسترجع ما مضى :

- لم تفرض الضرائب في الحارة مجدداً بعد موت مختار الوالي إلا بعدما ماتت زوجته جولنار .

فأكلمت فريدة و هي تنظر لزرقا :

- جولنار هي التي جمحت غضب اللورد عن رؤوف . لكنه لم يتعظ و أساء لها اكثر حتى فقدت عقلها تدريجياً ثم انتحرت في الاخير . و كان موتها بمثابة موعد لقيام الحرب بين اللورد و رؤوف .

فتسائل زينب :

- ثم ماذا ؟
- اخذ اللورد في اتباع سياسة تضيق النطاق على رؤوف على المدى الطويل ، فأخذ يفرض على المملكة ضرائب لا حصر لها تحت أسماء مختلفة .

فقال خضر و هو شاخص ببصره ناحية اللاشيء :

- و إما أن تُدفع دون اعتراض أو تعلن حرب لا طاقة لأهل الحارة بها ضد الانجليز .

فأومأت برأسها دون أن تنطق بكلمة اخرى ، فقال خضر بغضب :

- وما ذنب الناس ليتحملوا عواقب الحاكم !

فقالت فريدة و هي مندفعة :

- لقد سعى جاهداً لتجنيبهم الوقوع في تلك الحرب

فقال خضر مستنكراً :

- بأن يفرض عليهم من الضرائب ما انقسمت له ظهورهم !

فسألته بلسان باكٍ :

- ماذا ستفعل لو كنت مكانه !

لم يستطع أن يجيب فصمت طويلاً .. ثم قال لها :

- و ماذا فعلت أنت ؟!

- وما بيدي انا لأفعله !

خيم الصمت طويلاً في أرجاء الغرفة التي التفوا بها جميعاً ، و ما كسر شوكة ذلك الصمت إلا صوت فريدة و هي تقول :

- احذر من أن يمتنع الناس عن دفع الضرائب فيلاقوا ما هو اعسر من ذلك .

لم ينطق بكلمة و لا زال شاخصاً ببصره ناحية اللاشيء و في عينيه لمعة خفيفة .. فسألته زينب :

- بحق الله ما الذي دفعك لثورتك تلك !

نظر إليها مطولاً وعاد ينظر الى اللاشيء و كأنما لم يفسر ما قالته ، ثم و بسرعة التفت مندهشاً ناحية زرقا وقد أخرجته من شروده و عالمه الخيالي بعدما سمع منها ذلك الرد الذي لمس في قلبه موقعاً خاص .

****

١٨

استيقظ الناس في صباح اليوم التالي على صوت بالحارة مشؤوم و مكروه من كل صغير فيها و كبير . جلجلة الجرس الضخم تهز أرجاء المملكة من اقصى الى اقصى ، فهرولوا و قد وقعت في صدورهم خيفة و رهبة من اصدار فرمان ظالم جديد يكدر عليهم صفو معيشتهم اكثر من ذي قبل .

لكن تلك المرة كان الامر مختلف . تفاجئ اهل الحارة بعدما تجمعوا عن بكرة ابيهم بما رأوه . لم يكن حرس المنارة هم من جلجلوا بالجرس .
بل خضر .. رآه الناس معلقاً بكلتا يديه و جسده الهزيل بالحبل الضخم الممتد من منبت المنارة إلى الجرس المستقر في أعلاها . يجذبه بكل ما أوتي من قوة ليصدر أقوى صوت ممكن ليجتمع الناس جميعا .
اعتلى خضر المنصة و من خلفه وقف الخواجة جوو بعدما اجتمع أهل الحارة جميعهم ، ثم بدء يتكلم ليفصح عن سر فعلته تلك التي بالكاد سيعاقب عليها ، فللجرس حرمة كحرمة الديار .
" يا أبناء المملكة .. قد حان وقت العمل . حان وقت التضحية الكبرى و وقت القتال و الموت من اجل المملكة "
ارتسمت علامات التعجب و الدهشة على وجه الحضور و كثرت التساؤلات و تفشى بينهم الهمس كما يتفشى الطاعون بقوم . سأل احد الحضور خضراً :

- عن أي موت تتحدث !

سحب خضر بعض الانفاس المتسارعة ليسكن رهبة في جوفه و أخفى يديه وراء ظهره ليواري رعشة سرت في أصابعه ، ثم أخذ في الحديث عن صراع المملكة العتيق مع الاحتلال الانجليزي الغادر الظالم ، وما فرض عليهم من ضرائب ظالمة لم و لن يكسر دوامها سوى حرب حتمية ليكسروا شوكة المحتل و يتحرروا من قيود الخوف التي استوطنت أفئدتهم .

- هل أنت تحت تأثير خمر او ما شابه ؟

هكذا تسائل موسى الاصفر مستهزءاً بحديث خضر و مثيراً موجة من الضحك وسط الجموع .

- **لست سكراناً ، بل أعي ما أقول . و لتعي أنت ايضاً ما تقول و يكفيك ما قد بدر منك سابقاً .**

قالها خضر بوجه مكفهر و صوت جهور غاضب .

- أتريد منا أن نحارب الجيش الانجليزي بجلالة قدره بسبب صراع بين الوالي و اللورد ! و تدعي أن الوالي من اخبرك بذلك ! يا لوقاحتك و جرأتك على مواليك .

ثم التفت الى الناس و قال بنبرة بدا و كأنه يستعطفهم :

- أيها الناس .. ما اجتمع بكم اليوم ذلك الفاسق إلا ليوقع بكم فريسة سهلة تحت فك الانجليز لتخل لهم الارض . من يدري أين اختفى

لخمس سنوات بأكملها . أشك بأنه كان ينعم في أراضيهم و يزني بعاهراتهم ايضاً .

استشاط الناس غضباً و انفعلوا بكلمات الاصفر و بدأت صيحات الاستهجان و أصوات السباب تعلو من حول خضر و هو واقف في حالة ذهول لم تنتابه مثلها قط .

اعتلى الخواجة المنصة بجاور خضر ثم قال :

- ايها الناس .. احذروا ان تنساقوا وراء كلمات ذلك الثعبان فإنما يريد أن يوقع بينكم الفتنة . وما جاءكم خضر الا ناصحا

فقال موسى وهو ينظر إليه نظرة احتقار :

- و من سيشهد للخائن سوى الانجليزي !

- اخرس أيها السفيه .. لقد عشت في تلك الحارة سنوات اكثر من سنوات حياتك كلها .

فقال الفتى و هو يضرب كفاً بكف :

- و هانت عليك كل تلك السنوات !

فقال خضر و قد اشتعل وجهه غضباً :

- **و ما الفائدة التي سأجنيها برأيك من خيانتي كما تدعي ؟**

فقال موسى الاصفر و هو ينظر للناس لا لخضر :

- تورط اهل الحارة في حرب ما لهم بها طاقة فينهزموا و يفنوا عن بكرة ابيهم و تخل الارض امام الانجليز يرتعون فيها و يتصرفون كما

يحلوا لهم و لك في ذلك كله مكافأتك . و من يدري ربما تطمع في أن تنصب والياً على الحارة .

تعالت الهتافات الغاضبة من اهل الحارة المنساقون خلف كلمات موسى الاصفر و كأنه ساحر أو نبي لا ينطق عن الهوى .

و ما أوشك خضر أن يرد على افتراءات موسى الكاذبة حتى أحس بضربة قوية هوت على رأسه اختل منها توازنه . سقط على الارض و عيناه ترى الاجسام مهزوزة مختلة .. نظر بجانبه فإذا الخواجه هو الاخر ملقً على الارض و الدماء تسح من رأسه بغزارة و حرس حاتم يسحبون كلاهما الى السجن لا محالة .

****

خضر ..

" ما أشبه الحلم بالواقع ! . هوى النبوت الطائش على مؤخرة رأسي فوقعت في لحظتي على الارض . زاغ البصر و تعددت الذات الواحدة في ناظري و أنا أجاهد كي لا أفقد الوعي . أتذكر أني قبل أن أغط في نومتي تلك قد نظرت إلى وجوه الناس السعيدة و المنتشية أمامي ! سمعت صيحاتهم و هي تشجع جند الفتوات على ضربي انا و الخواجة .

تذكرت الحلم الغريب ، و السكارى الدائرون و هم يهتفون "اصلب .. احرق" فما اشبه الحلم بالواقع ! . يا ليت كانت حياتي حلماً و أحلامي واقعاً .

حملني الجنود الى سجن مظلم ضيق و كئيب من حجر أصم و في أحد أركان جدرانه شق يسمح بتبادل الهواء بين العالم الخارجي و تلك الزنزانة او ذلك القبر بتعبير اوضح .

ألقوني على الارض بقوة و ما كان بجسدي موضع واحداً نجا من ضرباتهم المبرحة العشوائية . أسندت ظهري ناحية الحائط و ضممت ساقي إلى صدري و أخفيت بينهما رأسي ، ثم انتابتني حالة بكاء هستيرية ..

مر الوقت و أنا بين تأمل لقطعة السماء الظاهرة من الشق و بين تأمل في ظلام الزنزانة الدامس . لا أعلم كم ضاع من العمر و انا على تلك الحالة .. كم ساعة فرت ! كم يوم هرب ! ، أساعات مضت أم لعلها أيام ؟ لا ادري حقاً .. فالوقت يموت حين تتشابه التفاصيل .

بدأت وسوساتي تراودني مجدداً لتملأ بعضاً من الفراغ الذي لا يقطعه سوى دخول الحرس المفاجئ بين الحين و الاخر ليبرحوني ضرباً بالسياط و النبابيت أو ليغرقوني بدلو ماء بارد لأتجمد بعدها في الزنزانة من البرد دون غطاء . بدءت اتسائل إذا ما حضرني ملك الموت الان .. هل أنا مستعد

للقاء ! هل أنجزت مهمتي ؟ هل سيخلد ذكري في الارض من بعدي أم من عدم كنت و لعدم أكون و أذهب ؟

افترشت الارض الباردة من تحتي و نمت على شقي الأيمن متوسداً ذراعي اليمنى و قد ضممت ساقي إلى صدري .. و كأن ومضة سطعت لتشعل ذكرى تلك المواقف في ذاكرتي و خيالي .. تذكرت يوم أن مات الشيخ عثمان .. تذكرت وقفته على الفراش بكل إصرار وهو يصارع قدميه للوقوف عليها ليؤذن أذانه للصلاة ! . سألته بمرح أي صلاة تلك يا شيخي فأجابني بأنها صلاة الجهاد . التي غفل عنها عباد الله كافة إلا من رحم ربي وقليل ما هم . بدء بتلاوة الاذان بصوته الجهور النحاسي و ما إن وصل الى خاتمة الاذان "لا اله الا الله" حتى سقط على الفراش مبتسماً و ناظره معلق الى السماء .

تذكرت حديثه الاخير و ما قاله عن أبي .. أحقاً أنه كانت تراود أبي احلاماً كالتي تراودني ! لا زلت عاجزاً عن التصديق .

حتى بعدما أكدت أمي ذلك يوم أن أتت إلينا فريدة تنذرني من العدول عن دفع الضرائب .

كان أبي متيم بالربابة و الغناء على انغامها العذبة . كان ينتهز التفاف الناس حوله و تجمعهم ليحدثهم عن الجهاد في سبيل الحرية ، و لكن احداً لم يكن ينصت لأحاديثه تلك . كانوا كما التماثيل .. صم بكم عمي فهم لا يعقلون او

ينطقون او حتى ينكرون ما بهم . فقط يستمعون بآذان أصابها صمم . و قد كان عاقبة أمره ما كانت .

قالت زرقا إن أبي رأى حلماً كأحلامي تلك قبل مماته .. رأى تماثيلاً كثيرة تلتف حوله و هو واقف بربابته في المنتصف .. امتلأت السماء بالغربان السود حتى توارى بين سواد أجنحتها ضوء القمر . كان الموقف مرعباً و قد بلغ به الخوف مبلغه ، ثم بدء يعزف على أنغام ربابته ليطمئن نفسه و تهدء جوارحه . و ما إن هم بالغناء حتى سمع فحيحها و قد أتت على أنغام الربابة . انقضت تلك الافعى الضخمة بفكها السام على مؤخرة رأسه ليسقط في لحظته تلك عاجزاً عن الحراك ، و العرق يتصبب من كل تفصيلة في جسده .. يرقبها بعينيه بعد أن التفت أمامه .. تقترب منه ببطء و هي تتلاعب بلسانها المشقوق و ما ان تقترب منه لتلدغه فيفيق من نومته مفزوعاً صارخاً .

لكن لحظة .. أذكر أني رأيت حلماً مشابها لهذا و أنا صغير . حينها هدأتني أمي و صعدنا الى سطح بيتنا لنستمع الى أبي ينشد على ربابته ، ثم ما لبثنا قليلاً و قد جاءنا نبأ مقتله . اااه يا ابي المسكين .

لا اعرف ما تلك القوة التي سرت في جسدي مرة واحدة . اعتدلت بمشقة و أمسكت بيدي حجراً ساقطاً من جدران السجن المتآكلة ثم توجهت

ناحية الحائط خلفي و بدءت أكتب تلك الكلمات التي تخبطت بعقلي دون أن تنذر علّ من يسكن هنا بعدي يقرأ :

"اليوم يوم الملحمة ..

الساعة الساعة ..

الحاقة الحاقة ..

الصاخة الصاخة ..

اليوم نكتب بأيدينا سطور الخاتمة ..

ايها الراكعون .. الخائفون .. البائسون

ايها الواقفون على عتبات الموت

هبّوا .. انتفضوا

اكسروا قيود الخوف المستوطنة في بواطن نفوسكم و خباياها

توحدوا .. تجمعوا .. ثوروا

ثوروا فإن الخبز لا يأتي بالركوع

ثوروا فإن الكرامة لا تسترد بالدموع

اليوم .. كل يكتب خاتمته بيده

اليوم ينجو من ينجو ، و يبعث من يبعث الى متون الجحيم ..

اسقطوا المقاصل .. وارفعوا الصلبان .. وادلوا بالمشانق ارجوحة للاعناق

الساعة حق .. الحاقة حق .. الصاخة حق

و الثورة حق ..

الثورة حق ..
و الطوفان قاااادم .."
ألقيت بالحجر من يدي و قد شعرت بينبوع إحساس يتفجر في داخلي فهممت بالبكاء تلقائياً .
عدت إلى نومتي السابقة و أغمضت عيني لوهلة علّني أغط في نومة أبدية لا أصحو منها أبدا .. و ما لبثت أن سمعت وقع أقدام في زنزانتي أخرجتني من شرودي و أنتشلتني من دوامة الذكريات تلك .
جلبابه .. نعليه .. و منسأته التي كان يتكأ عليها في أغلب اوقاته.. أبي !
اعتدلت في جلستي بمشقة و نظرت إليه . مبتسماً كان و وجهه منير كعادته . جلس بجانبي و نزع عن رأسه عمته البيضاء و أخذ يمسح بها الدم عن وجهي أولاً و عن سائر جسدي بعدها . نظر إلي ولا زال مبتسماً ثم قال بمرحه المعهود :
- ألم تشتاق ؟؟
فسألته و أنا من شدة الألم بسائر جسدي عاجز عن تغيير ملامح وجهي لاظهر له اندهاشي فقلت بوجه جامد :
- إلام أشتاق ..؟
- للأرض الخضراء و الارانب اللطيفة و المرآة الذهبية ..
فأكملت معه تلقائياً و انا شارد الذهن انظر للفراغ و اللا شيء :
- المرآة الذهبية المرصعة بمآسة زرقاء ضخمة بأعلاها

- هيا بنا ..

قالها و كأنما كنت أنتظرها منه بفارغ الصبر . مد لي يده بحنان و هو ينظر إلي . نظرت إليه و كأني انتظر منه الاذن او أتأكد منه بوجوب الذهاب فأومأ لي برأسه أن هيا .. "

****

- أحسنت صنعاً ..
- خادمك المطيع يا مليكي
- ولكن أخبرني ما بال ذلك المدعو بالاصفر !
- إنه ثعبان من ثعابين الحارة التي تلهث خلف مصالحها

قال رؤوف بنبرة متأثرة :

- للأسف .. كنت أرجو أن ينصره أحد
- إنهم زمرة من نفوس رخيصة يا مليكي لا تستحق الحياة .

دخلت فريدة بسرعة على رؤوف و حاتم و هم يتحادثون بمكتب الوالي بالقصر و وجهها عليه من أثر البكاء و عيناها شديدة الاحمرار و قالت :

- هل حقاً ما سمعت !

فأومأ رؤوف إلى حاتم أن انصرف ثم بعد أن خرج نظر اليها رؤوف وهو صامت ثم قال بعد أن كررت سؤالها مرات عدة :

- نعم . ما سمعتيه حقيقه

وقعت من صدمتها على الارض تبكي بهيستيريا شديدة و تخفي عيناها بيديها و هو ينظر إليها .. يرقبها بنظرات حانية متعاطفة ما لبثت أن اختفت و تبدلت بغيرة وحشية تجلت في كلامه و هو يقول :

- اعلمي فقط أنه هو من جنى على نفسه . لقد حاول اضرام ثورة في ارجاء البلاد اولاً ثم دعى لنكث المعاهدة و الدخول في حرب مع الانجليز و بجانب ذلك هناك العديد من التهم الصغيرة الاخرى

فقالت و قد طغى البكاء على صوتها فأخفى بعضاً من الحروف :

- لكنك تعلم أنه اراد الحق و المشروع .

أجابها ببرود :

- لا مشروع إلا بقانون .. و في مملكتنا هذه .. أنا القانون .

زحفت فريدة و هي لا زالت تبكي ناحية رؤوف ثم اتكأت على ساقيه و همت بتقبيل قدميه فابتعد عنها رؤوف مسرعاً دون أن يلمسها .

- ارجوك يا أخي .. لا تؤذه ارجوك

فتمتم و هو يهم بالخروج دون أن ينظر إليها :

- اعدك أني لن أؤذه ..

****

اشتعل قلب زينب بالفزع و الخوف بعد غياب زوجها ليومين عن بيته .
خرجت للشوارع تسأل عنه فإذا الناس ينفرون منها و ينبذونها كالمجذومة و يدعونها بزوجة الخائن ! يلقونها بالوسخ و الأحجار و يزفها الصبية .
عادت لبيتها تحمل بعض جروح سالت منها دماءها و قد علمت بنبأ القبض عليه فقد أخبروها الناس و هم فيها شامتون . وجدت زرقا تحتضن الفتى الصغير بقوة و كأنما تعتصره بذراعيها و عيناها الزرقاوتان تشتعل احمراراً من فرط البكاء . تهذي بكلمات غير مفهومة و كأنما قد طار منها عقلها مجدداً .
جلست الزوجة المسكينة على الارض و هي تندب و تلعن حظها العسر و قدرها المتآمر عليها من كل ناحية .
لم تمض سويعات قلائل حتى سرى صوت جلجلة الجرس واضحة في آذانهم ففزعوا و انطلقوا من بيتهم تجاه المنارة بسرعة لينضموا وسط الحشد الكبير من اهل الحارة الناظرين الى حاتم المنتشي فوق منصته و في يمينه لفافة طويلة تحمل فرماناً جديداً .

****

١٩

خضر ..

" قمت و أنا أمد يدي نحو ظلمة أمامي قد سبقني أبي إليها و وقف ماداً لي يده . نهضت و أنا أرقبه بعيني وهو يختفي في الظلام تدريجياً و كنت في حيرة أأذهب أم لا ! أألتقط يده أم لا ! ، ثم قبل أن تختفي في الظلام يده .. التقطها .

في لمح البصر .. بمجرد أن طرفت بعيني و جدت نفسي وأبي في الارض المخضرة بالاعشاب و البراعم الصغيرة . اه لكم اشتقت لها حقاً ، و للأرانب البيضاء اللطيفة التي وجدتها تتلاعب من حولي أنا و أبي . و قرص الشمس الخجول كعادته . يتوارى نصفه خلف الجبال الشاهقة في أقصى الافق من خلفنا تاركاً شفقاً من مزيج اللونين الاحمر و البرتقالي مع زرقة السماء .

نبهني أبي و أفاقني من نشوة الاشتياق و الحنين الى تلك الارض التي لم أزرها مذ عدت الى الحارة . أشار بيمناه للأمام فنظرت لاتجاه اشارته فإذا بالمرآة المتأنقة الذهبية الضخمة الرابضة أعلى المرتفع القريب منا و المتوجة بمآسة زرقاء ضخمة و لامعة . تسارعت خطواتي انا وأبي تجاه المرآة و نبض قلبي يتسارع كلما اقتربت . ترى أي مغامرة جديدة سأشهد تلك المرة ؟ و أي رسالة تحملها تلك المغامرة ؟ كاد الشوق يقتلني حقاً فلقد عشقت تلك الارض و ذلك العالم الغريب حد الجنون فهرولت ناحية المرآة . لم أستطع

تحمل بطء السير و ملل الانتظار ، ثم نظرت خلفي فإذا بأبي يبتسم و يجري هو الاخر ليلحق بي .

..

وقف أمام المرآة .. رأيت انعكاس كل شيء . قرص الشمس الخجول ، الجبال الشاهقة ، الارض المعشبة و الارانب اللطاف .. و أنا !

أخيراً و بعد طول انتظار رأيت انعكاسي في تلك المرآة . تحسست وجهي الذي بدا في المرآة أكثر نضارة و حيوية و الدم ينطق في وجنتي كطفل صغير . و شعري الاسمر مسترسل على كتفيّ و ملابسي التي بدت في المرآة نظيفة و جميلة . كنت ارتدي جلباباً واسعاً من حرير ذو اللون الاخضر الداكن القريب من لون اوراق الشجر ، وعلى رأسي تاج من الذهب و في منتصفة ماسة زرقاء كالماسة المتوجة للمرآة و لكن بحجم صغير و يختلج زرقتها بعض البياض كما يختلج الزبد زرقة البحر .

نظرت الى هيئتي في المرآة مرات عدة و انا اتحسس كل موضع أراه في المرآة في جسدي و اتسائل .. تلك الثياب الممزقة التي أفقدها الدم بياضها و الوسخ نصاعتها كيف تبدلت في المرآة لتلك الثياب الطيبة ! ، شعري المشذوب الممزق كيف يبدو لامعاً و أنيقاً هكذا !

قاطع انعكاس أبي في المرآة تساؤلاتي . وقف خلفي و ربد على كتفي برقة و ابتسم قائلاً :

- لم تر شيئاً بعد ..

تعجبت و قلت له :

- كيف تبدو صورتي في المرآة هكذا !

- دع تلك التفاصيل جانباً و تقدم ..

ثم ابتسم و هو يبتعد عني و ألاح لي بيده مودعاً إياي . لكني لم أركض خلفه .. أغمضت عيني .. و دخلت في جوف المرآة .

..

فتحت عينيّ تدريجياً و ببطء لأجد نفسي على ظهر سفينة ضخمة تصارع أمواج عاتية لبحر هائج و السماء تمطر فوقنا بغزارة شديدة و الجو أشبه ما يكون بمطلع الفجر . كان هناك العديد من السفن خلف سفينتنا تطاردنا من خلفنا . كان كل من على سفينتنا فزع و خائف و الكل يجري في مكانه بعشوائية و عبث .. يصرخون و يبكون و يشقون جيوبهم كما تفعل النساء

.

وقف ربان السفينة في أعلاها و الشراع من أعلاه تتلاعب به الرياح جيئة و ذهاباً كأفاعيل الجان . كنت أظنه سيحمس اهل السفينة على قتال تلك السفن . لكن يبدو أنه كان أشدهم بؤساً و استسلاما . رفع سيفه عالياً في السماء ثم ألقى به في الارض بجزع و قال و دموعه تمتزج بماء المطر و موج البحر العابث :

- العدو من خلفنا و الموج أمامنا و الموت يحيط بنا من كل مكان .. و لا طاقة لنا اليوم بتلك الجيوش العاتية . فما ترانا فاعلون !

يبكي خوفاً على سفينته الضخمه الجميلة و على طاقمه الحزين . الكل من حوله يبكي و يرتعش في صمت دون أن يحركوا ساكناً .

لم أتحدث تلك المرة أو أعرض عليهم رأيي ، فالمؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين . هرعت نحو سيفه الملقى أمام أعين الطاقم بأكمله و حملته بكلتا يدي ، ثم هرعت نحو حبال الشراع الطويلة و بدأت أضربها بالسيف فتنقطع بمشقة و صعوبة .

نظر الجميع نحوي بعيون تطاير الشرر منها . تقدموا و هم غاضبون . أمسكوني بإحكام من يديّ و قدمي ، ثم تقدم رجل عجوز ذو لحية بيضاء و شعر شحيح يداري صلعة عريضة .. يبدو من هيئته أنه كبير الطاقم بعد الربان . قبض العجوز على وجهي و أحكم قبضته على ذقني و غاص في عيني لوهلة ثم نظر عالياً نحو الربان و قال له :

- إنه مس الشيطان يا سيدي ..

صدرت عن الجميع تأوهات خوف أعرض عنها العجوز و أكمل كلماته :

- إنها قوى الشيطان اللعين تسيطر عليه . أكاد أراها واضحة تتجلى في عينيه وهو مستسلم لها .

فقال له الربان متأففاً :

- هل ستعالجه !

فقال العجوز و هو ينظر في عيني و كفه الكبيره على فمي تمنعني من الكلام :

- لا .. ليس لنا طاقة بتلك القوة .
- ما الحل إذاً ؟
- ألقوه للبحر .. فالموج أولى بها منا . فالبحر عرش الشياطين يا سيدي .
- ليكن ما قلت ..

التف كل الناس في السفينة حولي و قيودني بأغلال من الحديد و لم يكتفوا بذلك .. بل وصلوني بوزن من الحديد السميك كي أغوص في أعماق البحر و يضمنوا عدم نجاتي .

أوقفوني على حافة السفينة مقيداً و مكمم الفاه عاجزاً عن الصراخ أو الكلام او التحرك . كل العيون ناظرة تجاهي و العجوز يقترب .

- بسم الرب العليم قاهر الشيطان منذ الازل و طارده من جنة الخلد بعدما أغرى أبانا و أمنا بالزنا في الموضع المحرم .. لتختنق تحت أمواج البحر الهائج يا عدو الله . لتغطس ولا تعد . و توسل بأنفاسك الاخيرة أن يقبل الله عقاب الغرق في الدنيا بدلاً من الحرق في متون الجحيم الخالدة إلى الابد ... آمين

تمتم الطاقم كله خلف العجوز و الربان معهم : آمين .

نظر العجوز إلى الربان و كأنما ينتظر الاذن بالتنفيذ ، فأومأ له الربان ببؤس و هو يمط على شفتيه ، فتقدم العجوز نحوي و ضربني بقدمه اليمنى في بطني بقوة لم اتوقع أن تصدر عنه ابداً .

سقطت من أثر الضربة للبحر .. عيناي كانت تلاحق ملامح الطاقم العابسه و عيني العجوز الغاضبة و الربان الآسف على ما جرى ، و أنا أخيراً قد علمت مقصدهم بـ "خضر كسر ف السفينة "
و ما إن تلامس ظهري وسطح الماء حتى أفقت .
..
أفقت على دلو ماء بارد ألقى علي أثناء غفلتني فاستيقظت فزعاً مقشعر البدن و أيقاع نبضات قلبي ترقص عليها قطرات الماء . أخفيت عيني خلف كف يدي لأحميها من ضوء النهار الساطع خلف الباب الصدء ، ثم دخل حارسان يحملان نبابيت و حبال في أيديهم .
أبرحوني ضرباً بكل قسوة و غيظ و كأني أنا من أغرى إبليس كي يوسوس لآدم في جنة الخلد ! حين ملوا من الضرب و انتهوا همّوا بتقييدي بتلك الحبال القاسية الجافة ، ثم ساقوني كالبعير للخارج ..
..
ساقوني حتى وصلت إلى قلب الحارة . حيث تسكن المنارة العتيقة بجرسها الناحب نذير الشؤم و الناس جميعهم قيام ينظرون . تكاد نظراتهم الحاقدة الغاضبة تخترقني و تحرق جلدي . يهتفون باسمي مسبوقاً ببعض السباب و متوجاً بكنيته الجديدة .. الخائن !
يلقيني الكبار بالحجارة و الاوساخ و يهتف الصبية خلفهم بالسباب و وابل من اللعنات . لكني كنت مبتسماً لا أعرف كيف أو لم ! ، وكل

تفصيلة في جسدي تنطق ألماً و تنزف دماً كالعرق و أنا مبتسم أمامهم لا أعرف لتلك الابتسامة تفسير يذكر ..

أوقفني الجنود أمام المنصة التي قد اعتلاها قبل مجيئي حاتم كبير فتوات المملكة . ابتسم هو الاخر فور حضوري مقيداً بين الحراس ثم بدأ يتلو نص الفرمان الذي يحمله في يده :

" لكل ظالم نهاية .. و لكل افتراء قصاص عادل ليشف صدور قوم مؤمنين .. قرر رؤوف باشا الوالي حاكم المملكة و ولي نعمتها بعد ما صدر عن المدعو خضر من تحريض على الفتنة بين الشعب و محاولة لخيانة الوطن الاعلى ، وما تخلل ذلك من اعتداء على العاملين و تطاوله عليهم بالسب و الضرب .. أن يعدم صلباً .. و يترك حتى تأكله الطير . أدام الله المملكة شامخة و أطال عمر مليكها .."

تعالت صيحات الرضا و الفرحة بين الحاضرين جميعاً و أنا ناظر إلى وجوههم الباسمة غير مندهش أو مكترث . لم أكترث إلّا لمنظر زرقا و زينب و هم يهرولون تجاهي و الحراس وقوف بيني و بينهم . بكاءهم الشديد المؤلم فور النطق بمحتوى الفرامان . أغمضت عيني كي لا أرى منظرهم المحزن ، ثم ما لبث الجنود أن قادوني بأغلالي تجاه الساحة الواسعه المباشرة لقصر الوالي و الناس من وراءنا يهللون و يرقصون . و يعلو صوت هتافاتهم و صيحاتهم أكثر فأكثر كلما هوى نبوت طائش من أحد الجنود على جسدي أو طالتني منهم ضربة سوط ملهبة .."

****

كانت فريدة واقفة في شرفتها مندهشة من تواجد بعض الحرس يتناقلون صليباً ضخماً من خشب بائس قوي فيما بينهم و آخرون يحفرون في الارض حفرة عميقة . زاد من دهشتها أكثر عندما رأت جموع اهل المملكة الغفيرة الغاضبة قادمة نحو القصر و في مقدمتهم بعض جنود المملكة يأسرون رجلاً اختفت ملامح وجهه من كثرة الدماء .

وقع قلبها و انفطر بعدما تجلت لها تلك الملامح و أسفرت عن وجه معشوقها خضر ! . وضعت يديها على فمها كي لا تصرخ و عيناها تسح من الدموع ما شاء الله لها .

هرعت داخل القصر للطابق الاول و دخل على أخيها رؤوف في مكتبه متسارعه الخطى دون أن تنتظر منه إذناً بالدخول ، ثم قالت و قد ضاعت معالم الكلمات من أثر البكاء الشديد :

- أرجوك يا أخي .. سيقتلونه .. افعل شيئاً .. ارجوك

نهض الوالي عن كرسيه و توجه إليها بخطى متثاقله و هو ينظر إليها بعينيه من أعلى إلى أسفل مرات عدة ، ثم قال ببرود :

- ماذا تريدينني أن أفعل !

- أي شيء .. أامرهم بأن يتوقفوا كي لا يموت .. ارجوك

فقال و قد رفع رأسه لأعلى قليلاً :

- لو أفصحت عن ذلك الخائن لشجع ذلك الكثير من اهل المملكة على اقتراف فعلته الحمقاء .. يجب أن يكون عبره .

فقالت و هي تصرخ من شدة الهلع الذي اصابها وقد سقطت من ذلك على الارض :

- لا تقتله أرجوك .. إن كنت حقاً تحبني !

فنظر إليها بغضب و هو يقول :

- لا تتلاعبي بي ..

فجأة . توقفت عن البكاء و مسحت دموعها بكفيها ، ثم نهضت عن الارض و توجهت تجاهه بخطى بطيئة الايقاع و هي تفتح بيدها أزرار قميصها ببطء شديد ثم قالت :

- أتحبني حقاً ..

أومأ برأسه دون أن ينطق و قد كان واقفاً في مكانه ثابتاً كصنم إبراهيم الاكبر يرقبها بصمت و هو يبتلع ريقه بصعوبة بين الحين و الاخر و عينيه على يداها التي تفتح الأزرار ببطء .

خلعت عنها قميصها و داخلها شيطان يكاد يخترق جسدها لينقض على ذاك الذي ظل يتأملها حتى ما كاد يسيطر على نفسه حتى انقض كالوحش عليها وهو يتمتم بكلمات تخرج بأنفاس حارة :

- إني أحبك يا فريدة .. أحبك حد العبادة .

فأسرت في نفسها و قد اطمأنت أنه قد استسلم لسلطان جسدها :

- و أنا أيضاً .. يابن العاهرة

أشاحت بنظرها عنه قد المستطاع تقززاً منه و من نفسها أيضاً حتى إذا نظرت إليه خلسة فصعقت مما رأته و أخذت تصرخ و تتلوى و تسعى للتملص من يده و هي تقول بكل هلع :

- ابتعد عني أيها الشيطان البشع .. لست لك بأضحية .

استمر الكونت في عمله على ظن منه أنها هكذا تستمتع بالأمر .. أما هي فظلت في صياحها و تلويها ، ثم استغاثت بصوت حزين :

- أغثني يا خضر ..

توقف الفتى الكبير عن العبث و تبدلت ملامحه للنقيض ، ثم ابتعد عنها و هو بعدل من ملابسه و شعره الخفيف ثم قال بنبرة غاضبة كطفل كسرت لعبته المفضلة :

- لقد كنت تتلاعبين بي ! ، تحبينه هو و ليس أنا ! أيتها المخادعة الغشاشة العاهرة ..

و كأنما أفاقت من سحرها و عادت لتراه مجدداً رؤوف بهيئته المعهودة .. نفت برأسها كلماته بسرعه و هرعت لتعانقه جازعة و هي تقول :

- أقسم لك أني احبك أنت لا أحد غيرك ..

لكنه ابتعد عنها بسرعه و قال و هو يعتصر قبضته :

- اخرجي من هنا أيتها العاهرة القذرة ..

حاولت تهدءته بوجه عابس خائف :

- أخي أرجوك ..
- قلت أخرجي و إلا ألحقتك بأبيك .

****

خضر ..

" نظرت إلى الصليب الظاهر من بعيد وإلى الناس من حولي و أنا اتمتم في نفسي للناس قائلاً قدموني .. قدموني .
يا للمساكين الحمقى .. أنظر إلى وجوههم الضاحكة و كأنما قد انتصروا على العدو الحقيقي الساكن خلف عتبات بيوتهم .
أوقفوني أمام الصليب الضخم و حلوا وثاقي .. نظر حاتم تجاه القصر إلى رؤوف الذي كان واقفاً في شرفة مكتبه و أومأ له برأسه و كأنها إشارة البدء . قاموا بتوصيل أطرافي الاربعة بالصليب بدسر سميكة قاسية لا تلين بمطارقهم . يضربون الدسر برسغ كلتا يداي و قدميّ ليتفجر الشريان و أنعم بموتٍ سريع .. ياللرحمة !
أغمضت عيني و هم يرفعونني بالصليب تجاه تلك الحفرة العميقة ليثبتوني فيها حتى أموت . ثم فتحتهما و انا أنظر في الأفق البعيد أمامي ..
رأيت أبي .. يرتدي ثياباً كالتي ارتداها انعكاسي بالمرآة الرابضة فوق المرتفع في العالم الاخر .. عالم السنابل و البراعم و الارانب البيضاء اللطيفة

المسالمة . كان ينظر لي بابتسامته المعهودة و في يمناه ربابته .. قال لي بعتاب حنون ..

- ألم أحذرك مراراً من الصليب يا ولدي !

نظرت له .. قلت و أنا أيضاً أبتسم :

- أخالفك الرأي يا أبي .. ما كان يجب أن تحذرني منه مطلقاً . بل كان يجب أن تحثني عليه .. تدفعني إليه دفعاً .. إن الصليب هو مفتاحي للعالم الأخر يا أبي كما كانت ربابتك هي مفتاحك ايضاً .. و لكم اشتقت لذلك العالم بقدر كراهيتي لتلك الحياة و تلك الايام التي قضيتها من قبل .

نظر إلي و ابتسم ثم قال :

- نم يا صغيري .. نم على أنغام ربابتي كما في الايام السابقه .

نظرت نحو الناس من حولي .. يتضاحكون و يرقصون كالسكارى و المعاتيه المجانين . فرحين بقضاءهم على الخائن ! .

كان من بينهم عدد قليل لم يضحك و لم يبتسم و لم يرقص و لم يهلل . كانت زرقا و زينب و فريدة و صبيي نور الدين و معهم الخواجة جوو ينحبون حتى اختفى بياض أعينهم من شدة البكاء .. و ما حيلتي سوى أن أنظر إليهم .. و ابتسم !

ابتسمت .. و اخذتني نوبة هينة من قهقهات الضحك بعدما رأيت الدم يتفجر من رأس حاتم الدموي أثر حجارة عابثة أصابته قد ألقاها الفتى نور الدين !

رفعت رأسي بمشقة و صعوبة بالغة .. قلت لأبي و رأسي قد بلغ بها الثقل ما أعجزني عن رفعها اكثر من ذلك .. :

- غنّي لي يا أبي .. لكم اشتقت إلى ألحانك .. غنّي .."

****

٣٠

تعددت أسمائنا .. ألواننا .. هيئاتنا .. طبائعنا و صفاتنا .

اختلفنا في التبرير و التفسير ، و اختلفنا في تحليل الموقف و إعطاء كل ذي حق حقه . تباينت أنواعنا مهما تباينت و اختلفت ..

و لكن اتفقنا على أن بداخل كل منا .. خضره الخاص ..

..

شق موج البحر دارنا ..

م الكآبة و الضجر

و النواح حرر مرارنا
و المطر كيف الحجر
و السنابل و الحبوب
تجري ع الموت من سكات
تمنع الريح م الهبوب
تبكي ع السقا اللي مات
سقا غلبان اسمه .. خضر
و الغلابة دول كتيير
يسقي زرع الناس بعطر
يفرش الأرض بحرير
صلى فوق الصلد .. نبت
و البراعم لجله .. شبت
و الرياح لعيونه .. هبت
و البنات .. عشقت و حبت
مرة و الأيام كتير
خضر كان ع البحر ضيف
بس ضيف كان مش خفيف
خضر كسر ف السفينة
موسى للملاح شكاه
صوته سمع ف المدينة
لما بحر الموت تواه

خضر مات لجل الغلابة

و الديابة ..

لما شافوا ان السفينة فيها عيب

وضعوا ختم العفو عنها

و الفرح قتله النحيب

دي روايه مش أكيده

إن خضر مات غريق

قالوا مات فوق الصليب

الأكيد إنه بريء ..

قالوا دق عضام غلام

كان وحيد امه و ابوه

لا تفاهم .. لا كلام

فوق صليب و علقوه

مات و جفن العين بيبكي

كل موضع فيه بيشكي

كات أشعة شمس يومه

تكسر الشوك عن إيديه

تغسل الدم ف هدومه

تنحني لدمعة عينيه

و لما يضحك خضر مرة

كات تفارق كونها .. ليه

خضر كان تجسيد صريح

للمآسي و الآلام

خلدوا جسمه ف ضريح

و اسمه صار منهج علام

تنحنيله الدنيا لما

يدي ضهره للحياة

فوق شفايفه تلقى بسمة

مهما قال من ألمه اااه

شق موج البحر دارنا

لجل حزنه على اللي راح

بعد موت السقا بيننا

النحيب و الخوف .. مباح

خضر ..

بقلم : محمد البشير ..

تمّت في .. ٢١ / ٤ / ٢٠١٦

أعمال أخرى للكاتب :

مذكرات س .. " مجموعة قصصية " لم تنشر بعد

بئر أبناء الرب .. " رواية " تحت الطبع

قصائد شعرية بالفصحى و العامية المصرية

للتواصل مع الكاتب :

https://www.facebook.com/Al.bashir1998

albashir327@gmail.com